الفيصل

مجلة ثقافية شهرية - العدد ٣٣٥ - جمادى الأولى ١٤٢٥هـ - يوليو ٢٠٠٤م
ALFAISAL MAGAZINE - NO. 335 -JULY 2004

- الاقتصاد الرقمي وآفاق المستقبل
- جمعية العلماء في الجزائر ومنع تعليم العربية
- هل هناك عمر محدد لتعلم القراءة؟

اختر رفاهيتك المنزلية



من وجبات مميزة إلى وسائل ترفيهية سمعية ومرئية في كنف ضيافة عربية أصيلة
نقدمها لك على مقاعد وثيرة ... لن تشعر بالفرق بين خدمتنا على أسطولنا الحديث وبين رفاهيتك المنزلية.

عالم جديد من الاختيارات

SAUDI ARABIAN AIRLINES الخطوط الجوية العربية السعودية

www.saudiairlines.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الفيصل

مجلة ثقافية شهرية . العدد ٣٣٥ . جمادى الأولى ١٤٢٥ هـ . يوليو ٢٠٠٤م
ALFAISAL MAGAZINE - No. 335 - JULY. 2004





الاقتصاد الرقمي وآفاق المستقبل

الحصول على تقنيات المعلومات وإدارتها وتوفيرها للمستثمرين يتطلب نفقات غير قليلة، كما أن بناء الصناعات التي تنتج تقنيات المعلومات يحتاج أيضًا إلى رأسمال لا يستهان به.

وقد برز ما يعرف بالاقتصاد الرقمي، وهو ما يوحي بأن تقنيات المعلومات تستطيع تقديم اقتصاد جديد يحقق نتائج أفضل من الاقتصاد غير الرقمي ... فكيف يكون التوجه نحو هذا الاقتصاد ؟

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:

ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ .
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:

١٥٠ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات،
أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:

هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ٠٢٥٨ ـ ١١٤٠

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها. وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدرًا من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف
- اللاتيني.

الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتّاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.

- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي « رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصًا القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

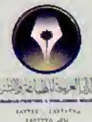
الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

السعودية ٨ ريالات ـ الكويت ٦٥٠ فلس ـ الإمارات ٧ دراهم ـ قطر ٧ ريالات ـ البحرين ٧٥٠ فلس ـ عُمان ٧٥٠ بيسة ـ الأردن ٥٠٠ فلس ـ اليمن ٦٠ ريالاً ـ مصر جنيهان ـ السودان ٧٠ دينارًا ـ المغرب ٨ دراهم ـ تونس دينار واحد ـ الجزائر ٨٠ دينارًا ـ العراق ٤٠٠ فلس ـ سورية ٣٠ ليرة ـ ليبيا ٨٠٠ درهم ـ موريتانيا ١٠٠ أوقية ـ الصومال ٢٠٠٠ شلن ـ جيبوتي ١٥٠ فرنك ـ لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية ـ الباكستان ٢٠ روبية ـ المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية ـ الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع ـ هاتف٤٨٧١٤١٤(٠١)، فاكس ٤٨٧١٤٦٠(٠١)، مصر ـ مؤسسة توزيع الأهرام ـ شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ ـ فاكس ٣٣٩١٠٩٦ ـ ٢٠٢..، سورية ـ المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٠٢٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨، فاكس ٢١٢٢٥٣٢ ـ ١١. ٠٠٩٦٣، تونس ـ الشركة التونسية للصحافة ـ ٣نهج المغرب ـ ص.ب ٧١٩. فاكس ٧١٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ ـ ٧١ ـ ٠٠٢١٦، قطر ـ دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع ـ ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ ـ فاكس ٤٦٦١٨٦٥ ـ ٠٠٩٧٤، الأردن ـ شركة وكالة التوزيع الأردنية ـ ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ ـ فاكس ٤٦٣٥١٥٢ ـ ٦. ٠٠٩٦٢، البحرين ـ مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ ـ فاكس ٥٣١٢٨١ ـ ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة ـ مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ ـ فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ ـ ٤ ـ ٠٠٩٧١، الكويت ـ شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٢٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ ـ فاكس ٢٤١٧٨٠٩ ـ ٠٠٩٦٥، المغرب ، الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ ـ ٠٠٢١٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٢، الجمهورية اليمنية ـ القائد للنشر والتوزيع ت: ٢٠١٩٠١/٢ ـ ٣ ـ ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧



رسائلكم



ليتني أفوز

لا أستطيع إلا أن أقول لسيادتكم: وفقكم الله عز وجل . في اختيار الفائزين، وأقول لكم متى أجد اسمي فائزة، لأني أظن أنكم حفظتم اسمي شهريًا لمشاركتي بأكثر من كوبون، ولم أوفق ولا مرة، مع العلم بأن محافظة الشرقية بمصر تحظى بنصيب الأسد في الفائزين، فأتمنى أن يكون ختام صبري هو فوزي بالجائزة الأولى، وتتحقق أعظم أمنية لي.

فأرجو منكم أن تعلموا أنني أسافر إلى المراكز والمحافظات لكي أشتري الفيصل بأغلى من سعرها، وذلك لندرتها في السوق؛ ومن ثم البحث عن الإجابة والتوصل إليها بصعوبة، ثم إرسالها دفعة واحدة لتوفير مصاريف البريد..

وأنا تواقة إلى الفوز بهذه الجائزة حتى أساعد طالبة في مدرسة الصم والبكم التي أعمل فيها، وهي يتيمة، وتحتاج إلى من يساعدها.

سناء إبراهيم عبدالحليم الزغبي
مصر ـ محافظة البحيرة
دمنهور ـ ص.ب ٢٢٧١٤
بريد شرنوب ـ أبي درة

التحرير:

لقد حرصنا في هذا العدد على إفساح المجال في هذا الباب لرسائل الإخوة المتسابقين الذين يحرصون على المجلة، ويأملون في الفوز بإحدى جوائز المسابقة.

ونحن، إذ نقدر لبعض هؤلاء الإخوة أهدافهم الخيرة وسعيهم إلى خدمة الآخرين من خلال الفوز بالجائزة المادية، لا نملك غير الأمنيات الطيبة لأن أي نوع من التدخل في توزيع الجوائز يفقد عنصر المساواة بين جميع المتسابقين.

ولعل الملاحظة التي تبدينها في فوز أكثر من قارئ من محافظة الشرقية بالجوائز دليل على أن القرعة هي التي تحسم المسألة، ومن ثم تجدين وغيرك من الإخوة كفة منطقة أو دولة أرجح من غيرها، ولعل ذلك يرجع إلى زيادة المشاركين من هذه المنطقة أو تلك الدولة.

فلنبحث عن الإجابة

اقترح الأستاذ عمر كمال شبارة من كفر الزيات ـ مصر في العدد (٢٣٣) أن تكون الأسئلة من أعداد سابقة، وذكر بأن تكون قبل سنة هجرية من تاريخ إصدار العدد.

وبدوري أحيط الأستاذ علمًا إذا كان هو لا يقدر على حل هذه الأسئلة كما ذكر أنه تابعها مدة خمسة أيام مستمرة، ولم يحصل على إجابات فإنه لو دقق قليلاً في بعض المراجع لوجد الإجابات بكل سهولة، ولو فرضنا أن المجلة قامت بوضع الأسئلة من الأعداد السابقة كما ذكر كيف نستخرج الإجابات لو كانت من بين السطور؟ هل تعتقد أن كل قارئ للمجلة سوف يحفظ ما صدر في الأعداد السابقة؟ وكذلك لا يوجد فهرس سنوي لتلك الأعداد خلال السنة حتى يكون الحصول على الإجابة سهلاً.

والأسئلة في ظني أسئلة عامة قد نسمع بها أول مرة فهذه بادرة من المجلة أراها ممتازة لكي يطلع القارئ على مصطلحات وأبيات شعر وأسماء لم نسمع بها، ولم تقم المجلة بوضعها داخل المجلة.

وأنصح أخي الأستاذ عمر أن يبحث جيدًا، لأنه سيجد الإجابات.

أما بخصوص الجوائز فأرجو أن تكون نقدية؛ لأن الاشتراك، كما ذكر بعض القراء، لا تصل الأعداد إلى عناوينهم، ولا نعلم ما مصيرها، وأين اختفت.

تمنياتي لكم بالتوفيق والتقدم وإلى الأمام.

محمد شفيق حيمور
ص.ب ١٤٠٦٩٨
عمان ١١٨١٤

التحرير:

اختلاف وجهات النظر شيء طبيعي، والمسابقة محل

جدل واسع بين القراء. فهناك من يريد الأسئلة السهلة التقليدية التي تسهل الإجابة عنها، وهناك من يرى ضرورة البحث والتنقيب، وإذا كنا نفكر جديًا في تطوير المسابقة شكلاً ومضمونًا، فإننا لا نرى فيها صعوبة يمكن أن تعوق القارئ عن الوصول إلى حل أسئلتها، ولا أدل على ذلك من ارتفاع نسبة الإجابات الصحيحة في كل عدد.

حارس أم حاكم؟

أرجو أن أبعث لكم هذه الملاحظة حول أسئلة المسابقة للعدد (٣٣٢) والملاحظة هي:

السؤال الخامس المرزبان:

- حاكم ولاية فارسية قديمة.

- أحد الحراس الذين يقومون على حراسة كسرى.

لقد اطلعت على الكتب الآتية: (المنجد العربي، لسان العرب، متن اللغة) وغيرها من المعجمات العربية ولم أجد هذه المعاني المذكورة في السؤال، وكذلك اطلعت على:

- المعجم الذهبي: فارسي عربي، للدكتور محمد التونجي.

وكان معنى المرزبان: كلمة فارسية تعني: (حارس الحدود - حاكم الحدود). ويسمى أيضًا مرزدان.

- قاموس الفارسية: فارسي، عربي، للدكتور عبدالمنعم محمد حسنين، ويعني: (حارس الحدود - حاكم الثغور).

إلا أني لحسن الحظ وجدت المعنى: حاكم ولاية فارسية قديمة موجوداً في الموسوعة العربية العالمية.

مع خالص شكري

رلى كمال أسعد

الأردن - عمان - ص.ب ٧٢٢٦

الرمز البريدي ١٢٤١٨

التحرير:

نشكر لك مثابرتك، ووصولك إلى الإجابة الصحيحة، وهذا هو القصد من المسابقة، ولعلك تتفقين معنا أن الفارق كبير بين حراسة كسرى، وحراسة الحدود، كما أن المعجمات قد تختلف في مدى إحاطتها بجميع معاني المفردة، أو في قصر الشرح وطوله.

أما نحن فنتفق على أن في الرجوع إلى المراجع والمعجمات فائدة كبيرة.

ردود سريعة

الأخ محمد كامل أحمد خطاب - دمنهور - مصر:

إذا كنا قد كتبنا ردًا واحدًا لك وللأخ القارئ الذي ذكرت اسمه، فإن فوزه بإحدى جوائز المسابقة لا يعني أن تفوز أنت أيضًا، لأنه لا علاقة بين الرد والفوز، لأن الأمر، كما قلنا وأوضحنا من قبل، يخضع للقرعة من دون أي تدخل، ولا نملك لك غير الدعاء بالتوفيق، مع تقديرنا لحرصك الشديد على اقتناء المجلة ومتابعة ما ينشر فيها.

الأخت سميحة محمد حسن الزغدل - عمان - الأردن:

نقدر لك اهتمامك بمتابعة مجلتك «الفيصل» وحرصك على التواصل. وكنا نود لو نستطيع تحقيق رغبتك، ولكن هذا أمر خارج نطاق قدرات المجلة، وإذا كنت من المتابعين للمجلة، لعرفت رأينا في هذا الأمر، ونكرر الدعاء لك بالتوفيق.

الأخت غيثاء قصاب - حلب - سورية:

نشكر لك إشادتك، ونتمنى أن نكون عند حسن ظن جميع الإخوة القراء، ونتتظر آراءكم واقتراحاتكم، وسنظل في انتظار مشاركاتك التي نأمل أن تجد طريقها إلى النشر.

الأخ طارق محمد علي - الإسكندرية - مصر:

نحرص على توافر أعداد المجلة في كل محافظات مصر، والإسكندرية واحدة من أكبر هذه المحافظات، ولدى المجلة قراء كثر وكتاب يتواصلون معها، ويتابعونها.

ويسرنا أن نتلقى مشاركاتك، شاكرين لك إشادتك بالإخراج الفني وأن تنال أعداد المجلة رضا جميع القراء.



البصـرة الفيحـاء: قـراءة ف

...ي سفر التاريخ

محمد رجب السامرائي

أبوظبي ـ الإمارات

نافذة العراق المُشرعة على نسائم الخليج العربي، وفوق أديمها توهجت السنون السرمديات، والمسكونة بأناشيدها التي لا تُبارح وجه الشعر، وأشرعة السفن المبحرات صوب الألق البعيد البعيد .. مدينة عربية جذرها من نار، وغصونها ريح تغذي الجذر، وتفتح الأبواب المُشرعة. أمها الغابات، ووالدها الفنار الوهّاج، وأصحابها البحار، وزادها التمر الشهيّ، وقدرها ثرٌّ بماء الرافدين دجلة والفرات حتى الإقرار.

مجمع البحرين الأجاج العذب، وبلد النخيل الباسقات بطلعها النضيد، وبمدٌّ شط العرب وجَزْرِها في الليل والنهار المؤتلق أبدًا في رحابها الواسع.

نافذة العراق المُشرعة على نسائم الخليج العربي، وبندقية الشرق، ولؤلؤة الخليج، والأرض الغليظة في قول العرب: «حجارة صِلاب». مدينة عربية عريقة شَهِدَ لها الخليفة العباسي هارون الرشيد بقوله: «نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة».

لم ينسها أهلها وعشاقها، وإن طفقوا يسيرون في شعابها ودروبها: لأنّها تمطرهم بفيض الذكريات الجميلة عن زمن الإشراق والإبداع والحرف العربي الأصيل، فيسمع الجميع أصداء قوافي الشعر متجاوبًا في أفقها المديد، فيتمثل للرائح والغادي سوق المربد الشهير، وبعروض وتفاعيل الفراهيدي، وبدروس النُحاة، ومصنفات الجاحظ والأصمعي وشعرائها وكتّابها وفنانيها، ووهج الحروف المشرقة أبدًا مثل عيني البصرة الواسعتين صوب المدى البعيد».

موقع البصرة القديمة كان في المنطقة التي بنيت فيها مدينة الزبير الحالية، وتتسع إلى الشمال منها حيث تم العثور على بقايا لقصور قديمة من قصور البصرة تقع إلى الشمال من مدينة الزبير. وكان هنالك نهر يمتد من شط العرب إليها، وقد درس ذلك النهر، كما حفر العرب عدة أنهر تتصل بعضها ببعض لتروي المدينة وبساتينها من جميع جهاتها حتى أصبحت تلك الأنهار وما يحيط بها من قصور وبساتين تعدّ جنة الله على الأرض.

وصلنا مدينة البصرة قادمين إليها من العاصمة بغداد صوب الجنوب بعد نحو ست ساعات بعد مرورنا بعدّة محافظات جنوبية، إلى أن وصلنا مدينة القرنة حيث يلتقي النهران الخالدان دجلة والفرات فيها ليتعانقا وتغني شفاه دجلة في ثغر الفرات العذب، ليكونا شط العرب، فالواحد وطن يظلله آدم عليه السلام حيث توجد شجرة آدم وسط القرنة، ويؤمها الناس للزيارة.

أجل يفترش أرض مدينة القرنة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي دعا ربّه تعالى أن تبقى هذه الأرض والأشجار ولثمة الرافدين لتسكن رمالها الرحمة، ولينبت في أرحامها كل الاخضرار، ويظل فوق ثرى القرنة الاتحاد أبديًا بين القُلة والثغر الباسم؟

البصرة إحدى الولايات الإدارية الثلاث التي يضمها العراق وهي: بغداد والموصل والبصرة. وفي عهد الوالي

العثماني مدحت باشا (١٨٦٩ ـ ١٨٧١م) أخذ الناس يتوافدون إليها حتى احتلالها من قبل القوات البريطانية عام ١٩١٤م.

بعد أن قطعنا زهاء ثمانين كيلو مترًا من مدينة القرنة وصلنا البصرة، وشرعنا نقرأ في سفرها تاريخها التليد، ونقلب صفحات يسيرة عنها فطفقنا سائرين في أحيائها وشوارعها وأبرز مناطقها ونحن نتطلع صوب شناشيلها حيث يسقط ظلها أبدًا بين الماء والخضراء.

وكانت البداية ...

إنّ الحديث عن تأسيس مدينة البصرة العراقية حديث ذو شجون، إذ يحيلنا إلى الرجوع إلى سنة ١٤ هجرية، عندما قام القائد عتبة بن غزوان المازني أيام خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بتأسيس مدينة البصرة لتكون في بداية الأمر حامية للجيش الإسلامي، ونقطة انطلاق للعمليات العسكرية نحو أقصى مكان لتحمل نشيد الفاتحين المسلمين «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر».

أولاً : ابن غزوان و٨٤ رجلاً

احتفظت البصرة بتخطيطها القديم ـ العسكري ـ كمنطلق لجيوش الفتوحات الإسلامية، وانطبقت عليها جميع مواصفات السكن الملائم والاستقرار والأمان، حتى نجد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قد وافق قائده عتبة بن غزوان بعد أن أعلمه بطبيعة موقع البصرة وأهميتها مع الصحابي القائد سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ حول اختيار موقع مدينة الكوفة سنة ١٧ هجرية، وعقبة بن نافع لمدينة القيروان سنة ٥٠ هجرية.

تروي المظان التاريخية عن تاريخ نزول عتبة بن غزوان سنة ١٤ هجرية لمدينة البصرة، إذ قدم عليها مع ٨٤ رجلاً من المسلمين، فاختطها، وعرفت في البداية باسم «أرض الهند» وقصرت بموقع الخريبة ـ من ضواحي البصرة فيما بعد ـ وكتب ابن غزوان رسالة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حول ضرورة اختيار منزل للمسلمين قائلاً: «إنّه لا بدّ للمسلمين من منزل يشتون فيه إذا شتَوا، ويسكنون فيه إذا انصرفوا من غزوهم». وبعد أن قرأها الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ردّ عليه قائلاً: «بأن يجمع أصحابه في موضع واحد، ويسكن قريبًا من الماء والمرعى، وأن يكتب إليه بصفته».

شرع عتبة بن غزوان بعد قراءة رسالة الخليفة بالمرور بموضع «المربد» واختط مدينته الجديدة ـ البصرة ـ فوجد فيها الكَذَّانَ الغليظ فقال: «هذه البصرة انزلوها باسم الله» وذكر المستشرقون بعض الآراء الأخرى في تسمية المدينة، إذ يعتقد المستشرق المعروف هاريتمان: أن هناك مدينة قرب مدينة البصرة العربية قد بناها الأكاديون، وهم أول العرب الساميين الذين انتقلوا من شبه الجزيرة العربية إلى العراق، والذين أقاموا أول إمبراطورية في التاريخ البشري في الألف الثالث قبل الميلاد، وكان اسم تلك المدينة تدمر أو تردم أو تردن، وقد تحور هذا الاسم في زمن الإغريق بعد غزو الإسكندر المقدوني إلى تردون أو تريدون.

عرفت البصرة بأسماء أخرى فقد عُرفت باسم بالخريبة قبل الفتح الإسلامي، وبعد بنائها سميت بأسماء كثيرة منها أم العراق، وخزانة العرب، وعين الدنيا، وذات الوشامين، والبصرة العظمى، والبصرة الزاهرة، والفيحاء



البصرة كانت منطلقاً لجيوش الفتوحات الإسلامية

كما أن اسمها في الآرامية، كما يقول المستشرق لسترانج نقلاً عن كتاب جغرافي لابن سرابيون: «كانت تدعى قبل الفتح الإسلامي بصرياتا»: إنّ هذا الاسم لا يتعارض بل يؤيد التسمية العربية التي تعني «أرض بصرى» أي ذات حصى؛ لأن الآرامية هي من عائلة اللغة العربية أو يمكن جعلها صيغة قديمة للغة العربية. أما في اللغة الكلدانية - وهي لغة القبائل السامية العربية التي أنشأت إمبراطورية بابل الحديثة في القرن السابع قبل الميلاد - فإن كلمة بصر تعني الجزر الضعيف وبصريا وبصيريي تعني الأقنية جمع قناة، وباصرا تعني مجموعة الأكواخ، وكل هذه الأمور يوافق الواقع أيضًا، فإن عملية المد والجزر كانت تصل إلى المنطقة بشكل ضعيف، وذلك لكونها تقع على خور ضيق - يدعى خور الزبير في الوقت الحاضر - يتصل بخور أكبر منه - يدعى خور عبدالله حاليًا - يتصل بالخليج العربي، كما أن هناك بعض الأقنية والأنهار كانت تصل إليها في ذلك الزمان، ولأن المدينة اتخذت معسكرًا للجيش الفارسي، وربما كانت كذلك أيام الكلدانيين قبلهم حيث إنها تقع على مفترق الطرق العالمية، ومن المؤكد أنهم استخدموا الأكواخ لسكن الجنود. وفي اللغة الفارسية فإن معنى كلمة بسيراه تعني نقطة التقاء الطرق، وعلى الرغم



مطار البصرة الدولي

من أن هذا الرأي عُدَّ ضعيفًا لقلة من نادى به إلا أنه يمثل واقع المنطقة، فالبصرة واحدة من أهم مناطق التقاء الطرق التجارية في العالم على مرِّ العصور.

عرفت البصرة بأسماء أخرى فقد عُرفت باسم بالخريبة قبل الفتح الإسلامي، وبعد بنائها سميت بأسماء كثيرة منها أم العراق، وخزانة العرب، وعين الدنيا، وذات الوشامين، والبصرة العظمى، والبصرة الزاهرة، والفيحاء، وقبة العلم، كما تدعى الرعناء، وذلك لتقلب الجو فيها في أثناء اليوم الواحد، وخاصة في فصل الربيع، وتجمع مع الكوفة بالمِصْرَيْن، إذ إن كلاً من البصرة والكوفة كانت تعدّ أعظم أمصار العالم الإسلامي من دون منازع - قبل بناء بغداد طبعًا - كما تجمع مع الكوفة أيضًا ويطلق عليهما العراقان أو البصرتان.

أما مسجدها الأعظم فخطه عتبة بن غزوان، ويذكر أنّ مساكن المسلمين كانت في بداية تأسيس البصرة

مبنية من القصب مع مسجدها ودار الإمارة، لهذا كان المسلمون إذا أرادوا الخروج للفتوحات فإنهم يقومون بنزع ذلك القصب ويحزمونه ويصفونه حتى يرجعوا من الفتح، فإذا عادوا إلى البصرة أعادوا بناء ما هدموا فكانت هذه نواة البصرة الحالية؟ وأولى الأمويون اهتمامهم بالبصرة فانتشرت القصور والدور فيها، وكانت مزدانة بالورد والأشجار ومطرزة بالنقوش الزخرفية، أما في عهد الخلفاء العباسيين فحصن الخليفة أبو جعفر المنصور سور البصرة وخندقها لحمايتها من هجمات الأعداء.

وهناك مدن حملت اسم البصرة نفسه، فمثلاً توجد مدينة في المغرب تحمل الاسم نفسه، وقد اختفت من الخريطة في الوقت الحاضر، ولم يبق لها من وجود إلا في كتب التاريخ، وكانت تقع على هضبة تشرف على ناحية الغرب من وادي مدا، قرب مدينة طنجة، والفاتحون العرب هم من بناها، ولم يأت هذا التشابه في الاسم بطريق المصادفة، بل إن البصريين الذين كانوا ضمن الفاتحين والذين كانوا يتمتعون بمقام مرموق حسب ما يبدو، أطلقوا ذلك الاسم على تلك المدينة الجديدة تيمناً ووفاءً لمدينتهم التي فارقوها، ولا عجب في ذلك لأنّ البصرة تفرض محبتها لا على أهلها فقط، وإنما على من سكنها فترة من الزمن أيضًا، أما مدينة بُصرى التاريخية فإنها تقع في بلاد الشام، وكذلك كانت

احتفظت البصرة بتخطيطها القديم ـ العسكري ـ كمنطلق لجيوش الفتوحات الإسلامية، وانطبقت عليها جميع مواصفات السكن الملائم والاستقرار والأمان

توجد قرية قرب بغداد تدعى بُصرى، ويبدو أن هذه القرية قد زالت من الوجود أيضًا.

الفاتحون في البصرة

بمرور السنين استعمل المسلمون في البصرة طريقة بناء جديدة من «اللّبِن» (الطين المجفف والعشب) لبناء السقوف والجدران، ويورد أديب البصرة أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه البيان والتبيين أنّه: «لما بنى عتبة بن غزوان وأصحابه بناء اللّبِن كتب إليهم عمر بن الخطاب قائلاً: قد كنت أكره لكم ذلك، فإذا فعلتم فعرّضوا الجدران، وارفعوا السُمْك وقاربوا بين الخشب».

بعد ذلك شهدت البصرة الجديدة تدفق سيل من الفاتحين المسلمين أولاً دون نسائهم، مما يدل على طبيعة مهمات رحلات الفاتحين وعدم استقرارهم في موضع ثابت؛ وذلك لظروف الفتوحات وانطلاقها من البصرة إلى فارس. ثم تدفق على البصرة عدد كبير من المهاجرين من كل أطراف الجزيرة العربية خاصة من اليمن والبحرين بقصد المشاركة في الفتوحات والعمل، ولهذا وزعت عليهم الخطط بحسب انتماءاتهم القبلية ليعيشوا في منطقة الخريبة والزاوية وبني تميم.

الأشعري: صرف الخطط للعرب

حين دخل أبو موسى الأشعري البصرة عمل أولاً على تغيير هيكل منشآتها الدينية والمدنية والإدارية، فشيد المسجد ودار الإمارة باللّبِن، ويعدّ أبو موسى أوّل من صرف الخطط للعرب، وخصص لكل قبيلة محلة خاصة بهم، وأقرّ الناس بالبناء، ويعدّ أبو بكرة أوّل رجل يغرس النخل في البصرة، حتى يعدّ أبو بكرة أول رجل غرسها، ثم فتحت الأراضي التي ليست أرض الخراج للأفراد، وزرعوها بموافقة الخليفة عمر بن الخطاب

رضي الله عنه، فرد عليهم لما بلغه أنّهم قد اتخذوا الضياع، وعمروا الأرضين، وحذرهم ابن الخطاب بقوله: «لا تنهكوا وجه الأرض فإنّ شحمتها فيه».

لقد سكن البصرة بعد تمصيرها الكثير من الصحابة الكرام رضيّ الله عنهم وحفظة القرآن الكريم مما مهّد لهذه المدينة أن تتبوأ مكانة رفيعة بين البلدان الإسلامية فأصبحت بفضل هذه الطبقة إحدى عواصم الفقه الثلاث تشاركها كل من الكوفة والمدينة المنورة، ولا توجد في العالم الإسلامي عاصمة للفقه غير هذه المدن الثلاث إلاّ عندما بنيت بغداد، فشاطرت هذه المدن، وأخذت من كل مدينة نصيبًا حتى أصبحت تبزّ الجميع.

الجانب العمراني

إنّ للجانب العمراني للبصرة خصوصية لا تشاركها فيها أي مدينة في العالم في ذلك الوقت، ومن المؤكد أن مهندسي مدينتي البندقية في إيطاليا، وأمستردام في هولندا، قد استفادوا كثيرًا من تصميم البصرة القديمة، فعلى الرغم مما لهاتين المدينتين من شهرة عالمية في الماضي والحاضر إلا أنهما لم تبلغا العظمة التي وصلتها مدينة البصرة في ماضيها العريق.

لقد تم بناء المدينة - البصرة - بطريقة فريدة، فجزء منها كان مكتظًا بالبيوت والأسواق والمساجد وغير ذلك من المرافق الأخرى، ويتخلله عدد من الأنهار المستخدمة لأغراض الشرب والنقل أو المواصلات، وقسم منه ميناء بحري يعج بالسفن القادمة أو الذاهبة إلى معظم أنحاء العالم. وقسم تجاري ثقافي يتوافد إليه الأعراب من أنحاء جزيرة العرب لغرض الاتجار وشراء ما يحتاجون إليه من مواد غذائية وصناعية، وبيع ما عندهم من إنتاج حيواناتهم، ويختلط الشعر والأدب والفقه مع التجارة في هذا الجزء المعروف بالمربد، إذ يستفيد أولئك الشعراء واللغويون من فصاحة الأعراب في لسانهم، والقسم الأكبر كان يحوي البساتين والأنهار، وما يتخلله من قصور عامرة، وبيوت منتشرة. كما كان للبصرة ميناء نهري كبير يبعد عنها بضعة أميال هو ميناء الأُبلَّة على الضفة الغربية من شط العرب، الذي يمثل جزءًا من البصرة الحديثة في الوقت الحاضر.

مدينة الأنهار والنخيل الباسقات

تشير بعض المصادر الموثقة إلى أن عدد الأنهار قد بلغ في مدينة البصرة نحو عشرين ألف نهر، وهذه المصادر تعتمد على ديوان الخراج، إذ كان يُجبى خراج كل نهر بما فيه من بساتين ونخيل، وربما يتصور بعضهم أن هذا أمر مستحيل، فكيف تمّ حفر هذا العدد الهائل من الأنهار. وقد شكك ابن حوقل في هذا الرقم كثيرًا وهو من جغرافيي العصر العباسي المعروفين، ولكنه عندما زار المنطقة أقرَّ بصحة تلك الأرقام.

كان الكثير من البيوت والقصور تبنى على حافات الأنهار في بعض المناطق، كما بنيت البنايات في مدينة البندقية على حواف القنوات البحرية فيما بعد، بينما كانت تترك طرق للمارة والعربات والحيوانات (شوارع) بين الأنهار والبيوت في مناطق أخرى، كما بنيت أمستردام فيما بعد، علمًا أن قنوات مدينة البندقية أو أنهار أمستردام هي شيء قليل

مساكن المسلمين كانت في بداية تأسيس البصرة مبنية من القصب مع مسجدها ودار الإمارة. لهذا كان المسلمون إذا أرادوا الخروج للفتوحات فإنهم يقومون بنزع ذلك القصب ويحزمونه ويصفونه حتى يرجعوا من الفتح



بيوت لها جمالها المعماري وبعدها الوظيفي

بالنسبة إلى أنهار البصرة وتعدادها، كما أن تلك الأنهار كانت مزينة بأشجار النخيل والبساتين التي كانت تتخللها عكس قنوات البندقية الخالية من كل زرع وكذلك أنهار أمستردام القليلة الأشجار.

ولعلّ أفضل صورة لمدينة البصرة القديمة هي الماثلة في بعض بيوتها الحديثة التى شيدت في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين على غرار ما كان موجودًا في البصرة القديمة لبعض الموسرين من أبنائها، وما زال بعض بقاياها قائمًا حتى الآن، وهي في غاية الجمال والذوق الفني الجميل.

تصميم البيوت البصرية

كان المهندسون والمعماريون في السابق يأخذون في الحسبان حالة الجو والحياة الاجتماعية والمواد الأولية المتوافرة مع الوضعية الجمالية في تصميمهم أكثر من مهندسي الوقت الحاضر. فبدراسة تلك البقايا نلاحظ أنّ الجدران الخارجية لتلك القصور كانت بسمك ١٢٠ سم بنيت باللِّبن - الآجر غير المحروق - والمتكون من الطين المخلوط مع الرمل، وهو التربة السائدة هناك، ومن ميزات مثل هذه الخلطة أنها متينة بما فيه الكفاية، كما أنها لا تتشقق كما يحصل للطين الاعتيادي حتى بعد

خلطه بالتبن، والمونة المستعملة هي من ذلك الطين نفسه لرخصها وسهولة الحصول عليها، كما أنها سهلة الاستعمال في البناء، حيث يبنى الساف الخارجي من الآجر المفخور بسُمْك ١٨ سم تقريبًا؛ وذلك حتى يتحمل الرطوبة والأمطار ولا يتآكل بسرعة، ويعطي منظرًا جميلاً للبناء يوحي أنه مبني جميعه بالآجر. أما المونة المستعملة مع ذلك الآجر فهي الجير المطفي - النورة - لتقاوم العوامل الطبيعية، والتي تخلط بعض الأحيان بالرماد لتتكون من تفاعلهما مادة أسمنتية تعمر طويلاً. وفي الداخل فإنّ الجدران الداخلية التي هي أصلاً من - اللِّبن - فإنّها تطلى بطبقة - من البياض - سميكة نسبيًا تزيد على ٣٠ ملم، يستخدم فيها الجير المطفي ويظهر عليها الكثير من النقوش والزخارف وصور الحيوانات والنباتات والكتابة، ويبدو أن هناك قوالب خاصة لهذه النقوش والزخرفة، كما تطلى بطبقات من الأصباغ والدهان تجعل منها لوحات فنية رائعة الجمال.

إنّ سُمْك جدران الحيطان الداخلية والقواطع بين الغرف هو أقل قليلاً من سُمْك الجدران الخارجية، إذ يكون بحدود المتر، وسبب ذلك السُمْك حتى يتحمل الأثقال التي تشكلها الأقواس والسقوف الثقيلة التي يحملها، والتي تغطى بطبقة من الطين المخلوط بالرمل - التربة الطبيعية - وبمعدل سُمْك يزيد على ٣٠ سم كي يعطي الانحدار الكافي لجريان مياه الأمطار التي تتساقط وقت الشتاء، وفي بعض الأحيان تكون أرضية تلك السطوح مكسوة بالآجر المربع الكبير الحجم نسبيًا.

أما السقوف فكان المعماريون يستخدمون الأقواس الأنيقة التي تتحمل الأوزان الثقيلة وتعيش سنين طويلة إذا أحسنت صيانتها، كما أن الأروقة كانت تتكون من ممرات تسقفها الأقواس، وتوجد في أعلاها فتحات صغيرة للإنارة في بعض الأحيان وكانت باحة البيت - الحوش - تقع في منتصف البيت، وتكون بعض الغرف المطلة على تلك الباحة مرتفعة عنها بنحو متر أو أكثر وواجهتها المطلة على الباحة تتكون من شبابيك خشبية ذات نقوش جميلة وزجاج ملون بنقوش هندسية رائعة.

وتتوسط الحوش بركة ماء كانت تستخدم لخزن الماء الذي يجلب من النهر حيث تضيف منظرًا جميلاً إلى تلك الباحة، وعادة تكون هناك حديقة صغيرة فيها بعض أشجار النخيل والأشجار الأخرى التي يسهل نموها هناك. كما تحيط بالحوش منطقة مسقوفة ترتكز من ناحية على الجدران الداخلية للغرف، ومن الناحية الثانية على أعمدة من الخشب يتكون أعلاها من تاج مزخرف بزخرفة جميلة. إنّ فائدة هذه السقوف هي لحماية جدران الغرفة من أشعة الشمس المباشرة فتكون كالمظلات، كما أنها مكان مناسب للجلوس تحتها في ساحة الحوش لما تكوّنه من ظل وعلى الأخص أوقات العصر عندما يعتدل الجو.

كذلك توجد هناك أقبية تحت الأرض - سراديب - في بعض أجزاء البيت وعلى الأخص تحت الغرف التي تعلو عن سطع الحوش، فإنّ ذلك الارتفاع يعطي ارتفاعًا إضافيًا لتلك الأقبية، وتكون سقوف تلك الأقبية مبنية على شكل أقواس لتعطيها القوة والمتانة لتتحمل ما فوقها، كما أنها تكون عازلة حراريًا لسماكتها. إنّ تلك الأقبية ملاذ جيد لسكان البيت وسط النهار للوقاية من حرارة الجو، كما يمكن أن تستخدم في أثناء الشتاء؛ لأنها تكون دافئة: وذلك لأنها تحت مستوى سطح الأرض ولا تتعرض إلى

سكن البصرة بعد تمصيرها الكثير من الصحابة الكرام رضيّ الله عنهم وحفظة القرآن الكريم ما مهّد لهذه المدينة أن تتبوأ مكانة رفيعة بين البلدان الإسلامية



البصرة .. مدينة الأنهار

أشعة الشمس المباشرة الحارقة، ولعدم شدة البرودة وقصر الشتاء فإن الاستعمال الشتوي يكون نادرًا.

استمد نظام التهوية في هذه البيوت نظامًا هندسيًا رائعًا وذلك من نظام التهوية في المدن العراقية القديمة الذي تمّ تطويره خلال آلاف السنين، إذ توجد مجارٍ هوائية مبنية تشبه المداخن في المدن الغربية، وتمتد من الأقبية إلى الغرف إذ توجد فتحات في الأقبية والغرف تسمح بدخول الهواء منها أو خروجه، وتمتد تلك المجاري إلى أعلى البيت حيث تسمح بمرور تيار هوائي بارد نسبيًا يأتي من الأقبية ليخرج في النهاية من أعلى البيت. إنّ مثل هذا التيار يمنع الهواء من التعفن، ويقلل من الرطوبة داخل البيت، ويسهل عملية تبديل الهواء بسرعة معقولة لا تؤثر كثيرًا في تسخين الجو الداخلي في أثناء الصيف أو جلب البرودة في أثناء الشتاء.

الحياة الثقافية والوضع العمراني

أثّر الشعر والأدب واللغة في تصميم مدينة البصرة العمراني، فقد خصصت مساحة كبيرة من المدينة دعيت بالمربد لخدمة هذا الغرض، فكانت هناك ساحات تنصب فيها السرادقات - المخيمات الكبيرة - يتبارى فيها رجال


قباب تعكس روعة العمارة




نظام عمراني مميز وطبيعة خلابة

الشعر، كما كان رجال اللغة يجلسون هناك بانتظار الأعراب ليأخذوا عنهم فصيح اللغة، ولهذا الغرض أيضًا بنى بعض الموسرين قصورًا لهم في المربد لتكون مجمع الشعراء والأدباء واللغويين والأعراب، إنّ هذا الأمر قد أثّر في هندسة بناء البصرة كثيرًا لتستوعب كل تلك المتناقضات في مكان واحد، تستوعب الأعراب وجمالهم وأحمالهم، والأدباء ومجالسهم، والسرادقات التي كانوا يقيمونها والأثرياء المحبين للشعر والأدب وقصورهم، وكان سوق المربد قد جمع كل تلك المتناقضات، وهو منطقة رئيسة من مناطق البصرة، لذا فإنّ النظام العمراني لهذه المنطقة كان مختلفًا عن باقي مناطق المدينة الأخرى.

صحابة وعلماء عاشوا فيها

على الرغم من أنّ أكثر الصحابة الذين سكنوا البصرة لم يكونوا من كبار الصحابة المشهورين، إلا أن ذلك لا يقلل من شرفهم وتأثيرهم الإيجابي في المدينة،

ولعلّ أشهرهم: أبو برزة الأسلمي، وأمية بن مخشي الخزاعي الازدي، والحارث بن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان له نهر في البصرة يدعى باسمه نهر الحارثي، والبراء بن مالك، وأنس بن مالك، وهناك ساحة في البصرة الحديثة تحمل اسم ساحة أنس بن مالك تقع في مركز مدينة البصرة، وكان قبره ما زال قائمًا على أطراف البصرة القديمة على شكل خربة، وذلك قبل عدة عقود من الزمن، والحكم بن عمر بن مجذوم، والشاعر الفارس العباس بن مرداس الذي خصّ الرسول عليه الصلاة والسلام ببعض قصائده، والزبرقان بن بدر من رجالات تميم وشعرائها، والأقرع ابن حابس، والنمر بن تولب بن أقيش من قيس بن عبد مناة، وسكن في البصرة الأسود بن سريع التميمي، والتلب بن زيد التميمي الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الأحاديث، والخشخاش بن الحارث العنبري، وأحمر بن جزء السدوسي، والعداء ابن خالد من بني عامر بن صعصعة، وأعشى بن مازن التميمي، وأبو رفاعة العدوي، وأبو سلمة، وبشر بن عمرو المعلى الملقب بالجارود، وبريدة بن الخصيب الأسلمي وغيرهم الكثير ...

أما أشهر من وُلد وسكن في البصرة من الأعلام والأدباء والكتّاب والفلاسفة فهم: الأديب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ سنة ١٧١هـ/٧٨٧م، وظهر فيها إخوان الصفا، وولد فيها عالم البصريات العربي الحسن بن الهيثم سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م، والصوفي أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي، والصوفي أبو سعيد بن الأعرابي، وأبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري البصري، كذلك ولد في مدينة البصرة الإمام أحمد الرفاعي سنة ٥٢١هـ/١١١٨م، وشهيدة الحب الإلهي السيدة رابعة العدوية سنة ٩٥هـ/٧١٣م، ودفنت فيها سنة ١٨٥هـ/٨٠١م.

أثّر الشعر والأدب واللغة في تصميم مدينة البصرة العمراني. فقد خصصت مساحة كبيرة من المدينة دعيت بالمربد لخدمة هذا الغرض

في الشعر والنثر

دوّن الشعراء والكتّاب الكثير من الأقوال عن البصرة، وقيلت في حقها الأمثال الدارجة التي شاعت على كل لسان. فمن الشعر نقف عند الشاعر ابن أبي عيينة المهلبي الذي يمدحها قائلاً:

يا جنّة فاقت الجنانَ، فما
يعدلها قيمةٌ ولا ثمنُ
ألفيتها فاتخذتها وطنًا،
إنّ فؤادي لمثلها وطنُ
زُوّجَ حيتانها الضَبابَ بها
فهذهِ كنّةٌ وذا ختَنُ
فانظر وفكّر لما نطقتُ بهِ
إنّ الأديب المفكر الفطنُ
من سُفُن كالأنعام مقبلةٍ
ومن نعام كأنها سفنُ

وقال المهلبي وهو يتشوق إليها عندما فارقها إلى جرجان:

فإن أشكُ من ليلي بجرجان طوله
فقد كنت أشكو منه بالبصرة القصر
فيا نفسُ قد بدّلتِ بؤسًا بنعمةٍ
ويا عين قد بدلت من قرّة عبَر
ويا حبذاك السائلي فيم فكرتي
وهمّي، ألا في البصرة الهمُّ والفكر
فيا حبذا ظهرُ الحزيز وبطنه،
ويا حسن واديه، إذا ماؤه زَخر

ويا حبذا نهر الأبلة منظرًا،

إذا مدّ في إبّانه الماءُ أو جزر

ويا حسن تلك الجاريات إذا غدت

مع الماء تجري مصعدات وتنحدر

فيا ندمي إذ ليس تغني ندامتي !

ويا حذري إذ ليس ينفعني الحذر

وقائلة: ماذا نبا بك عنهمُ؟

فقلت: لها لا علم لي، فاسألي القدر

كما أنّ لكل مدينة من خصائص تميزها من نظيراتها من المدن المهمة، فإنّ البصرة المدينة الخالدة قد انفردت عن شقيقاتها بعدة خصائص، من ذلك القول الخالد بخلود عمر قبس البصرة الذي قاله الخليفة العباسي هارون الرشيد في بيان حقها ومنزلة نخلها بقوله: « نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة».

ووصف خالد بن صفوان ومدح مدينة البصرة حينما وفد على الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، فوافق عنده وفود جميع الأمصار، فطلب من ابنه مسلمة بن عبدالملك أن يريهم بعض عجائب الشام وجناتها وقصورها، فقال لهم مسلمة وهو معجب بها، فأقبل على وفد مكة وقال لهم: « يا أهل مكة هل عندكم مثل هذا؟ فقالوا: لا ولكن عندنا بيت الله المستقبل ! ثم التفت إلى أهل المدينة وسألهم السؤال نفسه ، فقالوا: لا إلا أنّ فينا قبر نبي الله المرسل! ثم سأل أهل الكوفة فقالوا: لا إلا أنّ فينا تلاوة كتاب الله المرسل! ثم التفت إلى وفد البصرة فقال له خالد بن صفوان: نعم أيها الأمير! أصف لك بلادنا! يغدو قانصنا فيجيء بالشبّوط والشيّم - أنواع من السمك الجيد - ويجيء هذا بالظبي والظليّم، ونحن أكثر الناس عاجًا وساجًا وخزًا - حرير - وديباجًا وبرذونًا - نوع من أنواع الخيول - هملاجًا وخريدة مغناجًا، بيوتنا الذهب ونهرنا العجب، أوله الرطب وأوسطه العنب وآخره القصب، فأما الرطب عندنا فمن النخل في مباركه كالزيتون عندكم في منابته، هذا على أفنانه كذلك على أغصانه ...

وأشار النويري في كتابه «نهاية الأرب» عنها قائلاً: «إنّ للغربان ضربًا من العجب، ذلك أنّها تقع إليها بالخريف حتى تكون الأرض بها سوداء، وتقع على كل نخلة أصرم نخلها ولا تقع على ما لم تصرم». ثم يقول في البصرة: « بأنّ التمر يكون مصبوبًا في بيادره فلا يقع شيء من الذباب لا في الليل ولا في النهار، وإنّ أهل البصرة يتخذون المظلات على التمر والنواة خوفًا عليها من الخفاش. ومن عادة الذباب الفرار من الشمس إلى الظل، فلا يوجد في تلك الظلال شيء منه ألبتة، فيتوهم المتوهم أنّ هاتين الحالتين من طلسم، وله من الخاصية ما يمنع الغربان والذباب، وليس كذلك، إنّما هو حماية الله ووقايته».

أمثال شعبية

وردت أمثال عربية وشعبية عن البصرة خلال تاريخها العريق منها قولهم: «يا حبذا الإمارة، ولو على الحجارة»، وقد حوِّر هذا المثل ليصبح أحد الأمثال الشعبية فأصبح: الإمارة ولو على الحجارة، وذلك أنه لما شُرع في إعادة بناء المسجد في البصرة بالآجر والجص بدل اللِّبن، احتاج الأمر إلى عدد كبير من العمال، وكميات كبيرة من المواد ولتنظيم العمل، تمّ تقسيم

ازدهرت الصناعات في مدينة البصرة، وعُرفت بعدد منها أيام الأمويين نحو صناعة الزجاج والخزف، ومن أهمها البورسلين، وتفنن الصُنّاع البصريون وقتذاك بصناعة الأطباق ذات الألوان الجميلة، والزجاج البديع الذي اشتهرت به



منظر عام للمدينة

العمال إلى مجموعات، وعلى على كل مجموعة وضعوا عليها رئيس عمل، فأصبح كل رئيس يتصرف وكأنه أمير، فقيل فيهم هذا المثل.

وهناك مثل آخر هو «قابل احترقت البصرة»، وذلك لأنّ احتراق مدينة مهمة كالبصرة أمر جلل، وحادث مريع، وقد تم حرق المدينة أو أجزاء كبيرة منها عدة مرات في التاريخ، فقد تمّ حرقها في أثناء دخول الخوارج إليها، وكذلك عند احتلال الزنج لها. ويضرب المثل لنصح المتعجل بالتريث، فكأن تقول: يعني قابل احترقت البصرة، أي إن الأمر ليس بالمهم، ولا يحتاج إلى العجلة، كما يضرب للذي يريد أن يهوّن أمرًا عدّه الآخرون عملاً كبيرًا، كالذي يقوم بعمل يستنكره الآخرون فيقول: على مهلكم ! قابل احترقت البصرة.

أما «بعد خراب البصرة» فهو مثل مشهور يضرب للذي يقوم بعمل، ولكن بعد فوات الأوان، وأصل المثل ربما يعود إلى زمان الدولة العباسية عندما حصلت ثورة الزنج، توجه أخو الخليفة للقضاء عليها، وقبل أن يتم عمله حدثت عليه ثورة في إيران، فترك حرب الزنج وتوجه إلى

إنّ للجانب العمراني للبصرة خصوصية لا تشاركها فيها أي مدينة في العالم في ذلك الوقت، ومن المؤكد أن مهندسي مدينتي البندقية في إيطاليا، وأمستردام في هولندا، قد استفادوا كثيرًا من تصميم البصرة القديمة



جمال تحفه النخيل

إيران، وقد استفحل قائد الزنج ذلك، فقويت شكيمته وزاد عدد جنده، وتمكن من مهاجمة البصرة، واقتحامها، وحدثت مجزرة وحشية قتل فيها من أهل البصرة ما يقرب من مليون شخص، وسبيت النساء، وأحرقت معظم أجزاء المدينة. ثم عاد أخو الخليفة بعد أن تمكن من القضاء على الثورة في إيران، وعاد لمقاتلة صاحب الزنج، وكانت المعركة أشد شراسة من الأولى، لكنه استطاع بفضل حكمته وصبره وشجاعته من تفتيت جيش خصمه شيئًا فشيئًا إلى أن تمكن من القضاء عليه وقتله، ولكن الجمهور في بغداد لم يعجبهم هذا النصر الذي جاء متأخرًا، وأصبح يقول بعضهم لبعض: إنّه نصر بعد خراب البصرة ! أي يضرب المثل للشخص الذي ينجز عملاً بعد فوات الأوان.

بينما نجد المثل الآخر القائل «البصرة حريق وبغداد غريق» من الأمثال الشعبية المتداولة بين الناس أيضًا، ويبدو أنّه قيل أيام الحكم العثماني لكثرة ما كانت تتعرض له مدينة البصرة من الحرائق بسبب البيوت المبنية من القصب والمنتشرة في أحيائها الفقيرة، أما بغداد فكانت تتعرض إلى الغرق بسبب عدم السيطرة على مياه دجلة وإهمال الدولة للسدود، والسيطرة على الماء، ويضرب هذا المثل للخيار بين أمرين أحلاهما مرّ؟

لقد ازدهرت الصناعات في مدينة البصرة، وعُرفت بعدد منها أيام الأمويين نحو صناعة الزجاج والخزف،

ومن أهمها البورسلين، وتفنن الصُنّاع البصريون وقتذاك بصناعة الأطباق ذات الألوان الجميلة، والزجاج البديع الذي اشتهرت به، وذاع في الأمصار الإسلامية الأخرى، وانتقلت صناعة الزجاج صوب عاصمة الخلافة العربية الإسلامية سُرّ من رأى - سامراء اليوم - شمال بغداد حيث استدعى بانيها الخليفة العباسي المعتصم بالله بن هارون الرشيد صُنّاع الزجاج والخزف من البصرة للعمل في عاصمته الجديدة بعد انتقال مقر الخلافة من بغداد - دار السلام - إليها.

إلى الملتقى ...

نستمر في السياحة التاريخية والتراثية في ربوع البصرة الفيحاء فزرنا مدنها العامرة الزبير، و(أبو الخصيب) مدينة الشاعر بدر شاكر السياب، ومركز غابات النخيل التي تقع على شط العرب على بعد ٢٦ كيلو مترًا إلى الجنوب من البصرة، ومدينة سفوان التي تقع على الحدود العراقية - الكويتية، ومدينة القرنة ملتقى دجلة والفرات، وشجرة آدم، وزرنا أبرز معالمها التاريخية والسياحية، فعرجنا على بقايا مدينة البصرة القديمة، والمسجد الجامع الذي يُعرف بجامع الخليفة علي الذي أنشئ في السنة الرابعة عشرة للهجرة، ومراقد الصحابة الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، والحسن البصري، وابن سيرين، وابن الجوزي، رضي الله عنهم.

بعدها تجولنا في عدد من المناطق السياحية في البصرة حيث زرنا جزيرة السندباد الواقعة وسط شط العرب وترتبط بضفتي الشط بجسر السندباد، وتعرفنا إلى بهو الإدارة المحلية - البهو السياحي - الذي يقع في شارع دينار الموصل بين العشار والمعقل.

ودلفنا في مسيرتنا إلى رحاب البصرة لنطالع عن قرب مياه شط العرب التي يتراقص شطها كالأقمار في نهر، وهممنا في ختام رحلتنا وداعها، ونحن في منطقة العشار قرب الكورنيش وكلنا شوق إلى لقائها من جديد، ولكن طرق سمعنا صدى صوت ابن البصرة الشاعر بدر شاكر السياب الذي انساب إلينا مع خرير الماء ليروي أنشودة المطر الخالدة:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شُرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تُبسمان تُورق الكروم
وترقص الأنهار كالأقمار في نهر ...

المراجع

١. العراق دليل سياحي، المؤسسة العامة للسياحة، الطبعة الأولى بغداد، العراق، ١٩٨٢م.

٢. شاكر مصطفى، المدن في الإسلام حتى العصر العثماني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، دمشق، سورية، ١٩٩٧م.

٣. شريف يوسف، المدخل لتاريخ فن العمارة العربية الإسلامية، الموسوعة الصغيرة «٦٧»، دار الجاحظ للنشر، بغداد، العراق، مايو - يونيو - ١٩٨٠م.

٤. طاهر مظفر العميد، تخطيط المدن العربية الإسلامية، جامعة بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، العراق، ١٩٨٦م.

٥. دور الخلافة ومراكزها، المدينة والحياة المدنية، دار الحرية للطباعة، بغداد، العراق، ١٩٨٨م.

٦. عبدالحكيم العفيفي، موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية، مكتبة الدار العربية للكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، ٢٠٠٠م.

٧. محمد عبدالستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، «١٢٨»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس /آب ١٩٨٨م.

٨. يحيى شامي، موسوعة المدن العربية والإسلامية، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م.

الاقتصاد الرقمي وآفـ



...آفاق المستقبل

سعد علي الحاج بكري

الرياض ـ السعودية

"الإلكتروني"، و"الرقمي"، و"المعلوماتي"، و"المعرفي"، مفردات باتت متداولة في وصف المجتمع الحديث، وتوجهاته المستقبلية، ولعل من أبرز الأمثلة في هذا المجال تعبير "الاقتصاد الرقمي". ولاشك أن هذا التعبير يتمتع بأهمية خاصة. "فالاقتصاد" يهتم بحساب العوائد، ويرى أنها يجب أن تفوق النفقات، كما يُعطي تقويماً مادياً مفيداً لأداء المجتمع. و"الرقمي" وصف يشير إلى الاعتماد على تقنيات المعلومات ومعطياتها. ووصف الاقتصاد بالرقمي يُوحي بأن تقنيات المعلومات تستطيع تقديم اقتصاد جديد يحقق نتائج أفضل من الاقتصاد التقليدي غير الرقمي.

غاية هذا المقال هي طرح مسألة التوجه نحو الاقتصاد الرقمي. وفي سبيل ذلك، يقوم المقال بمحاولة التعريف بمفهوم الاقتصاد الرقمي، منطلقاً من معطيات تقنيات المعلومات، ثم من مستويات هذا الاقتصاد المتكاملة التي تبدأ بالإنسان، وتصعد بالتدريج إلى مستوى المؤسسة، ثم مستوى الدولة والمجتمع المحلي، وصولاً إلى المستوى الدولي. ويهتم المقال أيضاً بمسألة التحول باتجاه الاقتصاد الرقمي، ويطرح في هذا المجال إطاراً أولياً عاماً لهذا التحول يمكن أن يشكل دليلاً للتوجه نحو هذا التحول. ويقترح المقال إنشاء مركز لدراسات الاقتصاد الرقمي، في كل دولة تطمح إلى هذا التحول، كي يكون مرجعاً يُقدم الرأي والمشورة والخبرة اللازمة.

تقنيات المعلومات والاقتصاد الرقمي

ينطلق الاقتصاد الرقمي من معطيات تقنيات المعلومات. ويشمل ذلك المعطيات المرتبطة باستخدام هذه التقنيات، إضافة إلى المعطيات المتعلقة بإنتاجها. ولاشك أن هذه المعطيات لا تأتي دون نفقات. فالحصول على تقنيات المعلومات وإدارتها وتوفيرها للمستخدمين يتطلب نفقات غير قليلة، كما أن بناء الصناعات التي تُنتج تقنيات المعلومات يحتاج أيضاً إلى رأسمال لا يُستهان به. لكن معطيات تقنيات المعلومات، والعوائد المتوقعة منها سواء في إطار الاستخدام أو في مجال الإنتاج تفوق النفقات المطلوبة، خصوصاً عندما يكون الاستخدام فعّالاً في الاستفادة من المعطيات، وعندما يكون الإنتاج ناجحاً في تقديم المنتجات المتميزة التي تلقى ترحيب الأسواق. وعلى ذلك يجب النظر إلى نفقات استخدام تقنيات المعلومات وكذلك نفقات إنتاجها، على أنها رأسمال «استثماري»، لا على أنها أموال ضائعة.

وفي سبيل توضيح ما سبق، لابد من إلقاء الضوء على معطيات تقنيات المعلومات في كل من إطار الاستخدام ومجال الإنتاج. ولعلنا نبدأ بالاستخدام.

معطيات استخدام تقنيات المعلومات

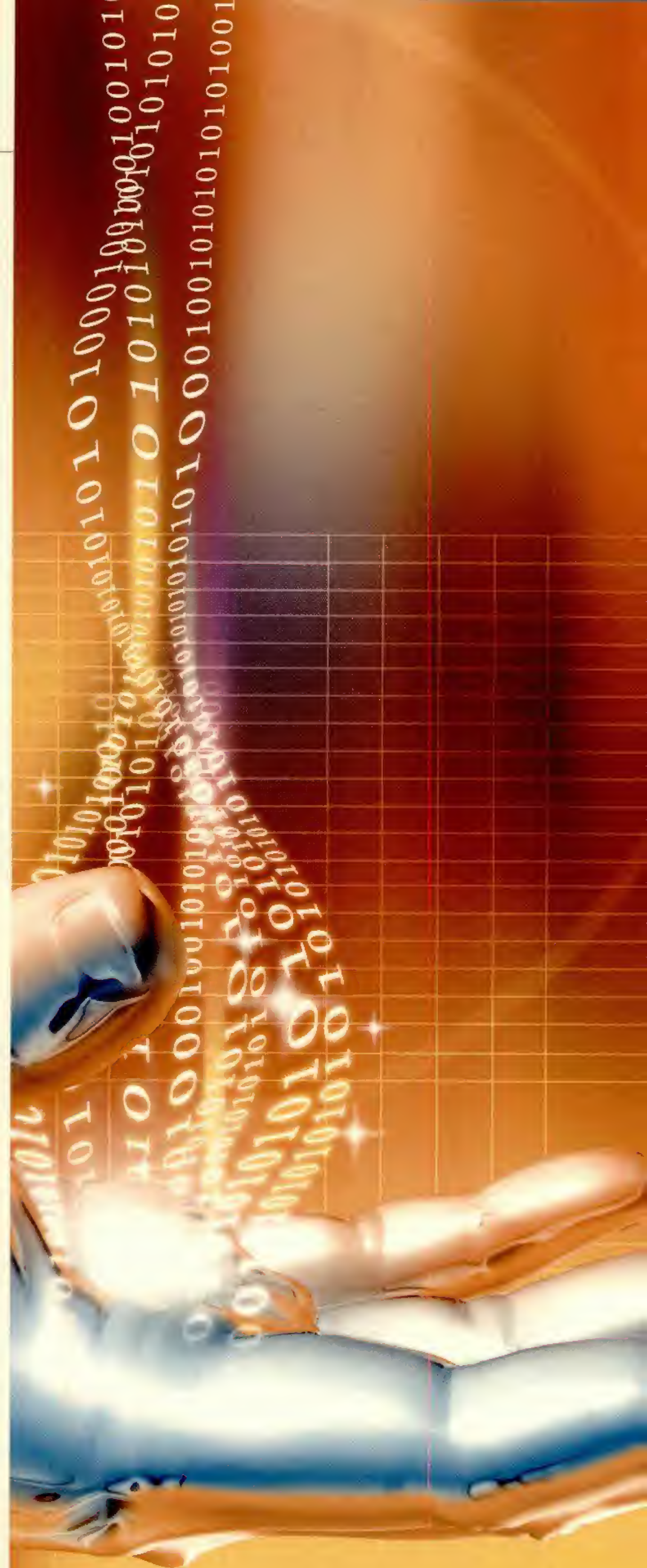
تسعى المؤسسات، في شتى المجالات، إلى تقديم

منتجاتها أو خدماتها، تبعاً لطبيعة المؤسسة، باستخدام أساليب تؤدي إلى تحقيق سرعة إنجاز أكبر، ونفقات أقل، وجودة أفضل، وبإضافات جديدة تجعلها أكثر جاذبية. وبلغة أصحاب المؤسسات يُعبر عن ذلك باللغة الإنجليزية بالمختصر «FCBD» الذي يأخذ الأحرف الأولى من الكلمات: «أسرع، وأرخص، وأفضل، ومختلف». وتدّعي تقنيات المعلومات أنها تستطيع تحقيق ذلك لمستخدميها، بل ربما أكثر من ذلك، إذا ما استخدمت الاستخدام الصحيح.

من حيث «السرعة»، لا جدال أن تقنيات المعلومات تستطيع أداء الأعمال التي تتضمن التعامل مع المعلومات بسرعة كبيرة. وفي موضوع «خفض النفقات»، يمكن باستخدام تقنيات المعلومات الحد من التنقل والسفر، وتقليل الحاجة إلى الأوراق، وتقليص حجم المكاتب، وربما عدم الحاجة إلى وضعها في المراكز المزدحمة؛ إضافة إلى الحد من التدخل المباشر للإنسان بشكل متكرر في الإجراءات المختلفة، مما يؤدي إلى الحد من نفقات هذا التدخل، وتقليص تكاليف الأخطاء البشرية.

وفي مسألة «الجودة» يُعطي استخدام تقنيات المعلومات أبعاداً جديدة مهمة. من ذلك على سبيل المثال، سهولة الحصول على المعلومات في الوقت المناسب، حيث يُعزز ذلك ليس فقط سرعة اتخاذ القرارات، بل زيادة

إذا كان استخدام تقنيات المعلومات يُقلص الحاجة إلى الإنسان في مهن مختلفة، فإنه من ناحية ثانية، يفسح المجال أمام بروز وظائف جديدة في مجال استخدام تقنيات المعلومات وإنتاجها



بناء الصناعات التي تُنتج تقنيات المعلومات يحتاج إلى رأسمال لا يُستهان به. لكن معطيات تقنيات المعلومات، والعوائد المتوقعة منها سواء في إطار الاستخدام أو في مجال الإنتاج تفوق النفقات

وثوقيتها أيضاً. فإذا كان الموضوع، على سبيل المثال، يتعلق بالخدمات الصحية لحالة إسعاف مصاب، فإن الحصول على السجل الطبي للمصاب عبر شبكات المعلومات من مكان تخزينه، يسمح بإعطائه العلاج المناسب لوضعه الصحي، ويُسهل إنقاذه. وينطبق ذلك أيضاً على كثير من المجالات المختلفة. ومن ناحية أخرى فإن أثر تقنيات المعلومات في الحد من التنقل والسفر الذي أشرنا إليه سابقاً يؤدي إلى تقليل التلوث وتحسين جودة البيئة.

ويُضاف إلى ما سبق، في إطار تطوير الجودة، أن تقنيات المعلومات تدعم شفافية التعامل في المجتمع، إذ تسمح لمقدمي المنتجات أو الخدمات بالحصول على آراء متلقي منتجاتهم وخدماتهم بسهولة ويسر، مما يساعدهم على العمل على تطوير هذه المنتجات والخدمات بالشكل المناسب. وينطبق ذلك أيضاً على الآراء في القضايا والخدمات العامة، في إطار ما بات يُدعى بالديمقراطية الرقمية التي يمكن أن تقدم لأصحاب القرار مؤشرات حول الرأي العام، تساعدهم على اتخاذ القرارات المناسبة.

تقنيات المعلومات لا تتكون فقط من أجهزة إلكترونية معقدة تُعطي أساس هذه التقنيات، بل تشمل برامج وأنظمة معلومات حاسوبية، تعتمد في إنتاجها على خامة أساسية واحدة هي العقل البشري

ومن «الإضافات الجذابة»، التي يمكن لتقنيات المعلومات أن تقدمها، إمكانية الحصول على الخدمات في كل الأوقات. فمثلاً يمكن في الوقت الحاضر سحب الأموال من المصارف عبر آلات الصرف الآلي في كل الأوقات، وليس فقط خلال ساعات الدوام الرسمي، في أيام العمل الأسبوعي. كما يمكن أيضًا الشراء بالطريقة نفسها، من الأسواق عبر الإنترنت. وتنطبق إمكانية ذلك على كثير من الخدمات الحكومية والتجارية الأخرى.

وفي إطار الإضافات الجذابة المهمة أيضاً، إمكانية أداء الكثير من الأعمال في المنزل، وعدم الحاجة إلى العمل في المكاتب البعيدة، التي كثيراً ما تقع في المراكز المزدحمة. ويسهل ذلك عمل المرأة المسلمة، ويسمح بالاستفادة من مؤهلاتها وقدراتها. ويساعد ذلك أيضاً انطلاق مؤسسات الأعمال الصغيرة برؤوس أموال محدودة. وتُفيد مثل هذه المؤسسات في توليد وظائف جديدة لأبناء المجتمع، فضلاً عن تعزيزها للدخل القومي.

وقد يبدو أن الاعتماد على استخدام تقنيات المعلومات يُهدد «أمن» المعلومات والأعمال المرتبطة بها خصوصاً مع تداول الأخبار بين الحين والآخر حول أثر هذا «الفيروس الحاسوبي» أو ذاك. لكن الحقيقة أن استخدام تقنيات المعلومات يمكن أن يُعطي أمناً أفضل للأعمال، يفوق الأمن في غياب هذا الاستخدام.

فللتحديات التي يواجهها استخدام تقنيات المعلومات احتياطات وحلول كثيرة، حالت في الماضي دون استفحال أي حالة من حالات التحدي الكبرى التي



الاعتماد على استخدام تقنيات المعلومات قد يهدد أمن المعلومات والأعمال المرتبطة بها

ظهرت سابقاً. ويُضاف إلى ذلك أن تقنيات المعلومات تُعطي وسائل مختلفة يمكنها التحقق من هوية المتعاملين مع المعلومات، ومن سلامة المعلومات المنقولة من مكان إلى آخر، ومن حماية خصوصية المعلومات أو سريتها. وتسمح تقنيات المعلومات أيضاً بتخزين المعلومات وحفظها، بسهولة وبتكاليف محدودة، في أماكن مختلفة تحميها من أخطار الكوارث.

وعلى أساس ما سبق نجد أن استخدام تقنيات المعلومات يمكن أن يُساهم في تقديم المنتجات والخدمات ليس فقط بشكل «أسرع، وأرخص، وأفضل، ومختلف»، بل بشكل «أكثر أمناً» أيضاً. وبذلك يضاف إلى المختصر المعروف «FCBD» حرفُ الأمن «S» ليصبح «FCBDS» (١).

معطيات إنتاج تقنيات المعلومات

بعد ما سبق حول معطيات تقنيات المعلومات في إطار استخدامها، ننتقل إلى معطيات هذه التقنيات في مجال إنتاجها. فانتشار منتجات هذه التقنيات يشهد امتداداً «أفقياً» مع تزايد الحاجة إلى استخدامها. ويشمل هذا الامتداد جميع المجالات

التي تتطلب التعامل مع المعلومات. وتشهد منتجات تقنيات المعلومات هذه أيضاً تطوراً «رأسياً»، يسعى إلى تطوير إمكانات هذه التقنيات، بما يشمل زيادة سعة «تخزينها» للمعلومات، وتحسين «ذكائها» في معالجتها، ودعم قدراتها على «نقلها» بكفاءة وفاعلية، مهما تباعدت المسافات.

ويُلاحظ أن تزايد منتجات تقنيات المعلومات يفوق التزايد السكاني، وتزايد الدخل القومي، مما يدل على زيادة الاعتماد عليها. وتقول الإحصائيات: إن الدول المختلفة تصرف مبالغ كبيرة على تقنيات المعلومات تصل إلى نحو ٨ ٪ من الدخل القومي. ويدل ذلك على قوة سوق تقنيات المعلومات. وعلى ذلك فإن إنتاج تقنيات المعلومات في دولة من الدول يُساعدها على خفض استيراد تقنيات المعلومات من جهة، وفتح آفاق تصدير بعض ما تنتجه من ناحية أخرى، فضلاً عن إيجاد وظائف جديدة في مؤسسات إنتاج هذه التقنيات (٢).

وتجدر الإشارة إلى أن تقنيات المعلومات لا تتكون فقط من أجهزة إلكترونية معقدة تُعطي أساس هذه التقنيات، بل تشمل أيضاً برامج وأنظمة معلومات حاسوبية، تعتمد في إنتاجها على خامة أساسية

قد يبدو أن الاعتماد على استخدام تقنيات المعلومات يُهدد "أمن" المعلومات والأعمال المرتبطة بها خصوصاً مع تداول الأخبار بين الحين والآخر. لكن الحقيقة أن استخدام تقنيات المعلومات يمكن أن يُعطي أمناً أفضل للأعمال، يفوق الأمن في غياب هذا الاستخدام



مصدر تطوير الاقتصاد هو الإنسان المتخصص

واحدة هي العقل البشري. ويرتبط كثير من هذه البرامج والأنظمة بطبيعة التطبيقات واللغات الإنسانية المستخدمة، وتمثل أقل ما يمكن العمل على إنتاجه محلياً في العالم العربي.

ومن المعطيات الاقتصادية التي يمكن أن تقدمها تقنيات المعلومات لمستخدميها ولمنتجيها، ننتقل إلى محاولة بناء تعريف للاقتصاد الرقمي، ينطلق من هيكليته الهرمية التي تبدأ بالإنسان، وتخطو نحو المؤسسات العامة والخاصة، ثم المجتمع المحلي، وصولاً إلى المستوى الدولي.

الإنسان والاقتصاد الرقمي

يحتل الإنسان ثلاثة مواقع مهمة من مواقع الاقتصاد الرقمي. فهو «مصدر» تطوير هذا الاقتصاد، وهو «هدفه» المنشود، وهو أيضاً «المسؤول» عن اتخاذ القرارات بشأنه، وتوجيه دفة التحسين المستمر، بما يستجيب للمعطيات المتجددة لتقنيات المعلومات، ولظروف المنافسة وتحديات البيئة المهنية. وعلى ذلك فالاقتصاد الرقمي ممكن فقط، إذا وُجد الإنسان القادر على تطويره، وإذا توافر الإنسان الذي يستطيع الاستفادة منه، وقبل ذلك وبعده إذا توافر الإنسان المستعد لاتخاذ القرارات بشأنه، وتحمل مسؤولية إدارته وتوجيهه نحو التطوير المستمر.

«مصدر» تطوير الاقتصاد الرقمي هو الإنسان المتخصص القادر على التخطيط، والتصميم، والتنفيذ، والإدارة الفنية، والاستجابة للمتغيرات التقنية. و«هدف» هذا التطوير هو الجميع، أي الإنسان أينما كان في عمله المهني، أو في منزله، في تحركه أو في سكونه. فالإنسان - إن جاز التعبير - هو تقنية المعلومات الأولى، يُخزن المعلومات في «ذاكرته»، ويعالجها «بعقله»، وينقلها إلى الآخرين مسموعة أو مكتوبة أو مرئية؛ وما تقنيات المعلومات الحديثة إلا وسائط لمساعدته على تطوير أنشطته. و«مسؤول» التطوير والتوجيه هو صاحب القرار الذي يعي أهمية التحول نحو الاقتصاد الرقمي، ويُدرك الظروف المحيطة بهذا التحول بإيجابياتها التي يمكن الاستفادة منها، وسلبياتها التي يمكن العمل على تجاوزها.

وإذا كان استخدام تقنيات المعلومات يُقلص الحاجة إلى الإنسان في مهن مختلفة، ليخفض بذلك عدد الوظائف المتاحة في هذه المهن، فإنه من ناحية ثانية، يفسح المجال أمام بروز وظائف جديدة في مجال كل من استخدام تقنيات المعلومات وإنتاجها، وفي إطار كل من «مصدر» تطوير الاقتصاد الرقمي و«هدفه». وتحقق الهند في الوقت الحاضر نمواً كبيراً في الوظائف المرتبطة بتقنيات المعلومات بفضل وجود المهارات المتميزة من جهة، وانخفاض تكاليفها بالموازنة مع ما يماثلها في دول الغرب من ناحية ثانية، فضلاً عن وجود المناخ التعليمي الملائم، والبيئة المهنية المناسبة للتطور الرقمي والتعاون الخارجي (٣). وتجدر الإشارة إلى أن التحول إلى الاقتصاد الرقمي يتطلب تدرجاً يشمل مراحل متعددة، وأن هذا التحول، كي يكون ناجحاً، يجب أن يشمل تغيرات أساسية تشمل أساليب العمل الإداري، وأنماط التعامل في شتى المجالات. ويحتاج ذلك إلى التوافق بين جميع الأطراف التي تشكل المصدر والهدف والمسؤول. ويضاف إلى ذلك أن التحول نحو الجديد يحتاج إلى روح الإبداع والابتكار من قبل جميع الأطراف، وسوف نتطرق إلى مسألة التخطيط لهذا التحول فيما سيأتي من هذا المقال، بعد استكمال تحديد أبعاد الاقتصاد الرقمي ومستوياته.

وننتقل خطوة أخرى إلى الأمام من مسألة الإنسان والاقتصاد الرقمي، إلى موضوع المؤسسة والاقتصاد الرقمي، تمهيداً لوضع التصور الشامل لهذا الاقتصاد.

المؤسسات لا تستطيع تحقيق ما تصبو إليه من تطوير بواسطة تقنيات المعلومات دون استجابة المتعاملين معها لذلك. أي: أن الموضوع تكاملي الطابع. ويحتاج إلى تطوير متكامل

المؤسسة والاقتصاد الرقمي

يُعبَّر عن عمل أي مؤسسة، بما يُعرف «بسلسلة القيمة» «value chain» أي مجموعة الأنشطة التي تقوم بها المؤسسة، وتؤدي إلى الحصول على «القيمة»، أي على محصلة عمل المؤسسة. وينطبق ذلك على جميع المؤسسات سواء كانت مؤسسات لإنتاج السلع والأجهزة المختلفة، أو كانت مؤسسات خدمات في شتى المجالات، وتدخل مؤسسات الخدمات الحكومية في هذا الإطار.

وتنقسم أنشطة سلسلة القيمة لمؤسسة ما إلى قسمين رئيسين: قسم يتضمن الأنشطة الرئيسة للمؤسسة، وقسم يشمل الأنشطة الداعمة أو المساعدة للأنشطة الرئيسة. وتتبع الأنشطة الرئيسة لمؤسسة طبيعة المؤسسة، فالأنشطة الرئيسة لمؤسسة تعليمية هي أنشطة العملية التعليمية، والأنشطة المساعدة هي أنشطة التسجيل والإدارة والشؤون المالية، وغير ذلك.

وتعدّ تقنيات المعلومات وسائل مساندة ليس فقط للأنشطة الرئيسة، بل للأنشطة المساعدة أيضاً. وتستطيع هذه التقنيات، من خلال معطياتها المذكورة أعلاه، تعزيز أداء المؤسسات، بحيث تصبح «أسرع، وأرخص، وأفضل، وبإضافات جديدة، وأمن أكبر» «FCBDS».

لكن أداء أي مؤسسة من المؤسسات لا يعتمد فقط على كيفية أدائها لأنشطتها الرئيسة والمساعدة في سلسلة القيمة الخاصة بها، بل يعتمد أيضاً على المتعاملين معها من أفراد ومؤسسات أخرى، وعلى أنشطتهم المرتبطة بهذا التعامل. وهنا تتوسع دائرة «سلسلة القيمة» لتصبح «نظام القيمة» «value system» (٤). وعلى ذلك لا بد لتطوير أداء المؤسسة، باستخدام تقنيات المعلومات، من تطوير ليس فقط أنشطتها الرئيسة والمساعدة، بل أنشطة المتعاملين معها أيضاً من أفراد ومؤسسات أخرى.

وبذلك نجد أن المؤسسات لا تستطيع تحقيق ما تصبو إليه من تطوير بواسطة تقنيات المعلومات دون استجابة المتعاملين معها لذلك. أي أن الموضوع تكاملي الطابع، ويحتاج إلى تطوير متكامل، وهذا ما سنتطرق إليه في طرح الخطوة التالية الخاصة بالدولة والاقتصاد الرقمي.

الدولة والاقتصاد الرقمي

لا شك أن الإدارة الحكومية تمثل ليس فقط أكبر مؤسسات الدولة، بل المؤسسة الكبرى الوحيدة التي لا بديل ولا منافس لها، والتي لا بد لجميع المؤسسات والأفراد من التعامل معها. فإذا استطاعت الإدارة الحكومية أن تبني «سلسلة قيمة» خاصة بها باستخدام تقنيات المعلومات، وأنشأت ما أصبح يُعرف «بالحكومة الإلكترونية» «e-government»، فإنها تكون بذلك قد بدأت الخطوة الكبرى نحو الاقتصاد الرقمي. ولابد للمؤسسات الخاصة والأفراد في إطار الدولة، ربما بشكل تدريجي، من تعلم كيفية التعامل مع الحكومة الإلكترونية لينشأ «نظام قيمة» جديد للحكومة يتمتع بالصفة «الرقمية» وبالأداء الرقمي المتميز.

وعندما تستطيع المؤسسات الخاصة، ويستطيع الأفراد التعامل مع الحكومة الإلكترونية، فإنهم يستطيعون من ناحية أخرى بناء «تجارة إلكترونية» «e-commerce»، وخدمات إلكترونية أخرى، إن لم يكن

يحتل الإنسان ثلاثة مواقع مهمة من مواقع الاقتصاد الرقمي. فهو "مصدر" تطوير هذا الاقتصاد، وهو "هدفه" المنشود، وهو أيضاً "المسؤول" عن اتخاذ القرارات بشأنه

بعضهم قد سبق الإدارة الحكومية إلى ذلك. وبذلك ينشأ لكل مؤسسة خاصة، وللحكومة كمؤسسة كبرى «أنظمة قيمة» رقمية متكاملة تمثل جانب استخدام تقنيات المعلومات من جوانب الاقتصاد الرقمي.

الجانب الآخر من جوانب الاقتصاد الرقمي هو جانب إنتاج تقنيات المعلومات الذي يُزوّد جانب استخدامها بجزء من احتياجاته، ليحد بذلك من استيراد هذه التقنيات، وليساهم أيضاً في الدخل القومي وفي إيجاد وظائف جديدة لأبناء المجتمع.

وتدل المؤشرات على توجه الاقتصاد العالمي بحكوماته ومؤسساته الخاصة نحو الاقتصاد الرقمي. ولعل من أحدث هذه المؤشرات وأبرزها مؤتمر قمة مجتمع المعلوماتية الذي عُقد في جنيف في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) عام٢٠٠٣م، وعلى ذلك فإن الدول التي تتردد في المُضي قُدُماً في هذا التوجه سوف تعزل «أنظمة القيمة» المحلية لديها عن «أنظمة القيمة» الرقمية المتكاملة للدول الأخرى، وتعاني نتيجة لذلك «فجوة رقمية»، تعيقها عن مواكبة التطور الدولي.

والآن، وبعد طرح المعطيات الاقتصادية لتقنيات المعلومات، ومناقشة تفاعلاتها وأثرها في مستويات الإنسان والمؤسسة والدولة، نكون قد استكملنا الأسس اللازمة لتحديد المفهوم المتكامل للاقتصاد الرقمي. وهذا ما سنحاول تقديمه فيما يأتي.

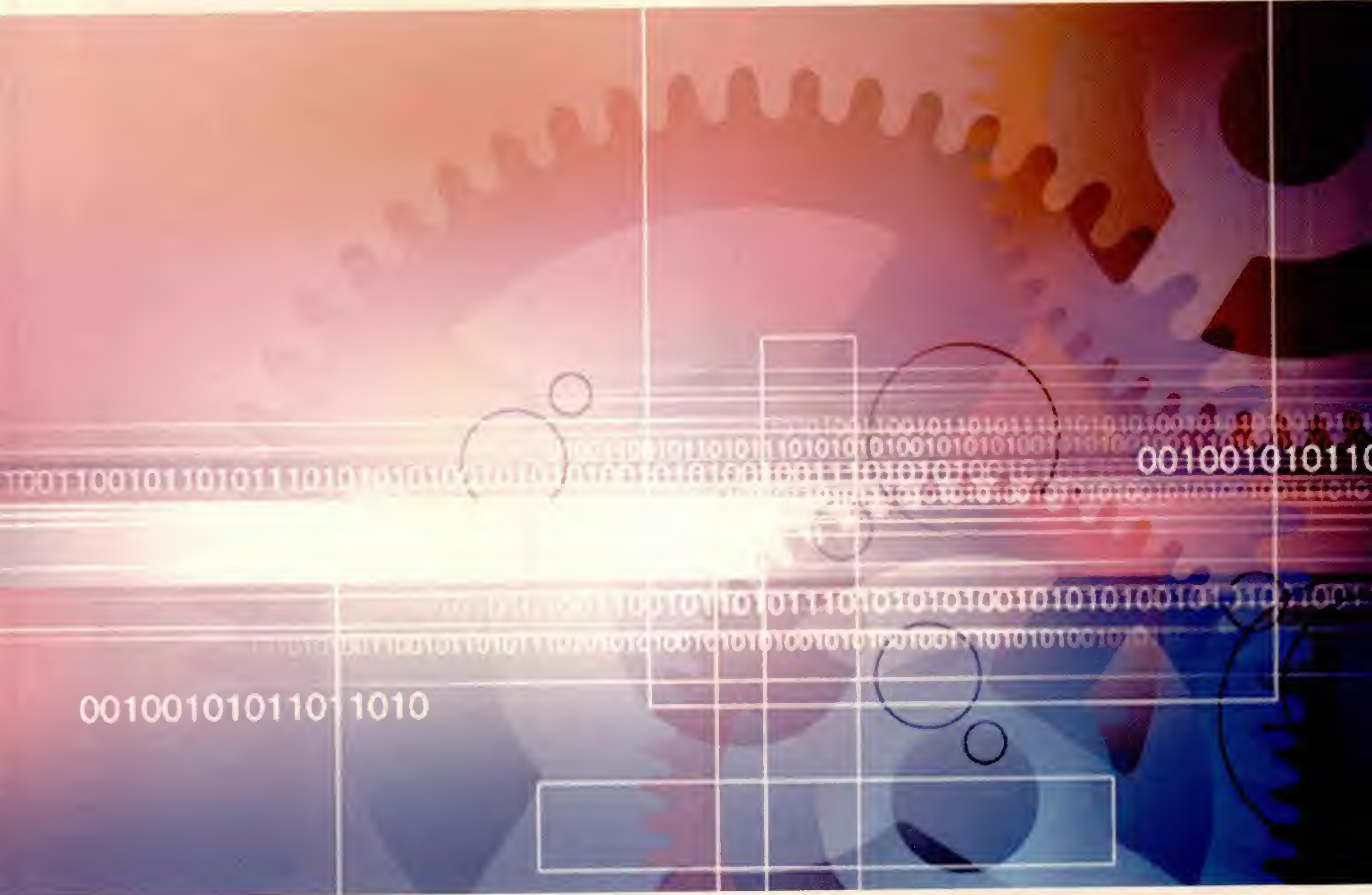
مفهوم الاقتصاد الرقمي

ليس الاقتصاد الرقمي بديلاً للاقتصاد المعتاد. بل هو «تطوير لأدائه» عن طريق استخدام تقنيات المعلومات في شتى المجالات، وعن طريق إنتاجها أيضاً. ولعله يمكن تحديد مفهوم هذا الاقتصاد من خلال القول بأن الاقتصاد الرقمي هو:

- «صناعات رقمية» تستطيع الحد من الاستيراد، والعمل على التصدير، وتقوم ببناء الخبرات والتشجيع على البحث والإبداع والابتكار.
- «بنية تقنية رقمية أساسية»، مُتاحة للجميع بتكاليف معقولة، وقادرة على استيعاب تطبيقات التقنيات الرقمية الحديثة.
- مؤسسات «تعليمية»، ووسائط «معرفية»، ووسائل «إعلام» تساهم في بناء «إنسان» واع، مثقف ومؤهل رقمياً، ومتفتح لمتغيرات المستقبل، ومتطلع إلى التطوير.
- مؤسسات تدعم «سلاسل القيمة» فيها باستخدام فعّال لتقنيات المعلومات يستفيد من معطياتها المفيدة، وتعمل أيضاً على تعزيز «أنظمة القيمة» لديها عن طريق مساعدة المتعاملين معها من أفراد ومؤسسات على التوجه نحو التعامل الرقمي، ويشمل ذلك أنظمة «التجارة الإلكترونية» والخدمات الإلكترونية الأخرى.

من أبعاد جودة استخدام تقنية المعلومات: سهولة الحصول على المعلومات في الوقت المناسب، وسرعة اتخاذ القرارات، وزيادة وثوقيتها ودعم شفافية التعامل في المجتمع

إذا كان استخدام تقنيات المعلومات يُقلص الحاجة إلى الإنسان في مهن مختلفة، ليخفض بذلك عدد الوظائف المتاحة في هذه المهن، فإنه من ناحية ثانية، يفسح المجال أمام بروز وظائف جديدة



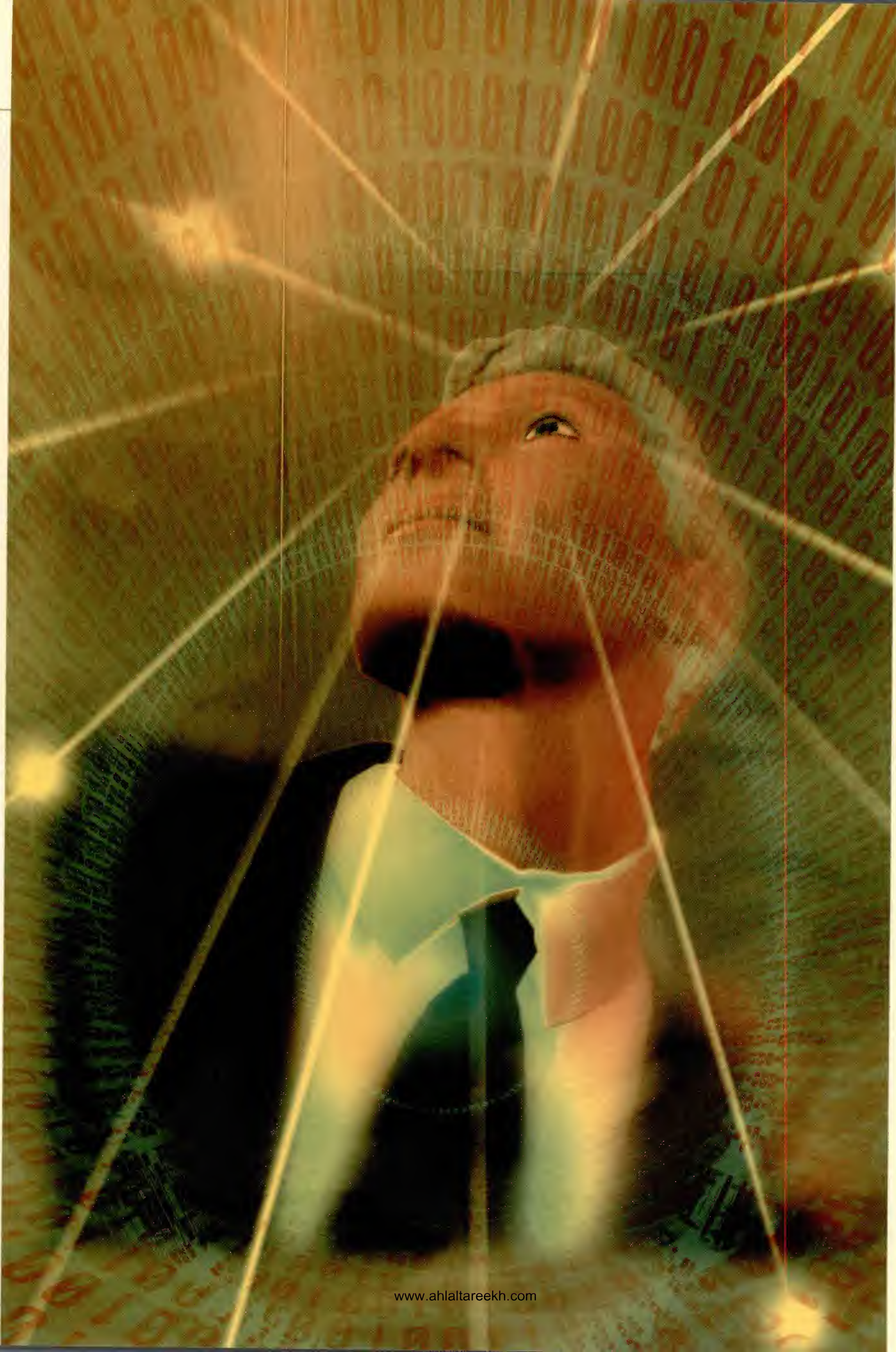
تقنيات المعلومات تدعم شفافية التعامل في المجتمع

- إدارة حكومية تهتم بتطوير سلاسل القيمة وأنظمتها لمؤسساتها الحكومية باستخدام فعّال لتقنيات المعلومات، وتشجع المؤسسات الخاصة على بناء سلاسل وأنظمة قيمة فعالة، وتسعى إلى وضع جميع هذه السلاسل والأنظمة الوطنية في إطار موحد، متكامل وفعال، وقادر على التعامل على المستوى الدولي. ويتضمن ذلك أنظمة «الحكومة الإلكترونية»، إلى جانب أنظمة «التجارة الإلكترونية» والخدمات الإلكترونية الأخرى.

وهكذا فإن للاقتصاد الرقمي بعداً «أفقياً» يشمل مختلف نواحي العمل التي يمكن أن تستخدم تقنيات المعلومات لدعم أدائها، كما أن له بُعداً «رأسياً» يشمل مستويات متعددة تبدأ بالإنسان وتنتهي بالتعامل على المستوى الدولي، مروراً بالمؤسسات الخاصة والمؤسسات الحكومية. ولعلنا نتوقف هنا لنتساءل عن السبيل لبناء الاقتصاد الرقمي، ونبدأ في هذا الإطار بإلقاء الضوء على الوضع الراهن تمهيداً لإعطاء وجهة نظر حول هذا البناء.

الوضع الراهن

لا شك أن كثيراً من المؤسسات الحكومية والخاصة



ليس الاقتصاد الرقمي بديلاً للاقتصاد المعتاد، بل هو "تطوير لأدائه" عن طريق استخدام تقنيات المعلومات في شتى المجالات، وعن طريق إنتاجها أيضا

في الدول العربية قد بدأت، ومنذ سنوات، أو ربما عقود، باستخدام تقنيات المعلومات لدعم أدائها. ولعله يمكن للمراقب القول بأن هذا الاستخدام لم يكن في معظم الأحوال جزءًا من خطط وطنية تدعم تكامله من ناحية، ولم يكن مطبقاً بالقدر الذي يسمح بزيادة فوائد تقنيات المعلومات إلى الحد الأقصى، وجعل سلاسل القيمة وأنظمتها في أفضل أحوالها من ناحية ثانية. وعلى ذلك فإن إمكانات تطوير ما هو قائم مفتوحة، خصوصاً مع التطورات التقنية الحديثة وتراكم الخبرات، فضلاً عن إمكانات التطوير من البداية، ودون معطيات مسبقة.

وبالنظر إلى الوضع الراهن على مستوى العالم، نجد أن التوجه، ووضع الخطط والعمل على تنفيذها، نحو بناء الاقتصاد الرقمي تشكل حيزاً مهماً من اهتمام الدول، ليس فقط على المستوى الوطني، بل على مستوى المجموعات الدولية، كما هو

الإنسان مصدر الاقتصاد الرقمي وهدفه، والمسؤول عن تنفيذه، والمؤسسة، بما في ذلك المؤسسات الحكومية والخاصة، هي وحدة العطاء، وتكوين "القيمة"، والتقنية هي الوسيلة الجديدة لتطوير الاقتصاد

الحال في مجموعة دول الاتحاد الأوربي التي تُركز في ذلك منذ مؤتمر القمة الذي عقدته في لشبونة في شهر آذار (مارس) عام ٢٠٠٠م، وبالإضافة إلى ذلك، يدل مؤتمر قمة مجتمع المعلوماتية، السابق الذكر، الذي عُقد مؤخراً، على الاهتمام بهذا الأمر على المستوى الدولي. وعسى أن يأخذ هذا الاهتمام طريقه إلى فوائد عملية للدول النامية تؤدي إلى تقليص الفجوة الرقمية مع الدول المتقدمة.

على المستوى العربي، كان هناك، على مدى السنوات السابقة عدة مؤتمرات دعت إلى بناء المجتمع المعلوماتي، وكان هناك أيضاً خطط وطنية في بعض الدول العربية، لعل من أبرزها «الحكومة الإلكترونية» في دبي، و«الخطة الوطنية السعودية لتقنية المعلومات» التي تم إنجازها مؤخراً من قبل جمعية الحاسبات السعودية. والمطلوب الآن هو التنفيذ الفعلي للتحول، وبشكل فعال، إلى الاقتصاد الرقمي، وسوف نحاول فيما يأتي طرح تصور مبدئي حول هذا التحول.

التحول إلى الاقتصاد الرقمي

يُعطي الشكل المرفق إطاراً متكاملاً مقترحاً يمكن أن يشكل دليلاً أولياً في العمل على التحول إلى الاقتصاد الرقمي، سواء انطلاقاً من حالة راهنة، يُطلب تطويرها، أو انطلاقاً من نقطة البداية الأولى. ويعتمد الإطار المقترح على خمسة عوامل رئيسة: «الاستراتيجية والتخطيط، والإنسان، والمؤسسات، والتقنية، إضافة إلى البيئة».

ويركز الإطار في أن التحول يجب أن يتم بشكل متكامل يأخذ جميع هذه العوامل الرئيسة في الحسبان من جهة، وفي أنه يجب أن يتم بخطا متدرجة، ولكن ثابتة ومحددة بخطط مدروسة من ناحية ثانية. وسوف نلقي الضوء فيما يأتي على العوامل الرئيسة لتوضيح





يُعطي الشكل إطاراً مفتوحاً يشكل دليلاً للعمل على التحول إلى الاقتصاد الرقمي

الجوانب المختلفة لهذا الإطار.

لنبدأ بعامل «الإستراتيجية والتخطيط»، ويتضمن هذا العامل وضع الرؤية المنشودة vision، وتحديد المهمات المطلوبة mission. كما يشمل وضع الخطط، وتقسيمها إلى مشروعات متدرجة يُطلب تنفيذها. ويحدد هذا العامل الأساليب التي يمكن استخدامها في هذا السبيل، وتتضمن هذه الأساليب على سبيل المثال: أسلوب «إعادة الهندسة» BPR، وأسلوب «إدارة الجودة الشاملة» TQM، وأسلوب «الانحراف أو الابتعاد السادس» six sigma، وتهتم هذه الأساليب بالكفاءة والجودة، وتسعى إلى زيادة الفوائد إلى الحد الأعلى، وتقليص الهدر إلى الحد الأدنى.

وتأتي بعد ذلك العوامل الثلاثة التي أوردناها في بداية هذا المقال لبناء مفهوم الاقتصاد الرقمي، ألا وهي: «الإنسان والمؤسسة والتقنية». فالإنسان مصدر الاقتصاد الرقمي وهدفه، والمسؤول عن تنفيذه،



الإستراتيجية والتخطيط عامل رئيسي في التحول الى الاقتصاد الرقمي

والمؤسسة، بما في ذلك المؤسسات الحكومية والخاصة، هي وحدة العطاء، وتكوين «القيمة»، والتقنية هي الوسيلة الجديدة لتطوير الاقتصاد وجعله رقمياً يتمتع بقدرات غير مسبوقة على تطوير إنتاجية المؤسسات، وجعلها «أسرع، وأرخص، وأفضل، وذات إمكانيات إضافية، وأكثر أمناً» FCBDS.

وهناك بالإضافة إلى ما سبق عامل «البيئة» المهنية للتطوير المنشود. ويحدد الإطار أربعة عناصر أساسية لهذه البيئة تشمل «الأمن، والإدارة، والإمكانات المادية، والمعارف والخبرات». ويُعطي الإطار تحليلاً أولياً لكل من هذه العوامل، كما يبين أن جميع هذه العوامل تستند إلى الثقافة الوطنية المحلية، وإلى التأثيرات الخارجية، ويؤكد الإطار التطوير المتكامل والتدريجي لجميع العوامل لسابقة.

نظرة إلى المستقبل

يأمل هذا المقال في أن يكون قد قدّم للقارئ الكريم تحليلاً لمفهوم الاقتصاد الرقمي الذي بات محوراً لتوجهات المؤسسات والدول والمجموعات الدولية، بل والعالم بأسره، ويأمل أيضاً في أن يكون قد أعطى إطاراً أولياً للتحول إلى هذا الاقتصاد الذي بات ضرورة، بديلها هدر للإمكانات ناتج من أداء متواضع، ومعاناة من فجوة رقمية مع الدول الأخرى. وعسى أن يتبع هذا المقال مقالات أخرى تقدم تفاصيل أكبر حول ما طرحه من عوامل مختلفة. ولابد من الإشارة أخيراً إلى أنه على كل دولة، أو ربما مجموعة من الدول التي تطمح إلى السير في طريق هذا التحول. إنشاء مركز مستقل لدراسات الاقتصاد الرقمي، يكون مصدراً حافزًا إلى التطوير. ومرجعاً له يُقدم الرأي والمشورة والخبرة اللازمة.

المراجع

1- Bakry SH. Development of e-government: A STOPE view. International Journal of Network Management (Wiley Inter-Science) 2004; 14(6): to appear

٢. سعد الحاج بكري. المعلوماتية والمستقبل، مؤسسة اليمامة، كتاب الرياض ١١٢، أيار (مايو)، ٢٠٠٣م.

3- Business Week special report: Software: will outsourcing hurt America's supremacy, European Edition, March 1, 2004, pp. 52-62.

4- Porter M. The Competitive Advantage of Nations; The Free Press: New York, 199012

في مفهوم الحوار



محمد حسون العكاري

سَطَّات ـ المغرب

إذا عدنا إلى المعجمات العربية سنجد مفهوم الحوار يتردد بين مجموعة من المعاني. ولبيان ذلك دعونا نورد مقتطفات من بعضها ونبدأ من أشهرها، وهو "لسان العرب" يقول: "... وكلمته فما رجع إلي حَوَارا وحِوَارًا ومحاورة وحَويرًا ومَحُورَة، بضم الحاء بوزن مَشُورَة، أي: جوابًا. وأحار عليه جوابه: ردَّه. وأحرت له جوابًا وما أحار بكلمة والاسم من المُحاوَرَة الحَوِير، تقول: سمعت حَويرَهما وحِوارَهما. والمُحَاوَرَةُ : المجاوبة والتَّحَاوُر:التجاوب. وتقول: كلّمته فما أحار جوابًا، وما رجع إلي حويرًا ولا حويرة ولا مَحُورَةً ولا حَوَارًا أي ما رَدّ جوابًا. واستحاره أي استنطقه.

وفي حديث علي كرم الله وجهه: يرجع إليكما أنبأكما بِحَوْر ما بعثتما به أي بجواب ذلك يقال: كلمته فما ردَّ إليَّ حَوْرًا، أي: جوابًا وقيل: أراد به الخيبة والإخفاق. وأصل الحَوْر: الرجوع إلى النقص (...) وفي حديث سطيح: فلم يُحِرْ جوابًا، أي: لم يرجع ولم يردّ، وهم يتحاورون، أي: يتراجعون الكلام. والمحاورة: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة، وقد حاوره. والمَحُورَةُ: من المحاورة مصدر كالمَشُورَة من المشاورة كالمَحْوَرَة وأنشد:

لحاجة ذي بث ومَحْوَرَة له
كفى رجعها من قصة المتكلم

وما جاءتني عنه مَحُورَة، أي: ما رجع إلي عنه خبر.

وإنه لضعيف الحَوْر أي المحاورة (...) واستحار الدار: استنطقها من الحوار الذي هو الرجوع؛عن ابن الأعرابي (١).

أما معجما: «الفائق» و«مختار الصحاح» فيؤكدان بعض ما أدرجه «لسان العرب» من المعاني بخصوص المفهوم، يقول الأول: «أحار: منقول من حار إذا رجع، كما يقال: لم يرجع جوابًا ولم يردّ، ومنه المحاورة وهي مراجعة القول» (٢).

ويقول الثاني: « ... والمحاورة المجاوبة، والتحاور التجاوب» (٣).

من كل ذلك يمكن أن نستنتج أن المعاني اللغوية للمحاورة تراوح بين:

الرَدّ، والمجاوبة، والمراجعة، والرجوع، والاستنطاق (الاستحارة): وهي كلها معان تتمثل بالفعل وبالقوة في عمليات الحوار المنجزة فعليًا: فالردّ يكون مثلا في الجواب عن سؤال أو دفع قول شبهة أو ادّعاء... بحجة أو رفض...

والمجاوبة مثل ذلك بما يحمله اللفظ من معنى المشاركة في الأخذ والردّ في الكلام في أثناء ممارسة فعل الحوار.

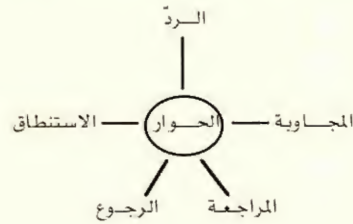
والمراجعة مثل المجاوبة وتزيد عليها بفعل التمحيص والفحص بعين العقل والمنطق في القول المعروض أو المزمع عرضه قبل إخراجه إلى حيز الوجود.

والرجوع فيه بالإضافة إلى معنى الردّ، معنى النكوص والتخلي عن جزء من القول ـ السابق ذكره في أثناء ممارسة الحوار. بسحبه، وبهذا يحصل

النقص والعودة إلى غيره.

الاستنطاق (بما يلزمه من حروف الزيادة ذات معنى الطلب): الإلحاح في الطلب والسؤال لغاية معينة في محاولة لإفراغ حويصلة المُحَاوَر مما يملكه من معرفة وعلم ودلائل... حول الموضوع المركزي المتحاوَر حوله، أو لأجل إسقاطه في المتناقضات القولية والفعلية، أو لأجل تحقيق غرض تهكمي بخصوص خطاب الخصم...

ونشير أيضًا إلى أن هذه المعاني مترابطة، ولذلك يمكن تجسيد هذا الترابط بالنقاط الآتية:



الحوار في التعريف المعاصر

إن هذا التعدد المعنوي للفظ الحوار، بقدر ما يدل على الثراء المعجمي الذي تحفل به اللغة العربية المجيدة عامة، بقدر ما يعني رحابة مدى التطور الذي وصل إليه المفهوم بما رافقه من مرونة ودقة بحسب استعماله وفق سياق خاص، فإذا انتقلنا إلى جرد بعض التعريفات المعاصرة، فإننا لن نستغرب من حفاظ مفهوم الحوار على معانيه اللغوية، حتى وإن اختلفت الحقول المعرفية التي تمتح منها هذه التعريفات، فاللب والجوهر مازالا لغويين بالدرجة الأولى غير أن السياق تغير بتغير المرجعية التي ينطلق منها أو ينتمي إليها، ونورد هنا مجموعة من التعريفات بخصوص المفهوم:

- الحوار: «أن يتبادل الحديث طرفان أو أكثر عن طريق المناقشة؛ وعن طريق السؤال والجواب؛ شريطة وحدة الموضوع والهدف حتى يكون الحوار والنقاش متبادلاً ومجديًا. وقد يصل المتحاورون فيما بينهم إلى نتيجة مقنعة: وقد لا يصلون إلى ذلك» (٤).

- «يعدّ الحوار صيغة تواصلية بين طرفين/ أطراف من شأنها أن توقظ الانتباه عند كل منهم، وتحثه على استغلال إطاره اللغوي والمعرفي من أجل المواجهة، وهذا ما يجعل الحوار يقوم على ثلاث وظائف أساسية: التبليغ والتدليل والمواجهة» (٥).

- «إن الحوار على تفاوت مراتبه يعدّ حالة متقدمة من حالات النقاش والتبادل القائم على

المناظرة أسلوب وطريقة تراثية للتعليم يقومان على استعراض وجهات النظر المتعارضة والتركيز في نقاط الجدل والحوار التي توضح أوجه الخلاف



الحوار انعكاس لمستوى من الرقي



الحوار صيغة تواصلية توقظ الانتباه

مستوى رفيع من المعرفة والأخلاق في آن معًا والحوار هو تجلٍّ لمستوى من الرقي الإنساني بين الأفراد والجماعات، وحتى الدول، يوصل إلى الوحدة في نهاية المطاف» (٦).

التعدد المعنوي للفظ الحوار، بقدر ما يدل على الثراء المعجمي الذي تحفل به اللغة العربية الجيدة عامة، بقدر ما يعني رحابة مدى التطور الذي وصل إليه المفهوم بما رافقه من مرونة ودقة

مرادفات حوارية

- المناظرة.
- المساجلة.
- الندوة.
- التفاوض.
- المناقشة.
- المجادلة.
- الحجاج.

لزم هنا الإشارة إلى مفاهيم أخرى وثيقة الصلة بالمحاورة نقصد: المناظرة / المساجلة / الندوة / التفاوض / الجدال / الحجاج / المناقشة. كلها أساليب وطرائق متداخلة المعاني. تشكل شبكة متداخلة

الخيوط في إطار دائرة التواصل، ويمثل الحوار اللحمة الرابطة بينها، لذلك لا بد من التعرض إليها بشيء من التحديد حتى نبرز محل الحوار فيها.

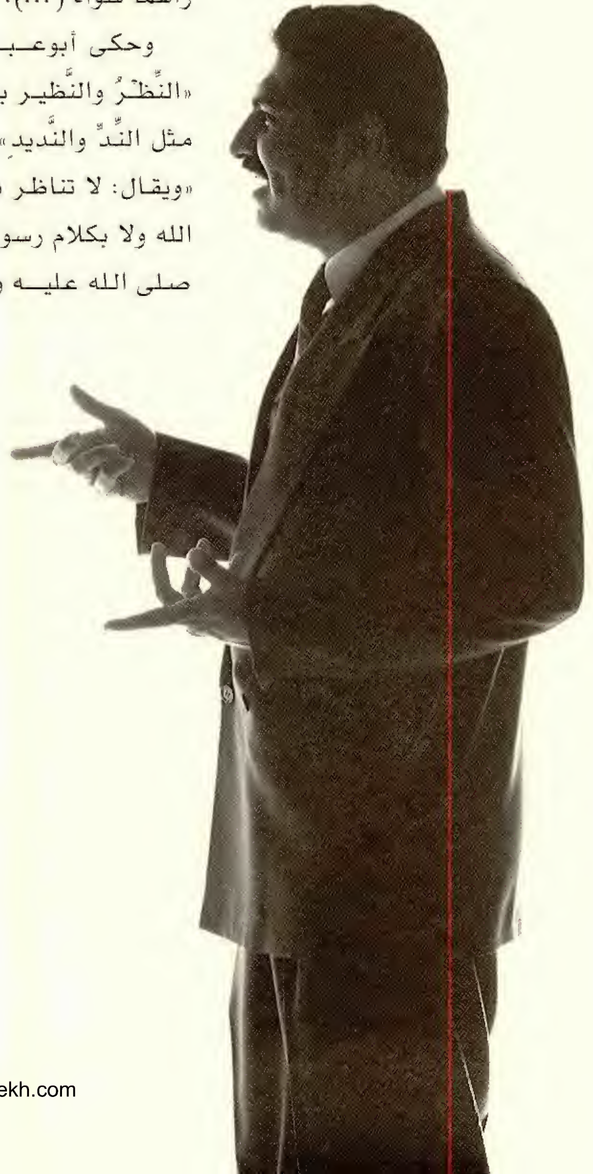
فبالنسبة إلى المُناظَرة، ومن الناحية اللغوية، هي: «أن تُناظِرَ أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا كيف تأتيانه، (...) والنَّظَرُ: الفكر في الشيء تقدرُهُ وتَقِيسُه منك...» (٧).

«والتناظُر: التَّراوُضُ في الأمر.

ونظيرك: الذي يناظرك وتناظره، وناظَره من المناظرة، والنظير: المثل، وقيل المثل في كل شيء، وفلان نظيرك، أي مثلك؛ لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء (...).

وحكى أبوعبيدة: «النِّظْرُ والنَّظير بمعنًى، مثل النِّدِّ والنَّديد» (...) «ويقال: لا تناظر بكتاب الله ولا بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي رواية: ولا بسنة رسول الله، قال أبوعبيدة: أراد لا تجعل شيئًا نظيرًا لكتاب الله ولا لكلام رسول الله فتدعهما وتأخذ به، يقول: لا تتبع قول قائل من كان وتدعهما له. قال أبوعبيد: ويجوز أيضًا في وجه آخر أن يجعلهما مثلا للشيء يعرض مثل قول إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون أن يذكروا الآية عند الشيء يعرض من أمر الدنيا، كقول القائل للرجل إذا جاء في الوقت الذي يريده صاحبه:(جئت على قدر يا موسى)(...) ويقال: ناظرت فلانًا أي صرت نظيرًا له في المخاطبة، وناظرت فلانًا، بفلان، أي: جعلته نظيرًا له» (٨).

و«النَّظَرُ والنَّظَران بفتحتين تأمّل الشيء بالعين، وقد نظر إلى الشيء، والنَّظَرُ أيضًا الانتظار(...) واستنظره استمهله وتنظَّرَهُ تنظّرًا انتظره في مهلة وناظره من المناظرة (...) ونظير الشيء مثله، والنَّظِر





أشكال من الحوار

بوزن التَّبِر لغة فيه كالنَّديد والنِّدّ.» (٩).

وتأخذ المناظرة معنى المواضعة بشكل مطابق حيث إن: «المواضعة: المناظرة في الأمر، والمواضعة: أن تواضع صاحبك أمرًا تناظره فيه. والمواضعة المراهنة» (١٠).

ويمكن الوقوف عند ثلاثة محددات معاصرة للمناظرة:

الحوار هو العامل المشترك بين كل المفاهيم التي هي ألوان تواصلية، قيمتها كبيرة وضرورية في حياة الإنسان وفكره

- «أسلوب وطريقة تراثية للتعليم يقومان على استعراض وجهات النظر المتعارضة والتركيز في نقاط الجدل والحوار التي توضح أوجه الخلاف. وفي مجالها يكون المناظر مرتبطًا بأفكار من يحاوره، فعليه أن يحسن الإصغاء والاستماع إلى القول حتى إذا ما فرغ منه ردّ عليه ما يقنع ناقضًا قوله بالحجة الظاهرة، والدليل القاطع والبرهان الساطع» (١١).

- «شكل من أشكال التنشيط يقوم على مناقشة موضوع ما من طرف مجموعة أشخاص (من ١إلى ٦) يكون بعضهم منشطًا أو مقررًا ويكون بعضهم الآخر شخصًا مصدرًا أو خبيرًا، وتتم هذه المناقشة أمام الجمهور، وغالبًا ما يتم هذا النشاط بمناقشة

مفتوحة تطرح فيها أفكار ووجهات نظر، ويقوم الأشخاص المصادر بالإجابة عنها وفق خطة لتسيير المناقشة وتنظيم التدخلات» (١٢).

- «اجتماع طلبة أو خبراء أو باحثين ليناقشوا خلاله موضوعًا أو مشكلاً خلال مدة زمنية محددة (أيام أسبوع) وتكون المهام موزعة بين مجموعات صغرى» (١٣). هذا بخصوص المناظرة.

أما المساجلة لغة فيقال: «سَاجَلَ الرجل باراه، وأصله في الاستسقاء، وهما يتساجلان. المساجلة: المفاخرة بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي (...) قال ابن برّي: أصل المساجلة أن يستسقي ساقيان فيخرج كل واحد منهما سَجْله مثل ما يخرج الآخر، فأيهما نَكَلَ فقد غلب فضربته العرب للمفاخرة، فإذا قيل فلان يُساجل فلانًا فمعناه أنه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه الآخر، فأيهما نكل فقد غلب: وتساجلوا أي تفاخروا، ومنه قولهم الحرب سجال. ...» (١٤).

« ... وقالوا: الحروب سجال أي سجل منها على هؤلاء، وآخر على هؤلاء : المساجلة مأخوذة من السَّجْل، وفي حديث أبي سفيان أن هرقل سأله عن الحرب بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم فقال له الحرب بيننا سِجال، معناه إنا نُدَالُ عليه مرة، ويدال علينا أخرى. ...» (١٥).

في حين وردت لفظة الندوة في المعجمات العربية بالتحديد الآتي: «يقال نَدَوْتُ القوم أنْدُوهُم إذا جمعتهم في النادي، وبه سميت دار الندوة بمكة التي بناها قُصَيّ، سميت بذلك لاجتماعهم فيها. (عن الجوهري) :النديُّ، على فعيل: مجلس القوم ومتحدَّثُهم، وكذلك الندوة والنادي والمنتدى والمُتندَّى.

وفي التنزيل العزيز: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ قيل : كانوا يحذفون الناس في مجالسهم، فأعلم الله أن هذا منكر، وأنه لا ينبغي أن يتعاشر الناس عليه، ولا يجتمعوا على الهُزُؤ والتلهي، وألاّ يجتمعوا إلا فيما قرب من الله، وباعد عن سخطه (...) وقيل: الندوة: الجماعة، ودار الندوة منه: أي: دار الجماعة، سميت من النادي، وكانوا إذا حزبهم أمر ندوا إليها فاجتمعوا للتشاور، قال: وأناديك أشاورك وأجالسك من النادي. وفلان ينادي فلانًا أي يفاخره، ومنه سميت دار الندوة» (١٦).

يعدّ الحوار صيغة تواصلية بين طرفين/ أطراف من شأنها أن توقظ الانتباه عند كل منهم. وتحثه على استغلال إطاره اللغوي والمعرفي من أجل المواجهة. وهذا ما يجعل الحوار يقوم على ثلاث وظائف أساسية: التبليغ والتدليل والمواجهة

ومن حيث التعريف المعاصر يفرق محمد صالح سمك بين المناقشات الحاصلة في كل من المساجلة والمناظرة والندوة». « .. ففي المناظرة تدور المناقشة حول وجهتي نظر متعارضتين.. وفي الندوة يختار موضوع المناقشة، ويشترك في بحثه عدد من الأعضاء. بحيث يتناول كل واحد منهم جانبًا من جوانبه. أما المساجلة فالغاية منها تبادل الرأي في نقطة من الموضوع، وبعد أن ينتهي كل عضو من إبداء رأيه أمام المستمعين، يفتح الرائد المشرف باب المناقشة، وفي المساجلة لابد أن يحدد لكل متكلم وقت معين، ينتهي دوره في الكلام بانتهائه. ولا يصح أن يتجاوزه». (١٧). أما لفظ المفاوضة أو التفاوض لغة فيقال: «فوض إليه الأمر تفويضًا رده إليه، وقوم فوضى، بوزن سكرى، أي: متساوون لا رئيس لهم، وتفاوض الشريكان في المال اشتركا فيه أجمع، وهي شركة المفاوضة. وفاوضه في أمره أي جاراه،

للحوار ومفاهيمه قيمة كبيرة في حياة الإنسان وفكره

وتفاوض القوم في الأمر أي فاوض بعضهم بعضًا» (١٨).

وفي «الفائق» : «المفاوضة المساواة والمشاركة» (١٩).

وكذا في «النهاية في غريب الحديث» (٢٠).

ومن الناحية الاصطلاحية يعرف محمد السيد السعيد التفاوض بأنه «فن قائم بذاته يختص بترقيته سلك خاص هو السلك السياسي والدبلوماسي. ويقوم هذا السلك في العادة بتوفير أسس العمل التحتي للعملية التفاوضية، وصياغتها النهائية بعد ذلك، ويظل مع ذلك صاحب أهلية اتخاذ القرار السيادي، وهو صاحب الكلمة الأخيرة في نجاح الأداء التفاوضي أو عدم نجاحه أو في العملية التفاوضية ونتائجها المحددة بالنسبة إلى مجتمع ما، ويسمى التفاوض على هذا المستوى فنًا: لأنه ينطوي على رؤية وبصيرة تمكن المفاوض من قراءة عدد هائل من المتغيرات المتداخلة والمتناقضة أحيانًا، وذلك أكثر بكثير ممّا ينطوي على تطبيقه - مهما كان دقيقًا - لقواعد «علمية» جاهزة» (٢١).

وهو لديه «نظام تفاعلي، لا يمكن فهم سلوك طرف ما فيه، واختياراته، دون فهم سلوك الطرف، أو الأطراف الأخرى واختياراتها. وباعتباره كذلك، يجب النظر إلى المفاوضات كعملية اختيار مشروط بالاختيارات المحتملة للطرف الآخر» (٢٢).

أما المناقشة فمعناها «الاستقصاء في الحساب، وفي الحديث: « من نوقش الحساب عُذِّب» (ج١. ٣٣





الندوة نقاش مجموعة حول موضوع محدد

/ ٢٨١). وفي لسان العرب «المناقشة الاستقصاء في الحساب حتى لا يترك منه شيء. وانتقش منه جميع حقه وتنقشه : أخذه فلم يدع منه شيئًا ...» (٢٣).

والمجادلة لغة «المناظرة والمخاصمة» (٢٤). وهي من الجدل الذي هو«مقابلة الحجة بالحجة، والمراد به في الحديث (ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا) الجدل على الباطل وطلب المغالبة به... فأما الجدل لإظهار الحق فإن ذلك محمود. لقوله تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٢٥).

«ويقال إنه لجَدِلٌ إذا كان شديد الخصام» (٢٦).

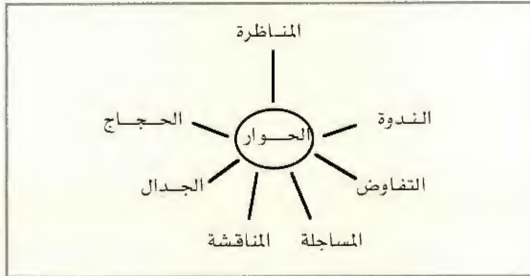
وقد أخذ لفظا الجدل والجدال تعريفات مزيدة مع تطور المسار المعرفي مواكبة مع التيارات الفلسفية، ونشوء علم الكلام، فحدد الجدال بأنه «عبارة عن مراء يتعلق بإظهار إذنه وتقريرها» (٢٧): إنه «المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة» (٢٨).

وحدد الجدل بأنه «هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان» (٢٩).

إنه «دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة أو يقصد به تصحيح كلامه وهو الخصومة في الحقيقة» (٣٠).

في حين يأخذ الحِجَاجُ معاني القطع بالبرهان والحجة مع التخاصم والجدل، ويعترف أ. حبيب أعراب بعسر وصعوبة تعريف قار ومحدد للحجاج إلا أنه يورد تعريفًا بخصوصه لمشال مايير (M.Meyer) إذ يقول: «يعرف الحجاج عادة بكونه جهدًا إقناعيًا (إفحاميًا). ويعتبر البعد الحجاجي بعدًا جوهريًا في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه» (٣١).

وكما يتبين من خلال التحديدات السالفة الذكر نستنتج أن الحوار هو العامل المشترك بين كل هذه المفاهيم التي هي ألوان تواصلية، قيمتها كبيرة وضرورية في حياة الإنسان وفكره، ويمكن أن نجسد هذا الترابط والتلاحم في النقاط الآتية:



المراجع

١- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، ج٤، ص ٢١٨-٢١٩، الموسوعة الإلكترونية: المكتبة الألفية للسنة النبوية، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، إصدار ١,٥، ١٤١٩/١هـ - ١٩٩٩م الأردن.

٢- الفائق في غريب الحديث للزمخشري، ج٣،ص٤٠، الموسوعة الإلكترونية: المكتبة الألفية للسنة النبوية، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي/إصدار١,٥، ١٤١٩/١هـ - ١٩٩٩م الأردن.

٣- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، ج١، ص٦٧، الموسوعة الإلكترونية: المكتبة الألفية للسنة النبوية، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي/إصدار١,٥، ١٤١٩/١هـ - ١٩٩٩م الأردن.

٤- تقنيات التواصل في السنة النبوية، أنس الغبيسي، جريدة النبأ (المغربية) ع٣١، ص٥.

٥- منهجية تدريس القراءة: الأسس، الأنشطة، أساليب القراءة، محمد بوجة، ص٥٨، منشورات ديداكتيكا، ط:١، ١٩٩٥، مطبعة النجاح الجديدة.

٦- الحوار والجدل في القرآن الكريم، نجيب نور الدين، مجلة المنطلق ع:١٠٥، ص ٥٨ (محور الحوار في القرآن)، ١٩٩٣م.

٧- لسان العرب، ج٥ ص٢١٩.

٨- لسان العرب، ج٦، ص٤٠١.

٩- مختار الصحاح، ج١، ص٢٧٨.

١٠- لسان العرب، ج١٠، ص ١٠٥.

١١- معجم علوم التربية: مصطلحات البيداغوجيا والديداكتيك١، عبد اللطيف الفارابي - عبد العزيز الغرضاف - محمد أيت موحى - عبد الكريم غريب، ص١٦، سلسلة علوم التربية ٩ - ١٠، ط:١، مطبعة النجاح الجديدة.

١٢- نفسه، ص٤٣.

١٣- نفسه، ص٢٩٥- ٢٩٦.

١٤- لسان العرب،ج١١، ص٣٢٦.

١٥- نفسه، ج١١، ص٣٢٥.

١٦- نفسه، ج١٥، ص٣١٧.

١٧- معجم علوم التربية، ص١٦-١٧.

١٨- مختار الصحاح، ج١، ص٢١٥.

١٩- الفائق، ج٣، ص١٤٨.

٢٠- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ج٣، ص ٤٧٩، الموسوعة الإلكترونية: المكتبة الألفية للسنة النبوية، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، إصدار١,٥، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، الأردن.

٢١- تأملات حول أسلوب التفاوض الإسرائيلي، محمد السيد السعيد، عالم الفكر ع:٤٠،ص ٦٤، ١٩٩٧م.

٢٢- نفسه، ص٦٤.

٢٣- لسان العرب، ج٦، ص٣٥٨.

٢٤- نفسه، ج١٤،ص١٤١ - والنهاية في غريب الحديث، ج١، ص٢٦٤.

٢٥- نفساهما على التوالي، الصفحات نفسها على التوالي.

٢٦- سان العرب، ج١١، ص١٠٥.

٢٧- التعريفات، ج١، ص١٠١.

٢٨- تأملات في الحوار، ص٢٦.

٢٩- التعريفات، ج١، ص١٠١.

٣٠- نفسه، ص نفسها.

٣١- المفاوضات والقوة: يوسف هيكل. مجلة العربي (الكويتية)، ع ٢٢٩، ص٩٩، ١٩٩٢م

- التعريفات، علي الجرجاني، الموسوعة الإلكترونية: المكتبة الألفية للسنة النبوية، مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلي، إصدار١,٥، ١٤١٩/١هـ - ١٩٩٩م الأردن.

- تأملات في الحوار، أحمد صدقي الدجاني، مجلة الفيصل ع١٨٨(ملف الحوار) ١٩٩٢م

جمعية العلماء في الجزائر ومنـ



ابن باديس

ـع تعليم العربية

أجقو علي

بسكرة ـ الجزائر

حركة المقاومة الثقافية والحضارية للمجتمع الجزائري لم تتوقف، بل أخذت أشكالاً متعددة، أهمها: ما حدث في بداية العقد الثالث من القرن العشرين ممثلاً بانطلاق حركة مقاومة المشروع الاستعماري على أسس جديدة وبأساليب مغايرة، عن طريق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كان ظهورها الرسمي متزامنًا مع ذكرى مرور مئة عام على احتلال مدينة الجزائر، إذ كان يراد لهذه الاحتفالات أن تكون شهادة وفاة للجزائر العربية المسلمة، وميلاد الجزائر اللاتينية المسيحية.

غير أن جمعية العلماء برئاسة الإمام عبد الحميد بن باديس، ومعه كوكبة من رجال الجزائر العالمين العاملين، كذبت ذلك إذ أعلنت في مايو/أيار عام ١٩٣١م، ميلاد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (AOMA)، التي عدّها الكثيرون عملاً ضخمًا بعيد المدى (١) في مجال اليقظة والإصلاح من جهة، وفي إعداد جيل جديد يفهم الإسلام فهمًا صحيحًا، ويكتب ويتحدث باللغة العربية.

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف نجد الجمعية تضع في أول اهتماماتها قضية التربية والتعليم، التي تمثل القاعدة الأساسية لا للتقدم فحسب، بل للحياة الحرة الكريمة، كما يؤكد ذلك الإمام ابن باديس حين يقول« ... ربانا (أي الإسلام) على تمجيد العلم والمعرفة والرغبة فيهما، والتلهف على ما فات منهما، والاحترام لمن له حظ فيهما. وبهذه التربية استطعنا أن نحافظ على قرآننا وخطنا وبقايا علوم لغتنا وديانتنا وجملة معارفنا، واندفعنا إلى تأسيس المكاتب العربية، رغم ما يحول بيننا وبينها. ولولا تلك التربية الإسلامية التي زرعتها القرون فاستقرت في قرارات النفوس، وصارت من الخلق الموروث، لكان ما نحن فيه من ظلم وتعاسة وتقديم كل أحد علينا في وطننا، والترك لعامل التجويع، والتمهيل شاغلاً لنا عن العلم وعن الشعور به. ظنوا أن الخبز كل ما نريد، لا يا قوم. إننا أحياء، وإننا نريد الحياة، للحياة خلقنا، وإن الحياة لا تكون بالخبز وحده. فهناك ما علمتم من مطالبنا العلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وكلها ضرورات في الحياة» (٢).

ذلك تجسد بخلق نظام دراسي عربي حر، عصري ومتفتح، فلسفته وخطه العام يقومان على ثلاثة محاور:

- الإسلام ديني.
- العربية لغتي.
- الجزائر وطني.

هذا البرنامج يمكن تفسيره بأنه إعادة تأكيد مدى تعلق الجزائريين بحضارتهم وثقافتهم على الرغم من مرور قرن على احتلال مدينة الجزائر، وأيضًا تجديد للإشكالية المعرفية ونقلها من مفهوم يغلب عليه الطابع التقليدي إلى مفهوم عصري ومتفتح.

النظام المدرسي العلمائي على الرغم من الظروف التي نشأ فيها كان يتميز بعدم عدائيته للنظام المدرسي الفرنسي الاستعماري، بل بالعكس كان يعترف له بإيجابياته خاصة ما تعلق منها بالجانب العلمي والفلسفي.

الإمام ابن باديس كان واضحًا حول هذه المسألة إذ كان يرى أن اللغة الفرنسية هي وسيلة الجزائريين إلى علوم



الشيخ البشير الإبراهيمي

الغرب ومعارفه، ومن ثمة فلو حرمت فرنسا الجزائريين من تعلم الفرنسية، كما حرمتهم من تعلم العربية، لتمت مقاومة هذا الحرمان: «ولو أننا حرمنا - يقول ابن باديس - من حرية تعلم اللغة الفرنسية التي هي سبيلنا إلى آداب الغرب وعلومه وفنونه، وفهمه من جميع جهاته، كما حرمنا من حرية تعلم لغتنا لوقفنا إزاء ذلك الحرمان - لو كان - كوقوفنا إزاء هذا الحرمان» (٣).

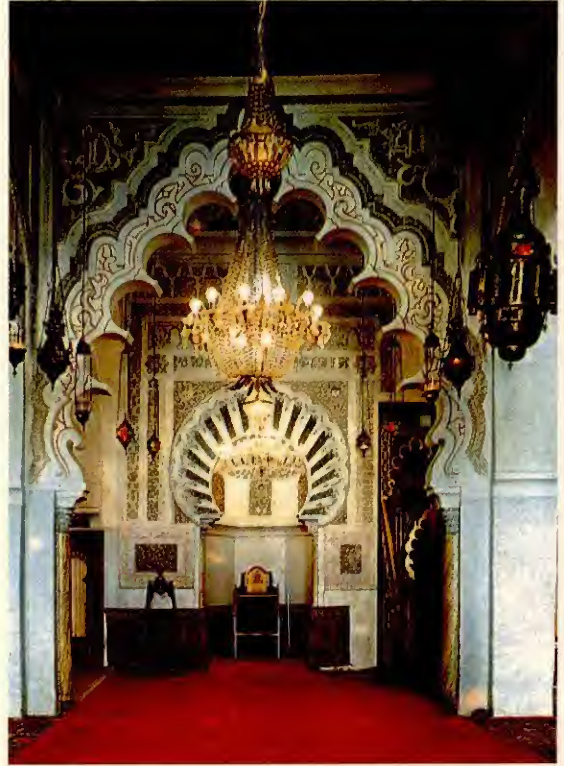
الإدارة الفرنسية الاستعمارية، التي لا تريد تغيير وضع العقلية القائمة، كانت ردة فعلها سريعة في منح الترخيص للجمعية والمصادقة على قانونها الأساسي، بعد ١٥ يومًا فقط من تقديمه لمقر الولاية العامة في الجزائر (٤)، كانت ردة فعلها سريعة وعنيفة ضد الجمعية أشخاصًا ومؤسسات؛ وذلك بعد يقينها بأن العلماء الباديسيين لا يمكن ترويضهم، كما أنهم يختلفون فكرًا ومنهجًا عن ذلك الصنف من العلماء الموظفين الذين لا هم لهم سوى تقاضي المرتبات، والتنافس للظفر برضا السلطات الاستعمارية. لقد كان هذا إيذانًا بعدم رضا الإدارة الفرنسية على خط سير جمعية العلماء ثم الدخول معها في صراع لم تنته فصوله إلا بحل الجمعية عام ١٩٥٦م.

لقد شنت الإدارة الاستعمارية حربها بغية عرقلة نشاط الجمعية بدءًا من عام ١٩٣٢م عندما بدأ نشاطها يتجاوز مدينة قسنطينة.

وفي الواقع كان الكاتب العام بايروتن Peyrouton أول من طلب صراحة اعتماد سياسة المواجهة (٥) ضد الجمعية التي يرى خطورتها تكمن خاصة في وطنيتها ودعوتها لتوحيد جميع فئات المجتمع الجزائري على اختلاف توجهاتهم المذهبية، السياسية والفكرية وسعيها الدؤوب إلى خلق مدرسة أصيلة هدفها الاستحواذ على قلوب الشباب الجزائري لينقلب ضد فرنسا. وإدراكًا من بايروتن لخطورة دور المدرسة الباديسية نجده يقترح (٦) على الإدارة الاستعمارية، وعلى رأسها الحاكم العام جيل كارد Carde، ضرورة استعمال قانون ١٨ أكتوبر ١٨٩٢م المتعلق بالرخص الضرورية لفتح المدارس الحرة بغية عرقلة تطور هذا النوع من المدارس ومن التعليم.

أول إجراء اتخذته الإدارة الاستعمارية ضد الجمعية كان في ١٠ فبراير/ شباط عام ١٩٣٣م، ويتعلق بمنع العلماء الباديسيين من الوعظ والخطبة في مسجد تلمسان، وما أعقبه من إجراءات مماثلة في وهران والعاصمة وغيرهما. هذا الإجراء أثار حفيظة الجمعية فرّد رئيسها على ذلك بعبارات

أدرك الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر بالضبط في سيدي فرج أن مهمته لن تكون سهلة: لأنه سيواجه شعبًا يحمل إرثًا حضاريًا، وله تاريخ حافل بالأمجاد والبطولات



مسجد تلمسان

تناقلتها جميع الصحف إذ قال:«تغلق المساجد في وجه العلماء، وتغلق المدارس لمنعنا من التعلم» (٧)، من جهته فرحات عباس رأى الإجراء: «مساسًا بحرية الممارسة الدينية» (٨). غير أنه في ٢٧ فبراير/ شباط اتخذت الإدارة إجراء تعسفيًا آخر يقضي بحل الجمعية الإسلامية في العاصمة، ومنعها من الإشراف على المساجد، وشكّل والي العاصمة مكانها لجنة استشارية

ترتب على صدور المرسوم عرقلة المسيرة الطبيعية للتعليم العربي الحرّ العلمائي. وذلك بسبب غلق الكثير من المدارس. وتشريد تلامذتها. وسجن معلميها أو تغريمهم أو معاقبتهم بالسجن والغرامة معًا

يرأسها الكاتب العام ميشال Michel.

لقد كان لهذا التعيين أثر بالغ في نفوس العلماء الإصلاحيين وأنصارهم بصفة خاصة والشعب الجزائري بصفة عامة لما ينطوي عليه من استفزاز للمشاعر الدينية. هذه الإجراءات التي أقل ما يقال عنها: إنها ظالمة أثارت موجة من السخط والاستنكار في جميع الأوساط: فالأمين العمودي عبر عن سخط الجمعية بقوله: «الدخول إلى مساجدنا أصبح ممنوعًا على وعاظنا الأحرار، كما أن جمعياتنا الدينية أصبح يرأسها ويديرها مسيحيون» (٩)، وردة فعل فرحات عباس لم تكن أقل منها حدة إذ قال: «إذا أصبح مستحيلاً علينا اختيار زعمائنا الدينيين، لم يبق أمامنا إلا غلق المساجد» (١٠).

وفي ٢ مارس/آذار عام ١٩٣٣م، صدر قرار عن والي العاصمة يمنح رجال الدين الرسميين وحدهم حق احتكار الوعظ والإرشاد في المساجد. بعد المساجد نجد حملة المواجهة السياسية تطال صحف الجمعية إذ تم تعليق صدور أسبوعية السنة (١١). وعندما تقدم نائب مديرها احمد بوشمال بشكوى (١٢) إلى مجلس الدولة الفرنسي رفض هذا الأخير عريضة الشكوى بدعوى أن الحكومة تملك الحق في منع صحف جرائد بلغة أجنبية (١٣) على الأرض الفرنسية.

هذه الحرب المعلنة لم تزد الجمعية وأنصارها إلا إصرارًا وثباتًا على المطالبة بحقوقهم المتعلقة بالحريات الأساسية التي تكفلها جميع القوانين. وهو موقف عبر عنه بوضوح الإمام ابن باديس عام ١٩٣٧م، بقوله: «إن موقف الجمعية من الحكومة كان ولا يزال هو المطالبة والاحتجاج من جهة والصد والإعراض من جهة أخرى» (١٤).

موقف الإدارة الاستعمارية من اللغة العربية

لقد أدرك الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر بالضبط في سيدي فرج أن مهمته لن تكون سهلة: لأنه سيواجه شعبًا يحمل إرثًا حضاريًا، وله تاريخ حافل بالأمجاد والبطولات(١٥)، فليس من اليسير، والحال هذه،

ابتلاعه واقتلاعه إلا إذا تمكن من هدم مقوماته من دين ولغة وانتماء وبلبلة عقول أفراده بإدخال - كما يقول محمد الميلي - «الاضطراب على مجرى أفكارهم، وتحطيم أسس المعتقدات التي يؤمنون بها، والقضاء على التقاليد والمفاهيم التي بها يتشبثون»(١٦).

والفكرة نفسها يؤكدها الشيخ البشير الإبراهيمي في معرض حديثه عن دوافع حقد الاستعمار على اللغة والدين: «جاء الاستعمار الدنس إلى الجزائر يحمل السيف والصليب، ذلك للتمكن، وهذا للتمكين، فملك الأرض واستعبد الرقاب، وفرض الجزاء، وسخر العقول والأبدان. ولكنه لم يكتف بذلك، بل كان استعمارًا دينيًا مسيحيًا، عاريًا وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم، وانتهك حرماته من أول يوم، فابتز أمواله الموقوفة بالقهر، وتصرف في معابده بالتحويل والهدم، وتحكم في الباقي منها بالاحتكار والاستبداد، وتدخل في شعائره بالتضييق والتشريد، كل ذلك بروح مسيحية رومانية، تشع بالحقد، وتفور بالانتقام»(١٧).

إن أولى الخطوات في سبيل تحقيق ذلك تكون بالقضاء على اللغة العربية، وإحلال الفرنسية محلها لتكون لغة الجميع، وبها يعبرون عن مختلف أوجه نشاطهم الاجتماعي والحضاري في المجالات الاقتصادية، والدينية، والإدارية والثقافية. ومن هنا كانت نظرة الاستعمار إلى اللغة العربية نظرة عدائية، ومن ثمة صمم على محقها بالكامل بمختلف الوسائل. ويتأكد ذلك منذ عام ١٨٣٠م، إذ صدر مرسوم جاء فيه ما يأتي: «إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة ممتلكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هناك قومية. والعمل الجبار الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتدريج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن» (١٨).

وفي عام ١٨٤٩م، جاء في تقرير رسمي ما يأتي: «لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة: إن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة، وبهذه اللغة يجب أن تصدر - بأعظم ما يمكن من السرعة - جميع البلاغات الرسمية، وبها يجب أن تكتب جميع العقود. وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا، فإن أهم الأمور التي يجب أن يعتنى بها قبل كل شيء هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا وتمثيلهم بنا، وإدماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين» (١٩).


إغلاق المساجد كان من وسائل محاربة العربية


ظلت العربية حية في الجزائر متجاوزة كل محاولات تهميشها





وسارت السياسة الاستعمارية الفرنسية في هذا الاتجاه وذلك عن طريق:

- عزل اللغة العربية عن الحياة العامة في التعليم والإدارة وغيرها، كما ضيق على القائمين على تعليمها والتصدي لكل محاولة جادة لنشرها.

- محاولة جعل اللهجة البربرية بديلاً عن اللغة العربية إذ كتبت بحروف لاتينية، وصارت تدرس بصفة رسمية عام ١٩١٣م في معهد الدراسات الشرقية بباريس، وقام أندري باسي A.Basset بنشاط حثيث طوال إقامته بأقطار المغرب العربي لتحقيق هذا الغرض.

والاستعمار الفرنسي لا يقصد في الواقع من وراء اهتمامه المزعوم تطوير اللهجات البربرية وجعلها أداة لغوية، وإنما اتخذها كخطوة تكتيكية لعزل اللغة العربية، وهو ما يفسح المجال لإحلال اللغة الفرنسية محل الاثنين، كما عبر عن ذلك قوديفري دمونبين G.Domonbyne بصورة لا لبس فيها حينما يقول:«يجب أن تقوم اللغة الفرنسية لا البربرية مقام اللغة العربية كلغة مشتركة وكلغة للمدنية»(٢٠).

هذه النزعة المحمومة لاستئصال اللغة العربية من موطنها، ومن نفوس ذويها تم الإفصاح عنها قانونيًا، وذلك عام ١٩٣٨م بموجب مرسوم ٨ مارس الذي يعدّ اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر ومن ثمة يفرض على من يريد تدريسها الحصول على ترخيص من السلطات المختصة.

محاربة الاستعمار للغة العربية يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- جعل الفرنسية لغة التعليم في جميع مراحله، وجعل اللغة العربية لغة أجنبية اختيارية في المرحلة الثانوية والجامعية
- تقسيم اللغة العربية إلى ثلاث لغات يمكن إهمالها جميعها في العملية التعليمية (٢١):

أ. عربية عامية يستعملها عموم الناس ومن ثمة تفقد قيمتها كلغة تعليم.

ب . عربية فصحى لا تجيدها إلا القلة القليلة ومن ثمة فهي لغة ميته كاللاتينية.

ج . عربية حديثة وهي اللغة المصنفة رسميًا كلغة أجنبية كونها أداة للتواصل بين المغرب والمشرق، ومن ثمة تم إبعادها من مرحلة التعليم الابتدائي العام بنوعيه الأوربي والأنديجاني (٢٢).

- العربية لغة أجنبية يمنع تدريسها في التعليم العربي الحر إلا برخصة من السلطات المخولة قانونًا كما ينص على ذلك مرسوم ٨ مارس ١٩٣٨م.

لقد كان هدف السياسة الاستعمارية من وراء هذه المعاملة بينًا وهو أن «يتضاءل شأن اللغة العربية، وتهون مكانتها، ويسقط اعتبارها عنصرًا من عناصر الشخصية الجزائرية يعتز به الجزائريون، ويحرصون عليه» (٢٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن موقف السلطة الاستعمارية المعادي للغة العربية ظل ثابتًا إذ لم يبدأ تدريسها في المرحلة الابتدائية بصفة جدية ورسمية إلا عام ١٩٥٧م كمحاولة لترضية الرأي العام الجزائري من جهة وإعطاء القانون الأساسي (٢٤) للجزائر الصادر عام ١٩٤٧م، نوعا من المصداقية من جهة أخرى.

اللغة العربية حجر الزاوية في البرنامج الباديسي

احتلت اللغة العربية حيزًا كبيرًا من اهتمامات جمعية العلماء وذلك لكونها لغة الإصلاح، والنهضة وترجمان حال الأمة: فها هو ذا عبد الحميد ابن باديس يؤكد تلك المكانة: «لا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين (اللغة العربية)، لغة الدين لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة، إنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي من بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغرّ الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد، وما في القلب من أفكار، وما في النفس من آلام

وآمال. إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين وخدم العلم وخدم اللسان هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل على إحيائه منذ سنين، فليحقق الله أمانينا (٢٥).

ولا غرابة أن تأخذ الجمعية إذًا على عاتقها مهمة تعليم اللغة العربية ونشرها ومواجهة محاولات وأدها، لا لشيء سوى، كما يقول ابن باديس، :«لأن العربية هي لغة الدين الذي هو أساس حياتنا، ومنبع سعادتنا، ولأنها هي اللغة المهملة بين أبنائها المحرومة من ميزانية بلدها، المطاردة في عقر دارها، المغلقة مدارسها ...» (٢٦).

وحتى تعود للغة العربية مكانتها نجد أن مطالب الجمعية للمؤتمر الإسلامي عام ١٩٣٦م كانت تتضمن مطلبًا أوليًا وهو أن«تعتبر اللغة العربية لغة رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتكتب بها مع الفرنسية، وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية» (٢٧).

عمل الجمعية الدؤوب على تجسيد برنامجها على أرض الواقع غيَّر جذريًا الوضع الثقافي القائم: فقد تم إنشاء جيل من الشباب يؤمن إيمانًا قاطعًا بأن الإسلام دينه والعربية لغته والجزائر وطنه.

هذا النجاح، ألا يجعل من الجمعية «المؤسس الحقيقي للوطنية الجزائرية»؟ (٢٨). الواقع أن الفضل في المحافظة على الهوية العربية للجزائر وازدهار النهضة الثقافية بلسان عربي مبين يعود بالدرجة الأولى إلى جهود جمعية العلماء في ميدان التربية والتعليم، كما يؤكد ذلك الشيخ البشير الإبراهيمي حين يقول: «هذه الحركة العلمية الجليلة القائمة - بالقطر الجزائري - هي الأساس المتين للوطنية الحقيقية، وهي التوجيه الصحيح للأمة الجزائرية، فغايتها التي ترمي إليها هي تصحيح القواعد المعنوية من عقل، وروح، وفكر، وذهن، وتقوية المقومات الاجتماعية من دين، ولغة، وفضائل، وأخلاق، وتلك هي الأسس الثابتة التي بنيت عليها الوطنيات في الأمم، هذه حقيقة لا يماري فيها إلا مكابر، وهذه الحركة التعليمية لم يضع أصولها العلمية، ولم ينظم قوافلها، ولم يحم حماها من كل دساس ومن كل خناس، إلا جمعية العلماء، ولا يعلي بناها، ولا يرفع سمكها في المستقبل إلا جمعية العلماء» (٢٩).

فتور العلاقة بين جمعية العلماء والإدارة الاستعمارية

لقد كانت مساعي هذه الإدارة تهدف منذ سنوات الجمعية الأولى إلى محاربتها وإخفاق برنامجها الإصلاحي وإحباط مشروعاتها المختلفة، خصوصًا أن الإمام ابن باديس قد أوضح موقف الجمعية من الحكومة الفرنسية عام ١٩٣٧م بقوله: «إن موقف الجمعية من الحكومة الفرنسية كان ولا يزال هو المطالبة والاحتجاج من جهة والصد والإعراض من جهة أخرى»(٣٠). كانت وسائل محاربة الجمعية تتمثل إما في قوانين مصدرها فرنسا في ظروف مختلفة ولأسباب متعددة وإما قرارات إدارية فردية مصدرها الجزائر مبنية على إيعازات بوليسية توجهها الروح الاستعمارية، من ذلك نذكر:

- في عام ١٩٣٨م أصدر الوالي العام في الجزائر منشورًا إلى رؤساء الأقاليم في أراضي الجنوب (TDS) يقضي بتعقب كل معلم ينتسب إلى جمعية العلماء وسجنه حال وجوده بهذه المناطق، وقيامه بالدعاية لمصلحة جمعية العلماء.

- في ١٣يناير/ كانون الثاني عام ١٩٣٨م أصدر وزير الداخلية الفرنسي أمرًا يحظر بموجبه على النوادي الثقافية التي تعدّ إحدى الوسائل المهمة في نشر خريطة النفوذ العلمائي وتوسيعها، وذلك بمنعها من بيع المشروبات أو تقديمها مجانًا لروادها. والهدف الخفي من وراء هذا الأمر

تقنين أجنبية اللغة العربية يعدّ في الواقع قرارًا غريبًا وغير منطقي حتى لدى الكثيرين من الفرنسيين ولاسيما الأكاديميين، نذكر منهم على سبيل المثال جاك مادول

هو قطع أي اتصال بين الفريق العلمائي والشبيبة التي اعتادت التردد إلى هذه النوادي لما تجده فيها من المتعة والتثقيف.

- في سنة ١٩٣٥م أصدر مارشال رينييه Régnier وزير الداخلية الفرنسي قرارًا يقضي بتضييق الخناق على الجمعية بعد زيارة قام بها إلى الجزائر.

سياسة المجابهة بين الجمعية والإدارة الاستعمارية

لعل أخطر إجراء أقدمت عليه الإدارة الاستعمارية وهز مشاعر الجزائريين على اختلاف مشاربهم السياسية وميولهم الأيديولوجية هو ذلك القرار الصادر في ٨ مارس/آذار عام ١٩٣٨ (٣١) القاضي بعرقلة التعليم العربي الحرّ الذي تشرف عليه الجمعية بتمويل شعبي وجعل اللغة العربية لغة أجنبية في دارها وبين حماتها وأنصارها.

فبعد صدور هذا القرار حدثت ردة فعل استنكار واحتجاج على لسان المنتخبين، والهيئات، والعلماء العاملين، والصحافة ولا سيما العلمائية.

مرسوم ٨ مارس ١٩٣٨م

يرجع تاريخ الحرب على اللغة العربية في الواقع إلى سنوات الاحتلال الأولى، ولكن هذه الحرب ازدادت ضراوة بعد تأسيس جمعية العلماء، وبلغت ذروتها عام ١٩٣٨م، وهو أعسر عام في حوليات الجمعية وذلك لصدور ترسانة من

الفضل في المحافظة على الهوية العربية للجزائر وازدهار النهضة الثقافية بلسان عربي مبين يعود بالدرجة الأولى إلى جهود جمعية العلماء في ميدان التربية والتعليم

المراسيم والقرارات ذات الطابع القانوني التي تهدف في مجملها إلى إيقاف (فرملة) تلك السرعة المذهلة التي يسير بها قطار العمل الإصلاحي، وكان أخطر ما في هذه الترسانة هو ذلك القرار المشؤوم المعروف بمرسوم ٨ مارس/آذار، الذي أصدره وزير الداخلية الفرنسي شوطان Chautemps، وينص على اعتبار اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية لا يجوز تعليمها في مؤسسات التعليم سواء كانت حكومية أو حرة، كالمدارس العلمائية إلاّ على هذا الأساس، وبترخيص خاص من الإدارة الاستعمارية.

المرسوم يعدّ عملية تعليم اللغة العربية ونشرها بين أبناء الجزائر«محاولة عدائية لصبغ الجزائر بالصبغة العربية» (٣٢).

لقد كان مرسوم شوطان صدمة لأنه استهدف قطاعًا مهمًا يعدّ العمود الفقري لأنشطة الجمعية وهو قطاع التربية والتعليم. وخطورة هذا المرسوم جعلت الجمعية تصف يوم صدوره بأنه يوم حزن وحداد.

السلطات الاستعمارية سوغت قرارها هذا بكونه تطبيقًا عاديًا لمرسوم ٣٠ أكتوبر/تشرين الأول عام ١٩٨٦م وهو يتعلق بتنظيم التعليم الابتدائي في فرنسا. وهذا التسويغ يبدو وللوهلة الأولى واهيًا غير مقنع.

الحقيقة أن مرسوم ٨ مارس/ آذار كان يستهدف بصورة أساسية التعليم العربي الحرّ في المدارس الباديسية، وهنا يمكننا أن نتساءل عن سر استصدار السلطة الاستعمارية لمرسوم ٨ مارس/ آذار في هذه الفترة بالذات؟ الواقع أن جمعية العلماء كانت ضحية انتصاراتها ونجاحاتها التي تحققت في ظرف وجيز جدًا، خصوصًا حضورها المكثف على الساحة الوطنية، وتأثيرها غير المحدود في مختلف شرائح المجتمع الجزائري حتى في أوساط أولئك الذين اعتقد الاستعمار أن ولاءهم له أمر لا رجعة فيه. هذا التأثير الذي سيتولد عنه حتمًا حركة وعي شاملة بين الجزائريين، خاصة في أوساط الشريحة الشبانية، والذي سينعكس سلبًا على المخطط الاستعماري في الجزائر، بمعنى تسفيه أحلام أولئك

الذين راهنوا على نهاية الجزائر المسلمة.

هذا المد العلمائي الإصلاحي اثر بصورة واضحة في التيارين التقليدي والاندماجي ومن ثمة مهد لبروز تيار عربي إسلامي مضاد للمشروع الاستعماري، ولا سيما في وقت بدأت فيه أصوات مطالبة بضرورة خلق إمبراطورية فرنسية على غرار الإمبراطورية البريطانية، خاصة بعد صدور كتاب وزير المستعمرات ألبير ساروا الذي عنونه: تثمين المستعمرات La mise en valeur des colonies.

الإدارة الاستعمارية وتحت تأثير جماعات الضغط الكلونيالي في الجزائر وأنصارهم في فرنسا من جهة ونزولاً عند تحذيرات المستفيدين من الوجود الاستعماري من الجزائريين (علماء تقليديين، موظفين رسميين، اندماجيين...) من جهة أخرى، ضمت صوتها إلى كل تلك الأصوات التي بات يقلقها النشاط التعليمي الإصلاحي، ومن ثمة تبنت سياسة معادية للتعليم العربي الحر وأشخاصه؛ وذلك بإجهاد نفسها عن طريق إجراءات إدارية تحد من توسيع خريطة هذا التعليم المعادي والمنافس للمدرسة الفرنسية.

هل كان التعليم العلمائي حقًا كذلك؟ بالطبع لا، إذ إن هذا النوع من التعليم لم يكن مناهضًا ولا منافسًا للمدرسة الفرنسية، وإنما غاية ما في الأمر أنه وفر قدرًا من الدراسة لنسبة بسيطة من العدد الهائل من الأطفال الجزائريين الذين هم في سن الدراسة، ولم يستطع النظام المدرسي الفرنسي أن يوفر لهم مقعدًا بيداغوجيًا في المدرسة الأنديجانية.

وبهذا الصدد يجب ألا يغيب عن أذهاننا الدور الذي أداه المتخصصون في الشؤون الإسلامية في تضليل موقف الإدارة الفرنسية تجاه التعليم العربي الحرّ العلمائي، فقد كانوا يقدمون صورة مشوهة (٣٣) عن أهداف هذا التعليم ومراميه، التي تنتج، في رأيهم التطرف، ونبذ الأجنبي، والتحريض على الاضطراب السياسي والعصيان المدني، ونشر الأفكار المعادية لفرنسا والاستعمار الفرنسي.

رد فعل جمعية العلماء

صدور هذا المرسوم قابلته جمعية العلماء باحتجاج واسع النطاق لدرجة أن عدّوا يوم ٨ مارس يوم حزن وحداد: فقد رأى فيه العلماء أنه لا يستهدف اللغة العربية وحدها، وإنما يستهدف الإسلام أيضًا، وبعبارة أخرى يستهدف الركائز الأساسية للشخصية الجزائرية.

الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي يرى في يوم صدور هذا المرسوم: «اليوم الأكثر شؤمًا في تاريخ الإسلام بالجزائر» (٣٤)، يعبر عن سخطه على مضمونه بقوله: «بينما الأمة الجزائرية تنتظر من فرنسا منحها حق التصويت البرلماني مع بقائها على شخصيتها الإسلامية إذ أعداء الأمة الجزائرية وأعداء فرنسا أيضًا، يجمعون أمرهم، ويديرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة (الاحتلال) قرارًا وزاريًا بعقوبات صارمة على التعليم، ليهدموا هذه الشخصية الإسلامية من أصلها، وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها... علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده، وأخلاقه، وآدابه، وأحكامه، وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته فناصبوا تعليمها العداء، وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية (الكتاتيب) ومكاتب التعليم الديني العربي (المدارس)، والضن بالرخص، واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على القليل» (٣٥).

ولم يكتف ابن باديس بذلك بل نجده يقدم شكوى رسمية إلى رئيس وزراء فرنسا دلادييه Daladier عام ١٩٣٨م، بصفته رئيسًا للجمعية هذا نصها: «يا جانب الوزير إلى اليوم وفي هذه الظروف ما يزال التضييق متواليًا ومتزايدًا على التعليم الإسلامي، فالمساجد محجرة، وكثير من المدارس معطلة، وكثير من الكتاتيب القرآنية مغلقة، وكثير من المعلمين متابعون في المحاكم، ومئات الآلاف من أبنائنا مشردون في الشوارع، يمتثل الشيوخ للقانون فيطلبون رخص التعليم، ويقدمون جميع اللوازم فلا يسمع لهم صوت. بل كثيرًا ما نزعت الرخص من

أيدي أصحابها، كل هذا من آثار قانون ٨ مارس/ آذار المطبق على التعليم الإسلامي تطبيقًا جائرًا مغرضًا بمنع الرخص عن أهلها، وبنزعها عنهم، بينما التعليم الأجنبي - والأجنبي المعادي - يتمتع بكل حرية واحترام»(٣٦).

لقد توالت الشكاوى والاحتجاجات ضد هذا المرسوم الذي استغله الغلاة من حكام الولايات وجعلوه وسيلة لمحاربة التعليم العربي وتعطيله عن أداء وظيفته، من ذلك الخطاب المفتوح الذي وجهه رئيس الجمعية الشيخ البشير الإبراهيمي إلى رئيس الجمهورية بمناسبة زيارته للجزائر عام ١٩٤٩م جاء فيها: «والتعليم في هذا الوطن العربي (الجزائر) جريمة يعاقب مرتكبها بما يعاقب به المجرم من تغريم، وتغريب، وسجن، ومدارسه تعاني من التضييق، والتعطيل، ألوانًا متجددة، ورجاله عرضة في كل حين للمحاكمات في المحاكم الجمهورية التي تتسم بوسمكم، والمحاكمات على التعليم جارية على قدم وساق» (٣٧).

وقد شنت الصحافة الإصلاحية حملة عنيفة على قانون ٨ مارس/ آذار إذ رأت المرسوم «المشؤوم» مساسًا بالحرية الدينية، وإهانة خطيرة للمسلمين لا في الجزائر فحسب بل في العالم بأسره، وتحديًا غير مسبوق للدين الإسلامي الذي هو دين الغالبية العظمى لسكان الجزائر: فقد كتبت «البصائر» معلقة على سوء نية الإدارة الاستعمارية بقولها: «كان شعبنا في غفلة عن مستقبل أبنائه شاملة، فكانت الحكومة (الاحتلال) في تساهل مريح مع الكتاتيب القرآنية، وجاءت جمعية العلماء فشوقت الشعب إلى ترقية حالة تلك الكتاتيب، فأخذت جهات من الوطن الجزائري تنظم الكتاتيب، المعبر عندنا عنها بالمدارس، تعبيرًا نقره على سبيل التفاؤل، وهنا وجدنا من الحكومة معاملة أخرى، فأصبحت لا تسمح لنا إلا برخصة، ولا تمنح الرخصة لطالبها، ولو انتظر السنين» (٣٨).

النخبة المفرنسة، ممثلة في صحيفة «الوفاق» l'Entente، عدّت المرسوم مساسًا باللغة العربية والدين الإسلامي. كما يؤكد ذلك الدكتور بن جلول:«إرادة تحطيم اللغة العربية والقرآن تعني إعلان حرب على ديننا، تعني أيضًا المساس الصارخ المميت لتعهد رسمي (٣٩)، تعني أيضًا خيانة للمهمة التربوية والحضارية التي تعمل الديمقراطية الفرنسية على نشرها في أرجاء المعمورة» (٤٠).

وقد ساند عموم الشعب الجزائري الجمعية ضد هذه الهجمة الشرسة التي تقوم بها الإدارة الاستعمارية وأذنابها لاقتناعهم بأن نهضة الوطن يجب أن تبنى على الأسس السليمة التي لا تكون الأمة أمة من دونها. ونعني هنا الدين، واللغة، والوطن، والتاريخ، والثقافة. هذه الأسس لا يمكن صقلها إلا في المدرسة وفي المدرسة وحدها، أينما كانت، وكيفما كان هيكلها.

قناعة الجزائريين هذه تتأكد مصداقيتها فيما يقوله العلامة الشيخ الإبراهيمي: «المدرسة هي طريق الحياة، وطريق النجاة، وطريق السعادة، وأن الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا، ووديعة العرب في ذممنا، فمن بعض حقه علينا أن نحفظ دينه من الضياع، وأن نحفظ لسانه من الانحراف، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة التي تبنيها الأمة بمالها، وتحوطها برعايتها، وتجعلها حصونًا تقي أبناءها من الانحلال الديني، والانهيار الخلقي»(٤١).

وبغية تلطيف الجو من تلك الاحتجاجات التي لم يتوقعها الفرنسيون والتي تجاوزت الإصلاحيين وأنصارهم لتشمل مختلف التيارات الجزائرية، أصدر الحاكم العام للجزائر جورج لوبو Le Beau بيانًا جاء فيه: «هناك شائعات مغرضة تم نشرها حديثًا في بعض الأوساط الأهلية بخصوص مرسوم ٨ مارس/ آذار. إن مرسوم ٨ مارس/ آذار ليس له من هدف إلا الاعتراض على التعليم الديني الإسلامي في المستعمرة» (٤٢). ومن ثمة حذر السكان المسلمين من مغبة التعاطي مع مثل هذه الشائعات، على حد زعمه، التي تحور كلية حقيقة مقاصد السلطات العمومية بهذا الخصوص.

الصحافة الكلونيالية من جهتها حشرت أنفها بتحيز في هذه المواجهة بشنها حملة تسميم ضد التعليم العربي الحرّ



منظر عام من الجزائر

الذي تعدّه تعليمًا يحث على معاداة فرنسا والفرنسيين.

الجمعية ردت على مثل هذه الاتهامات جاعلة إياها غير مؤسسة وتحريضية إذ إن المسلمين ما يفعلونه لا يتجاوز كونه مطالبة بحقوقهم العادية بغية الحفاظ على خصوصيتهم الثقافية، ومن ثمة فلا يريدون من الإدارة الفرنسية إلا أن تعاملهم معاملة عادلة وإنسانية في ظل إطار المنظومة القانونية الفرنسية.

إن تقنين أجنبية اللغة العربية يعدّ في الواقع قرارًا غريبًا وغير منطقي حتى لدى الكثيرين من الفرنسيين ولاسيما الأكاديميين، نذكر منهم على سبيل المثال جاك مادول J.Madoul، الذي عبر في أثناء زيارته للجزائر ضمن وفد فرنسي عن دهشته لموقف الإدارة الاستعمارية المعادي لجهود جمعية العلماء بقوله: «أغرب شيء رأيته واستوجب دهشتي الشديدة هو أن اللغة العربية التي هي لغة الغالبية العظمى من سكان القطر الجزائري تعدّ لغة أجنبية، وهذا هو الأمر الذي جعل المسلمين من رجال جمعية العلماء ينظمون بجهودهم الخاصة، وعلى حسابهم، تعليم الأمة لغتها» (٤٣)، ثم يضيف قائلا: «ولقد كنا ننتظر من الإدارة أن تعترف على الأقل بفائدة هذا العمل وحسن جدواه، وأن تظهر نحوه شيئًا من العطف والمجاملة، لكن تأكد لدينا أن العمل على عكس ذلك، وأن هذه المدارس الحرة هي موضع رقابة صارمة ومعاملة شعارها سوء النية» (٤٤).

وقد استمر مفعول قانون ٨ مارس/آذار ساري المفعول حتى حل جمعية العلماء، كان الاحتلال فقط يغض الطرف



أحيانًا عن تطبيقه، ويلوح به في وجه القائمين على مصلحة التعليم في الجمعية أحيانًا أخرى حسب مقتضيات الظروف السياسية. وكانت الجمعية تقاوم القانون، كما كانت تقاوم غيره من الإجراءات التي وضعها الاحتلال بغية عرقلة نشر التعليم العربي الحر: لأنها تراها حربا ضد مقومات الأمة في الجزائر يجب عدم الخضوع لها، بل محاربتها بكل الوسائل السلمية الممكنة؛ لأنها وبكل بساطة بمنزلة إعلان حرب. كما يقول الإبراهيمي. «على ديننا ولغتنا، ولا نحتملها، ولو أدت إلى غلق جميع المدارس دفعة واحدة» (٤٥).

آثار مرسوم ٨ مارس/آذار في التعليم العربي الحر

لقد ترتب على صدور هذا المرسوم عرقلة المسيرة الطبيعية للتعليم العربي الحرّ العلمائي، وذلك بسبب غلق الكثير من المدارس، وتشريد تلامذتها، وسجن معلميها أو تغريمهم أو معاقبتهم بالسجن والغرامة معًا، فعلى سبيل المثال، وخلال العام الدراسي ١٩٤٨- ١٩٤٩م بلغ عدد قضايا محاكمات المعلمين التابعين لجمعية العلماء بتهمة ممارسة التعليم من دون رخصة ٢٧ حكمًا في جميعها بالتغريم، وفي ٣ منها بالتغريم والسجن، وفي واحدة بالسجن والتغريم(٤٦).

لقد أصبح معلمو الجمعية يواجهون صعوبات جمة في القيام بواجبهم التعليمي، إذ صار لزامًا على كل معلم قديم أو جديد عند مباشرة مهنة التعليم ضرورة الحصول على رخصة من الإدارة، وإلا أصبح تحت طائلة القانون.

وبعد أن أصبحت مسألة حرمان المعلمين من أداء دورهم، بسبب عدم منحهم الترخيص اللازم، سياسة ثابتة للإدارة عدّ هؤلاء المعلمون أنفسهم مجندين في معركة من أشرف المعارك، هدفها المحافظة على مقومات الأمة من الاندثار، ومن ثمة راحوا يباشرون مهمة التعليم سواء حصلوا على رخصة أم لم يحصلوا عليها.

أمام هذا الموقف المسؤول والواعي، راحت الإدارة الاستعمارية من ناحيتها تشن حملات اعتقالات على نطاق واسع ضد هؤلاء المعلمين المجاهدين، وتقديمهم إلى المحاكم بدعوى انتهاكهم للقوانين التي تحكم التعليم الحرّ أي: العمل من دون رخصة.

لقد واجهت الهيئة التعليمية بالجمعية ضغوط الإدارة بروح من التصدي والصمود تثير الإعجاب، حسب قول رئيس الجمعية الشيخ البشير الإبراهيمي: «بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم، ونحن نقدر أنها ستعم، وأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة والسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرفوعة، وسنتلقى هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي بإخواننا المجرمين في مجالس الأحكام، ومقاعد الاتهام، وحسبنا شرفًا أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا شرفًا أن تكون التهمة فتح مدرسة دينية أو قرآنية من دون رخصة» (٤٧).

ومما تجدر ملاحظته بهذا الصدد أن الإدارة الاستعمارية كانت تتحجج بأنها تغلق المدارس العربية لا بسبب عداء ضد فلسفتها التعليمية، وإنما فقط لكونها لا تتوفر على الشروط الصحية الضرورية؛ وذلك كله بغية المحافظة على سلامة روادها من التلاميذ.

فما مدى صحة هذا الزعم ؟ موقف إدارة الاحتلال من التعليم العربي العلمائي: مدارس وهيئة تدريس، ليس قانونيًا ولا إداريًا وإنما هو سياسي بدرجة أولى: فالمدرسة العلمائية لم تغلق في الواقع لكونها لم تستوف الشروط الصحية اللازمة أو وقوعها في أماكن غير ملائمة لتجمع التلاميذ ...إلخ، فكثير من المدارس استوفت الشروط التي يحددها القانون وزيادة ومع ذلك طالها قرار الغلق، وخير مثال على ذلك غلق مدرسة دار الحديث بتلمسان التي تعد تحفة المدارس العلمائية، وعليه فسبب الغلق لا يمكن تفسيره إلا على أساس أنه عداء متأصل ضد اللغة العربية.

وقد اعترف الفرنسيون بجسامة ما كانت تعانيه الجمعية بمؤسساتها وأشخاصها في سبيل إحباط المشروع

الاستعماري القاضي بتدمير مقومات الشخصية الجزائرية، كما يصرح بذلك وفد رسمي زار الجزائر قبل قيام الثورة بقليل إذ أعلن رئيسه قائلاً: «لقد خرجنا بحقيقة لا غبار عليها ألا وهي أن الدولة الفرنسية تعمل على قتل اللغة العربية، وعلى تحطيم الدين الإسلامي، وعلى تجهيل الأمة، والعلماء(جمعية العلماء) يعملون على خط مناقض للخط الحكومي، فهم يقومون بالجهود المحمودة لإحياء الإسلام، وتطهيره من الخرافات، ونشر اللغة العربية، ورفع الأمية عن الأمة غير مبالين بالعقوبات وسائر الزجر والتنكيل»(٤٨).

استنتاج

لما كان هدف جمعية العلماء يتمثل بدرجة أولى في المحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية، لذلك نجدها تلجأ (٤٩) إلى المدرسة بصفتها الآلية الأكثر نجاعة في التصدي للمشروع الاستعماري، ومن ثمة راحت توجه خط سير التعليم بها نحو اللغة والدين بصورة رئيسة؛ لأن التحدي الرئيس يبقى ضرورة الوقوف في وجه مشروع الاحتلال المتمثل في القضاء على هوية الشعب الجزائري عن طريق الحيلولة دون تعلم لغته ودينه.

ومن هنا يمكن القول: إن المخطط العلمائي في هذا الشأن قد حقق أهدافه في تحقيق مقوم مهم من مقومات الهوية والمتمثل في إحياء اللغة العربية ونشرها على نطاق واسع في طول البلاد وعرضها خاصة في الأوراس والقبائل. كما يؤكد ذلك العلامة الشيخ البشير الإبراهيمي حين يقول:«وقد سمع الناس أول مرة في الجزائر بعد ليل طويل من ظلام الاحتلال، وغربة اللغة العربية، والثقافة العربية، من بعض تلامذة معاهد التعليم العربي «الحر» شعرًا يؤدي معنى الشعر، وقرؤوا كتابة تؤدي معنى الكتابة، وشاهدوا خطباء يعبرون عن أفكارهم الحية بلغة عربية سليمة» (٥٠).

وعلى الرغم من شراسة الاستعمار استطاعت الجمعية أن تحدث في البلاد نهضة عربية إسلامية ووعيًا وطنيًا منقطع النظير كان أحد الروافد الأساسية في تغذية الشعور بضرورة تحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسي، بمعنى استعادة السيادة الوطنية، وهذا ما حدث فعلاً بعد نحو ربع قرن من اندلاع ثورة ٥٤ التحريرية التي أدى خريجو مدارس الجمعية دورًا حاسمًا في تفجيرها وفي ضمان استمراريتها ثم نجاحها وانتصارها.

المراجع والهوامش

١. الجندي، أنور، الموسوعة الإسلامية العربية٤، العالم الإسلامي والاستعمار السياسي والاجتماعي والثقافي. دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري. ط١، ١٩٧٩، ص٢٩٠.
٢. المرجع نفسه، ص.ص. ٢٩١ - ٢٩٢.
٣. نقلا عن تركي، رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، ش.و.ن.ت.- الجزائر ١٣٩٥/١٩٧٥، ص١٦٥.
٤. بو صفصاف، عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية ١٩٥١- ١٩٥٤، دار البعث - الجزائر ١٤٠١/١٩٨١م، ص٢٠٧.

5- Ageron(Ch.Robert) : Histoire de l'Algérie contemporaine de 1830 -1962, Paris, PUF 1964, p.342
6- Citation empruntée à Ageron,Ibid, p.343
7- Ibid.
8- Ibid.
9- Idem.
10- Ibid., p.344
11- Ibid.
12- Ibid.
13- Ibid.

١٤- صحيفة الشهاب،مجلد ١٣، جزء ٨،أكتوبر١٩٣٧،ص.ص٣٥٧ ـ ٣٥٨.
١٥- الفرنسيون يدركون تمام الإدراك أن هذا الشعب قد ساهم مساهمة كبيرة يوم أن كان يسيطر على البحر الأبيض المتوسط في تخليصهم من عقدهم تجاه الملك والإمبراطور الإسباني شارل كانت يوم هزيمته مع أرمادته العسكرية عام ١٥٤١م بقيادة حاكم الدولة الجزائرية في تلك الفترة الخليفة حسن باشا. وكان الفرنسيون أكثر فرحًا بذلك النصر، لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع نحيل القارئ إلى آجقو ،علي، المغرب الوسط من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة الأمة، محاضرات مطبوعة في تاريخ ومؤسسات الدولة الجزائرية، باتنيت ـ باتنة ٢٠٠٢م.
١٦- الميلي، محمد، الجزائر والمسألة الثقافية:التناقضات الثقافية (الجذور)، مجلة المستقبل العربي،عدد ٤٥، نوفمبر ١٩٨٢،ص٣٧.
١٧- الإبراهيمي، محمد البشير، عيون البصائر،شونت الجزائر ١٩٧١م، ص.ص٦٣.٦٤.
١٨- الحصري، خلدون ساطع، ما هي القومية؟ أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٥٩م، ص ٣٧. نقلا عن العرباوي محمد المختار: «أطروحات المدرسة التاريخية الاستعمارية حول شمال إفريقية»، مجلة المستقبل العربي، عدد ١٩٥، ١٩٩٥م، ص.ص ٩٩ ـ١٠٠.
١٩- رئيس، حسين، بعض جذور الإشكالية الثقافية حاليًا بالمغرب العربي، مجلة شؤون عربية، عدد٣٠، ١٩٨٣م، ص٧٣، ، نقلاً عن المرجع نفسه، ص١٠٠.
٢٠- الفاسي، علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، الرباط، ط٤، ١٩٨٠ ص١٤٢، ، نقلا عن المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
21- Merad (Ali) : (Regard sur l'enseignement des musulmans en Algerie 1880-1960), Revue Confluent, n.32-33, 1963, p.p. 640-641
22- au sujet de l'enseignement primaire des indigenes , voir Ajgou (Ali) :histoire des d'une institution :l'enseignement primaire des indigene en Algérie de 1892 a 1949, these de doctorat, soutenue devant l'universite de Provence, Centre Aix-Marseille-I, France 1990
٢٣- الحاجري، طه، جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر، القاهرة ١٩٦٨م، ص٩٧، نقلاً عن تركي، مرجع سابق، ص ١٣٥.
٢٤- لقد تقرر بناء على المادة ٥٧ من القانون تنظيم تعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية الحكومية الأنديجانية والأوربية. المادة المذكورة تحمل كثيرًا من التناقض: فمع إقرارها بإجبارية تعليم اللغة العربية تجعلها اختيارية بالنسبة إلى التلاميذ، بمعنى أن المدارس الحكومية تدخل اللغة العربية ضمن برامجها، لكنها لا تجبر التلاميذ على دراستها: فمن رغب درس، ومن رفض لن يجبر. من جهة أخرى تضمنت المادة تقسيم اللغة العربية إلى لغتين: عربية فصحى موجهة للأطفال الجزائريين وعربية عامية موجهة للأطفال الأوربيين.
٢٥- ابن باديس، عبد الحميد، كلمات حكيمة، صحيفة الشهاب، أبريل ١٩٣٥م، نقلاً عن ساجد، عبل، ابن باديس والوعي القومي العربي، مجلة المستقبل العربي، عدد ٢٦٤، ٢٠٠٠م، ص٦٥.
٢٦- نقلا عن المرجع نفسه.
٢٧- البصائر، عدد٥٤، ٢٥ ـ ١٠ ـ ١٩٤٨م.
٢٨- المرجع نفسه عدد ١٧٣، ١٥ ـ ١٠ ـ ١٩٥١م.
٢٩- نقلاً عن المرجع نفسه ، عدد ٢٧ ٢١ ـ ٠٥ ـ ١٩٥٤م.
٣٠- صحيفة الشهاب، ١٣، ج٨، ، ١٩٣٧م، ص.ص. ٣٥٧ ـ ٣٥٨، نقلاً عن بو صفصاف، مرجع سابق، ص٢٠٩.
٣١- لقد أوردت البصائر في العدد ١٧٧، ٤ ـ ٨ ـ ١٩٣٩م، ترجمة لقانون ٨ مارس/آذار.
٣٢- جونسون، كوليت وفرانسيس، الجزائر الثائرة، ترجمة علوي الشريف وآخرين، القاهرة ١٩٥٧م، ص١٣٠.
33- Sari (Ahmed) : L'Association des olumas musulmans algériens et l'administration française en Algérie de 1931à 1940, mémoire de DEA , université de Provence, France 1985, p.45.
34- Ageron, Op.Cit., p.34
٣٥- نقلاً عن تركي، مرجع سابق، ص ١٧٠.
٣٦- البصائر، عدد ١٦٥،١٠ ـ ٠٣ ـ ١٩٣٩م.
٣٧- انظر النص الكامل في عيون البصائر، مرجع سابق، ص٧٧. وما يليها.
٣٨- نقلاً عن تركي، مرجع سابق، ص١٦٩.
٣٩- المقصود هنا المادة ٥ من الاتفاقية الموقعة بين الداي حسين والكونت دبرمون De Bourment عام ١٨٣٠م التي نصت على ما يأتي: «تبقى ممارسة الديانة المحمدية حرّة، كما أنه لن يقع أي اعتداء على حرية السكان من جميع الطبقات، وعلى دينهم وتجارتهم وأملاكهم، ونساؤهم سيحترمن».
40- Le journal l'Entente, 30-6-1938, cite par Sari, Op.Cit., P.54
٤١- البصائر عدد ٥٤، ٢٥ ـ ١٠ ـ١٩٩٤م.
42- Sari,Op.Cit.
٤٣- نقلاً عن تركي، مرجع سابق، ص٢٣١.
٤٤- نقلاً عن المرجع نفسه.
٤٥- عيون البصائر، مرجع سابق، ص ٢٥٠.
٤٦- ساطع الحصري، حوليات الثقافة العربية، ١٩٥٠/٥١، ص٥٦٨، ، نقلاً عن تركي، مرجع سابق، ص١٤٧.
٤٧- البصائر، عدد ٦٤، ٢٤ ـ ١ ـ ١٩٤٨م.
٤٨- البصائر، عدد ٢٧٠، ٧ ـ ٥ ـ ١٩٥٤، نقلاً عن تركي، مرجع سابق، ص١٨٠.
49- Merad (Ali): Le reformisme musulman en Algerie de 1925 a 1940, Essai d'histoire religieuse et sociale, Paris, Mouton 1967
٥٠- الإبراهيمي، محمد البشير، سجل مؤتمر جمعية العلماء الثالث، قسنطينة ١٩٣٥م، ص٤١. نقلاً عن تركي، مرجع سابق، ص٢٢٧٣.



اكتشاف غير مسبوق حول رد

ــلة ابن بطوطة

عبدالهادي التازي

الرباط ـ المغرب

كان أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزَي الكلبي رابع أربعة من الذين كان وراء ظهور رحلة ابن بطوطة على الساحة المغربية أولاً، ثم الساحة الدولية ثانيًا بعد تشجيع الوزير الأول ابن أودرار، وبعد أمر العاهل المغربي السلطان أبي عنان.. وقد ولد بغرناطة عام ٧٢١م/ ١٣٢١هـ وأدركه أجله بفاس يوم ٢٩ شوال ١٣٥٧هـ عن عمرٍ لا يتجاوز ستًّا وثلاثين سنة.

وقد قُدر لهذا الرجل أن يجتمع بابن بطوطة في غرناطة وكان يصغُره عمرًا بنحو ثماني عشرة سنة، عندما زار الرحالة المغربي عاصمة بني نصر عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م (ج٤، ص ٣٧١)(١).

وتم ذلك في بستان الفقيه أبي القاسم محمد بن عاصم حيث انتظمت نزهةٌ جمعت عددًا من وجوه العاصمة الأندلسية، ووجدنا أن ابن جزي يعرب عن ارتياحه كشابٍّ للاستمتاع بالأخبار التي كان يرويها الرحالة الشيخ، ولم يتردد في الاعتراف بأنه قيد عن ابن بطوطة، في ذلك البستان، أسماء بعض الأعلام الذين لقيهم الرحالة في أثناء سفره، وأنه استفاد منه فوائد عجيبة.

وبهذه المناسبة سأل الشاب ابنُ جزي الرحالة عن مولده فأخبره بأنه ولد بطنجة يوم الإثنين (٢) ١٧ رجب ٧٠٣هـ / ٢٤ فبراير ١٣٠٤م..

كان ابنُ جزي على هذا العهد في خدمة أبي الحجاج يوسف بن الأحمر من بني نصر، ملك غرناطة الذي كان ألحق ابنَ جزي ببلاطه منذ سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م في أعقاب استشهاد والده في وقعة طريف في العام نفسه، حيث كان يطرَب لأدب الكاتب وفكاهته (٣).

وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه، كما يقولون، فقد حدث أن تعرض الكاتب ابنُ جزي لظلمٍ لحقه من ملكه أبي الحجاج في أعقاب وشايةٍ آثمة، ولم يتحمل ابنُ جزي إهانة الضرب بالسوط، فالتجأ إلى فاس «مستقر الغرباء ومأوى الخائفين» على حد تعبيره (ج٢، ص ١٣٨) وذلك في آخر عام ١٣٥٣م حيث وجد من أبي عنان ما كان يرجوه.

ويذكر أنه شرع ـ وهو بحضرة السلطان ـ في تأليفٍ حول تاريخ غرناطة، وأن لسان الدين بن الخطيب، تلميذ والده، وقف على بعض الكراريس منه سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م بمناسبة سفارته لدى السلطان أبي عنان ملك غرناطة (٤)...

وعندما قرر هذا السلطان استنساخ رحلة ابن بطوطة، وجعلها في متناول الناس ضاربًا عرض الحائط برأي بعض الحسدة والمنافسين، لم يجد في مجلسه أفضل من الكاتب ابن جزي صاحب الخط الرفيع، خط ابن مقلة، كما نعته لسان الدين، ولا سيما، أنه أي ابن جزي سبق له، على ما قلنا، أنه اقترب من ابن بطوطة، وتعرَّف إلى مذكراته عندما تم اللقاء في بستان غرناطة (٥).

وامتثل ابنُ جزي أمرّ سيده.. وهكذا كتب له، أي

لابن جزي أن يستمر ذكره عبر الأرجاء على الرغم من عمره القصير على ما أسلفنا.

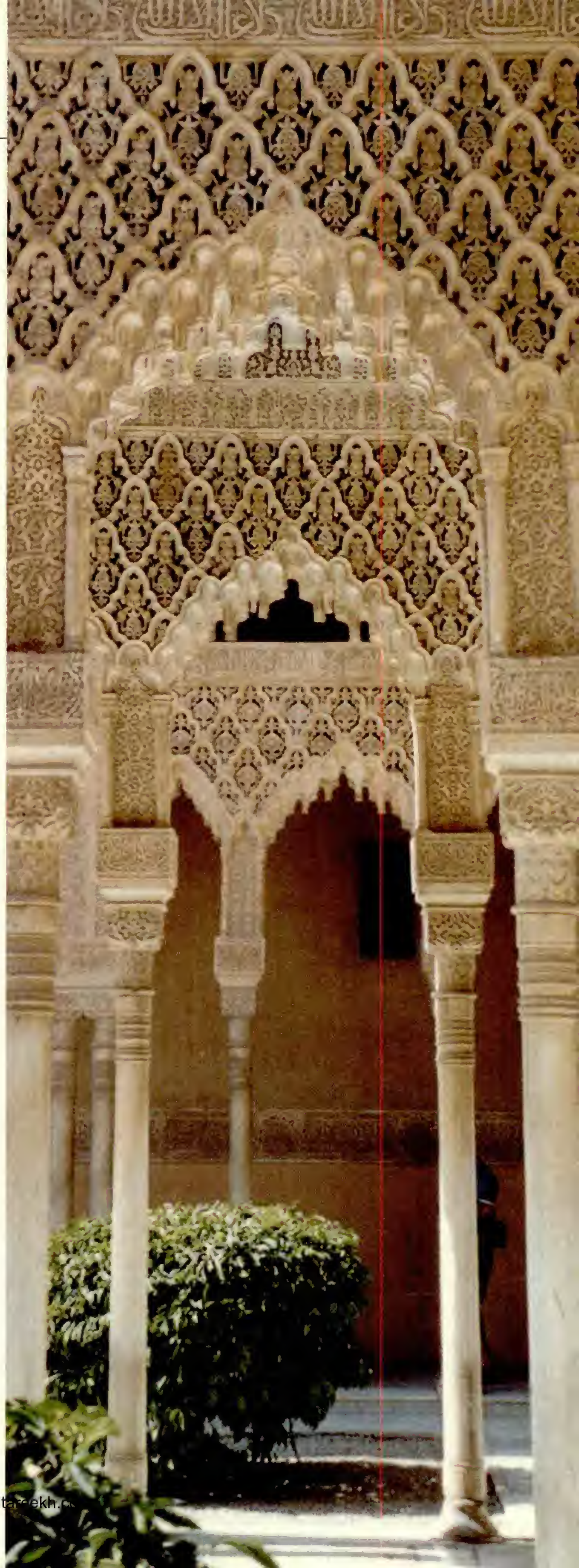
كان ابنُ جزي - على ما ذكره مترجموه - أديبًا رائعًا، ولذلك فقد كان خير من يختار لمهمةٍ مثل هذه على ما كان يحتف بها من مصاعب ومتاعب..

انتقادات

ونحن نعلم أن التأليف أيَّ تأليف إذا اشترك فيه اثنان، وتوزعت فيه المسؤولية بين حاك وكاتب أصبح تأليفًا يحتاج إلى الحيطة.. ولا سيما إذا كان التأليف لمثل هذه الرحلة التي قام بها شيخ جَال في أطراف المعمورة، وسجل تقييداتِه حولها شابٌ يعتمد على الحكاية والنقل ويصوغ التقاييد بأسلوبه، ولو أنه أسلوب جميل رفيع، لكنه تنقصه المشاهدة والمعايشة، علاوة على ما يثبت لنا مراجعة ابن بطوطة للعمل والتدقيق مع ابن جُزَي حول ما كتب، وهو ما لا أعتقد أنه حصل، فقد كان العمل أحاديًا، ولم يكن تعاقديًا، كما يقولون..

ومن هنا توالت بعض الانتقادات على ما روي عن الرحالة - ابتدأت من عصره، كما نعرف - ابن الخطيب الذي نقل عن شيخه أبي البركات البلفيقي ما لفَّقَه على ابن بطوطة.. وابن خلدون الذي سعى، على جلالة قدره، إلى الوزير ابن أُودرار لينقل إليه تناجي الناس بأكاذيب

خلق صنيع ابن جُزَي طائفةً من المشكلات للباحثين والمتعقبين الذين وجدوا، على ما أسلفنا، أن الأشخاص المذكورين من لدن ابن بطوطة عام ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م، لم يكونوا على أرض الواقع آنئذ! وإنما أتوا فيما بعد



ابن بطوطة، أملاً في إتلاف الرحلة!! (٦).

ابتدأ الانتقاد من ذلك العصر إلى أن ظهرت حركة المستشرقين الذين يرجع لهم الفضل أولاً في اكتشاف مخطوطات الرحلة، قبل أن ينتبه إليها علماء المشرق والمغرب، وهكذا اجتذبوا زمام الفكر من مشرق حائرٍ ومغربٍ منشغل بما كان يتهدده من أطماع أجنبية!

ثم إنهم أي المستشرقين أخذوا ثانيًا يبحثون في تمحيص تواريخ الرحلة ويومياتها: ما يمكن منها وما لا يمكن، وهل الرحالة عندما يتحدث عن حالة القيظ أو حالة القر كان يصادف فعلاً فصل الصيف وفصل الشتاء؟ وهلّ الرحالة عندما يذكر يوم الإثنين مثلاً كان يتحدث عن يوم إثنين أم أنه كان يتحدث عن يوم جمعة؟ وعندما يذكر الرحالة حاكمًا لبلد زاره، هل كان ذلك الحاكم فعلاً هو القائم بالأمر في ذلك البلد في ذلك التاريخ؟ وهل ركوب ابن بطوطة البحر تم أول مرة عندما أخذ المركب إلى بلاد فارس سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م، كما تزعم الرواية، (ج١، ص١٨)، أو إنما تمَّ سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م على ما يؤكده هو باللفظ الصريح الفصيح (ج٢، ص ١٥٨)، وهل الفترة التي ذكرها لزيارة بقعة معينة، بمشاهدها المذكورة، ورجالها المعدودين.. كانت بالفعل فترةً كافية لقضاء كل تلك الأغراض التي يذكرها؟ وهل كانت تصادف وجود أولئك الأشخاص الذين لقيهم هناك؟ مما يعود فيه أولئك

نعلم أن التأليف أيَّ تأليف إذا اشترك فيه اثنان، وتوزعت فيه المسؤولية بين حاك وكاتب أصبح تأليفًا يحتاج إلى الحيطة.. ولا سيما إذا كان التأليف لمثل هذه الرحلة التي قام بها شيخ جَال في أطراف المعمورة

الباحثون إلى المؤلفات المعاصرة لتلك الحقبة لاستجلاء الحقيقة؟ إلى آخر ما نحس به ونحن نتوفر اليوم على المصادر والمراجع!.

من أجل كل هذا خصصت في مقدمة تحقيقي للرحلة فصلاً بعنوان «الدراسات النقدية للرحلة»..

وقد كان مما جاء في آخر هذا الفصل، تعليقًا على «تلخيص التقييد» - كما يسمى ذلك ابنُ جُزي - هذه الكلمات: ذلك التقييد الذي جمعه ابن بطوطة قرابة ثلاثين سنة وقام ابن جُزي بتلخيصه في أقل من ثلاثة أشهر (٧)..! ومتى كانت هذه الفقرة كافيةً لتغطية تلك الأعوام الطوال، واستيعاب ذلك العدد الكبير من الأسماء الجغرافية والأعلام الشخصية التي مرت بذاكرة الرحالة، واستطاع اختزانها عبر تلك الأحقاب؟!

ظروف وصروف

يقوم أحدنا في العصر الحديث برحلته في أمدٍ معروف البداية والنهاية، ثم لا نذكر بعد مرور بضعة أسابيع أو أيام من رحلتنا، بعض الأسماء التي مرت بنا فنأخذ في الاستنجاد برفاقنا في الرحلة، لأفرق بين صغير وكبير، ولا ينبئك مثل خبير!!

أعتقد - كما أشرت - أن ابن جزي كان مستعجلاً أكثر مما ينبغي في أداء هذه المهمة الدقيقة، وربما كان - كما أعتقد أيضًا - منشغلاً بمشكل صحي قد يكون «قرحة في المعدة»، وهو ما عبر عنه مترجموه بقولهم: «مات مبطونًا»، وقد يكون سرطانًا أصابه في أعقاب الإهانة التي ظل يتذكرها وهو يجلد بالسياط من لدن ملكٍ كان إلى الأمس القريب يضحك في وجهه، ويعطف عليه ويستأنس به!!

كان مما ينسب إليه وهو في حالة مرضه ما رواه الوليد بن الأحمر:

إن يأخذ السَّقم من جسمي مآخذه

وأصبح القوم من أمري على خطر

فإن قلبي بحمد الله مرتبط
بالصبر والشكر، والتسليم للقدر
فالمرء في قبضة الأقدار، مصرفه
للبرء والسقم أو للنفع والضرر!!

ربما كانت تلك الظروف والصروف وراء تسرعه وبعثرته للمعلومات التي «أمليت» عليه أو «التقييدات» التي قدمت إليه.. بل وفي الاستغناء كليةً عن بعض «التقاييد»، ولا ندري ـ كما أسلفنا ـ هل كان ابن بطوطة يجلس إلى جانب ابن جزَي ليراجع هذا «التلخيص» بعد تحريره، ليعطي رأيه فيه؟ مهما يكن، فإن الظرف القصير الذي حُدد للقيام بالمهمة كان فيه إجحاف بالمشروع...

ولنُضِفْ إلى «انشغال» ابن جزَي بأمر صحته عنصرًا ثانيًا قرأناه في أثناء الرحلة، وهو الحسرة البالغة التي ظلت تجرح ابن بطوطة وهو يتحدث عن السطو الذي تعرض له في جزيرةٍ تقع في المحيط الهندي بين هُنَور Honavar وفاكنور Baccanore في ذي الحجة سنة ٧٤٥هـ أبريل عام١٣٤٥م (ج٤، ص ٢٠٦) حيث سلبه القراصنة جميع ما كان يملك من جواهر ويواقيت حتى الثياب و«الزوادات»، كما يقول!.

ومن المهم أن نذكر هنا أنه على الرغم من القيمة المادية الهائلة لما افتقده رحالتنا في هذه الحادثة المروعة التي استحق من أحد الرسّامين الأوروبيين المهرة في القرن الماضي أن يقوم بوضع لوحة لها معبرة (٨).. على الرغم من ذلك فإنه نسي كل تلك الثروات، وكل تلك التحف ولم يبق عالقًا بذاكرته إلا «التقييدات» التي كان يُودع فيها معلومات عن الشخصيات العلمية التي تعرَّف إليها وعن التصانيف التي ألفتها تلك الشخصيات...

والطريف في هذا الحادث الكارثي بالنسبة إلى ابن بطوطة أنه لم ينتظر التعبير عن شعوره بالمضاضة على ضياع تلك المذكرات حتى وصوله إلى الحديث عن تلك الجزر التي وقع فيها الحادث، ولكن، والمذكرات أمر ذو بال بالنسبة إليه، تعجل بذكر هذه المأساة للناسخ ابن جُزي عندما كان يتحدث عن علماء بخارى وهو لا يزال في طريقه إلى الهند (ج٣، ص ٢٨ ـ ٩٩ ـ ٤٤٨؛ ج٧، ص ٢٠٦).

موت جماعي

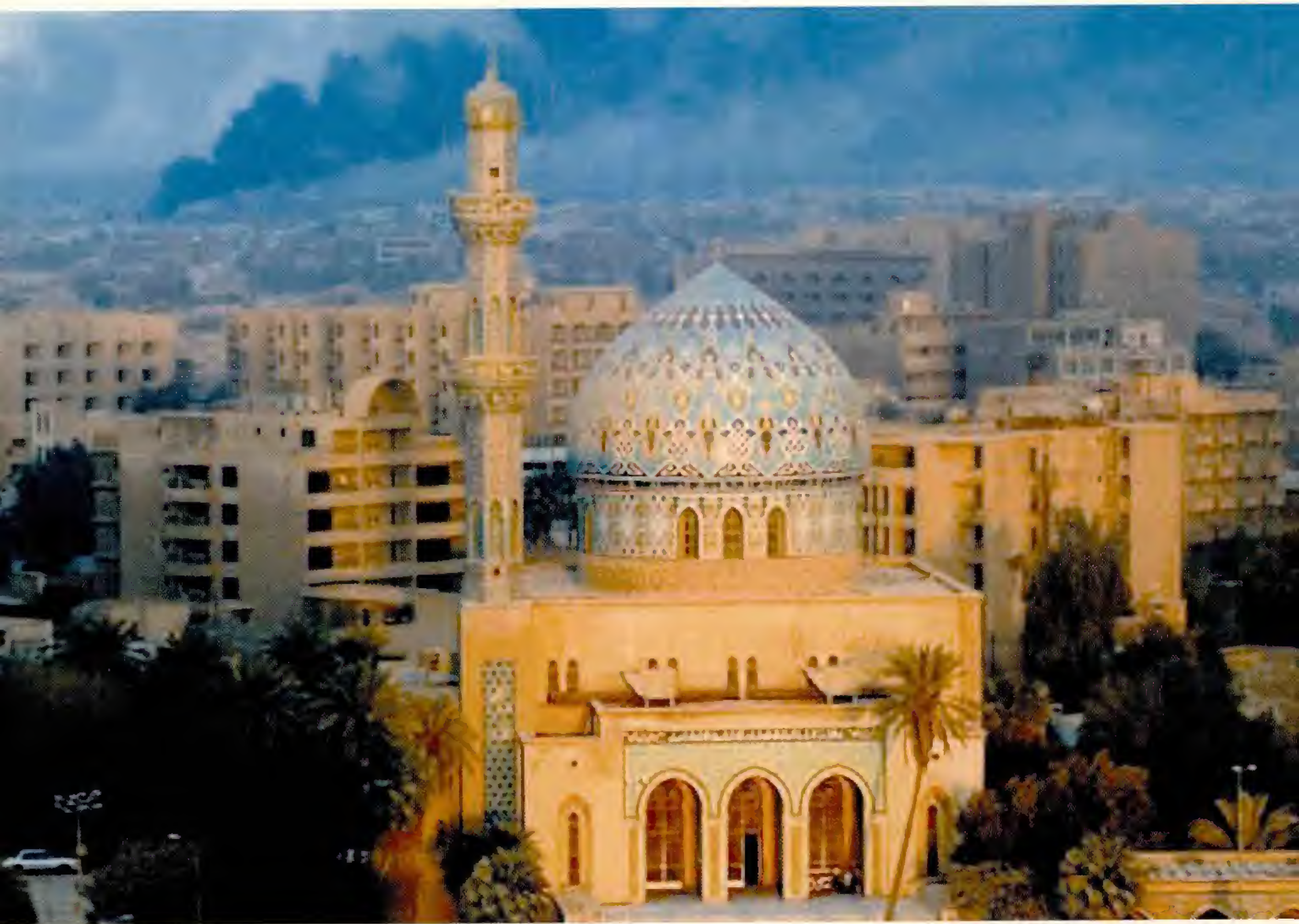
والمزعج لي في دراستي هذه، أنه لم يبق لدينا بعد كَتْبِ الرحلة في صفر سنة سبع وخمسين وسبع مئة للهجرة/ فبراير ١٣٥٦م (٩)، أقول لم يبق لنا بعد هذا، وبعد رحيل كلٍّ من يهمه أمر الرحلة، لم يبق بين ظهرانينا من نسأله!!. فابنُ جزي قتلته «الإهانة» التي كان يشعر بها، ولم تتجاوز به شوال سنة ٧٥٧هـ أكتوبر ١٣٥٦م، مات وهو يذكر السياط التي كانت تصب عليه ظلمًا وعدوانًا، كما قالوا (١٠).

والوزير ابن أُودرار الذي أسكت ابن خلدون فشجع ابن بطوطة على عمله، هو بدوره لقي مصرعه عندما هاجمته زبانية السلطان أبي عنان، فصفوه في أعقاب مؤامرةٍ يعلم الله وحده مدى صحتها.

والسلطان أبو عنان نفسه امتدت إليه أيادي وزيره حسن بن عمر الذي خنق سيدَه في ذي الحجة سنة ٧٥٩هـ / ديسمبر ١٣٥٨م!!.

ماتوا جميعًا هكذا تباعًا، الواحد بعد الآخر في فترةٍ

ابن جزي كان مستعجلاً أكثر مما ينبغي في أداء هذه المهمة الدقيقة، وربما كان منشغلاً بمشكل صحي قد يكون سرطانًا أصابه في أعقاب الإهانة التي ظل يتذكرها وهو يجلد بالسياط من لدن ملك كان إلى الأمس القريب يضحك في وجهه



زار ابن بطوطة النجف وتحدث عن روضتها وقبورها

واحدةٍ تقريبًا كما ترى، ولم يبق معنا إلا ابن بطوطة الذي كان في حكم الأموات أيضًا! لا نعرف عنه وعن أسرته أي شيء! هل تزوج؟ وهل أنجب أولادًا جُددًا؟ لقد كان المغرب يعيش فترة الفتن بعد تصفية الحسابات، وكلّ الناس أصبحوا يلوذون ببيوتهم..!

ولم يبق ممن نعرفه غير الخطيب ابن مرزوق الذي تمكن من الفرار بنفسه إلى مصر.. وعن طريقه وصلتنا - من مصر - آخر أخبار ابن بطوطة الطنجي..

فهو الذي بقي مصدرًا لنا حول الموضوع.. وهو الذي وقف الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢هـ - ١٤٤٨م) على تقييدٍ بخط ابن مرزوق يقول فيه بالحرف على ما يرويه ابن حجر في الدرر الكامنة:

«وقرأت بخط ابن مرزوق أن أبا عبدالله بن جُزَي نمَّقها أي الرحلة وحرَّرها بأمر السلطان أبي عنان، وكان البلفيقي رماه بالكذب فبرأه ابن مرزوق، وقال: إنه أي ابن بطوطة بقي إلى سنة سبعين، ومات وهو متولٍ

للقضاء في بعض البلاد، قال ابن مرزوق: ولا أعلم أحدًا جال البلاد كرحلته، وكان مع ذلك جوادًا محسنًا (١١).

وبالعودة إلى (نفاضة الجراب) للسان الدين بن الخطيب، نجد أن القصد ببعض البلاد إلى تامسنا وكانت عاصمتها هي (آنفًا)، الدار البيضاء الحالية (١٢).

قلنا إن الأربعة: ابن جزي، وابن أودرار، وأبا عنان، ومعهم ابن بطوطة قضوا جميعهم من غير أن يترك أحد لنا أثرًا ولا صدًى حول ظروف كَتْب الرحلة سوى ما قرأنا.

مات المُداوي، والمداوَى، والذي
صَنَع الدواء، وباعه، ومَن اشترى!!

بعد رحيل كلِّ من يهمه أمر الرحلة، لم يبق بين ظهرانينا من نسأله!!. فابنُ جزي قتلته "الإهانة" التي كان يشعر بها. والوزير ابن أُودرار لقي مصرعه عندما هاجمته زبانية السلطان أبي عنان، والسلطان أبو عنان نفسه امتدت إليه أيادي وزيره حسن بن عمر الذي خنق سيدَه

تساؤلات

وأمام المصير الذي ينتظرنا، نحن الباقين رأيت أن من واجبي أن أعلن عن هذا الاكتشاف غير المسبوق - على ما أعتقد - إضافة إلى ما سبق أن نبهت إليه في تعليقاتي على تحقيق الرحلة وخاصة في «المستدركات» (١٣).

هذا «الاكتشاف» الذي رأيت أنه لا يجوز السكوت عنه بحال من الأحوال، ولا سيما بعد أن فُرضت علينا تساؤلات ملحة حول ما جرى وكيف جرى، ولا سيما أيضًا بعد أن وقفنا وقوف عيْنٍ على ما يدعمه ويعززه من وثائق مخطوطة.

كلُّ الذين تتبعوا زيارة ابن بطوطة الأولى لسورية لاحظوا أنه - حسب حكايته - زار عددًا من المدن والجهات والمعالم والمشاهد، سواء خارج دمشق، بحلب مثلاً، أو داخلها، حيث جالس فيها عددًا من العلماء والعالمات كذلك، ونال إجازاتٍ مكتوبةً منهم ومنهن.. وقرأنا فيها أصداء عن «طاعون العصر» أكثر من هذا سنعرف أنه تزوج بدمشق من سيدةٍ تركها هناك حاملاً، وهي التي عَلِم، وهو بالهند، أنها ولدت ولدًا ذكرًا حيث بعث إلى جده للأم، وكان من مكناسة المغرب، بعث له أربعين دينارًا ذهبيًا هنديًا (ج٤، ص ٢١٥ - ٢١٦) (١٤).

وكلُّنا يعلم عن تلك الحركات.. ويعلم، إلى جانب هذا، من خلال تلخيص ابن جُزَي «لتقييد» ابن بطوطة، أنه أي ابن بطوطة إنما قضى بدمشق سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م سوى نحو من عشرين يومًا من شهر الصوم: فهل كانت هذه الأيام المعدودة كافيةً للقيام بكل تلك الحركات؟ دخل دمشق في تاسع رمضان وخرج منها في فاتح شوال...؟

إلى جانب هذا الإشكال فإن الذين كانوا يناقشونه في الحساب، لم يقبلوا إطلاقًا أن يزور كلُّ تلك المواقع التي تصل إلى نحو عشرين موقعًا قبل أن يصل إلى

اقتراحي.. أن نؤجل تحرك ابن بطوطة إلى بلاد فارس سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م، ونجعل عوض ذلك أنه عاد من البصرة إلى بغداد حيث قام، بعد وصفه لعاصمة العباسيين، بالرحلة إلى دمشق التي كان يسوّغها أكثر من سبب بالنسبة إليه

دمشق.. إنهم يقولون: إن زيارة ابن بطوطة لحلَب لم تتم إطلاقًا سنة ٧٢٦هـ، لأن الأمير أرْغون (١٥) الذي ذكره ابن بطوطة لم يتولَّ الحكم بحلب إلا سنة ٧٢٧هـ.

فهل لم يقم ابن بطوطة بزيارة ثانية لدمشق أتاحت له القيام بكل تلك الأنشطة علاوةً على ما كان يقتضيه حال الزواج؟ صحيح أنه زارها سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م وهو في طريق العودة إلى المغرب بعد غياب عشرين سنة، حيث بحث عن ابنه من زوجته التي تحدثنا عنها قبل قليل.. لكنه وجد أن جميع المشايخ الذين تعرف إليهم من ذي قبل، صاروا إلى عفو الله جميعًا باستثناء الشيخ السخاوي الذي لم يعرف ابن بطوطة إلا بعد أن قدَّم له نفسه وأمعن فيه النظر!! (ج٤، ص ٣١٦).

رسم متخيل لابن بطوطة



لقد صاحبنا جميعًا ابن بطوطة بعد قضائه الحجة الأولى وانفصاله عن مكة يوم عشرين من ذي الحجة سنة ٧٢٦هـ/ ١٧نوفمبر ١٣٢٦م.

صاحبناه محطةً محطةً، يومًا عن يوم وهو يسير صحبة أمير ركب عراق العرب الملقب: البهلوان (كلمة تعني البطل المغوار).

صاحبناه إلى أن وصل مدينة النجف الأشرف حيث تحدث عن روضتها وقبورها ونقيب الأشراف بها: نظام الدين حسين بن تاج الدين.

وهنا ـ في النجف ـ افترق ابن بطوطة مع الركب العراقي حيث أخذ هذا الركب بغداد بينما أخذ ابن بطوطة طريق البصرة (ج٢، ص١٦).

وهو في البصرة قريبٌ من المدينة التاريخية (الأُبلَّة)، على عشرة أميال، نراه يغتنم الفرصة ويزور الأُبلَّة (ج١، ص٤٠٤) على متن قارب صغير في بساتين متصلة ونخيل مظللة عن اليمين واليسار. والباعةُ في ظلال الأشجار يبيعون الخبز والسمك واللبن والفواكه على ما تحكيه الرحلة (ج٢، ص ٤٠٤).

هنا تفاجئنا رواية الرحلة، على «ما ينمقه ويحرره» ابن جزي، بأن ابن بطوطة كان يعتزم أن يلتحق بمدينة بغداد التي راح إليها الركب العراقي.. لكنّ بعض أهل البصرة، أشاروا عليه بالسفر إلى (عراق العجم): فارس، قبل أن يزور عراق العرب (بغداد)، فعمل بمقتضى إشارتهم، كما تقول رواية ابن جزي.

وهكذا، نقرأ أن ابن بطوطة ركب البحر (١٦)، هذا العام ٧٢٧هـ /١٣٢٧م (ج٢، ص١٨) وعبر إلى تُسْتَر في زمان الحر حيث أصابته حمى كما يعرض لزائر دمشق إذا زارها الإنسان زمن الحر (ج٢، ص٢٨)، ثم إلى إيذَج التي يؤكد أنه وصلها أيام القيظ، وهو ما ينكره المعلقون وخاصة عميد الاستشراق التشيكي إيفان هربك I. Hrbek (١٧).

وبعد هذا يدّعي الراوي أن ملك إيذج كان في عهد دخوله إليها هو (السلطان) أتابك أفْراسياب، وهو ما دعا المترجمين الناشرين الفرنسيين الأولين (D. S.) إلى اختراق الخط على الراوي، في أثناء ترجمتهما، ليطلبا إلى القراء: أن يقرؤوا: نُصْرت الدين شاه أحمد، عوض أفْراسياب الذي لم يصعد كرسي الحكم إلا عام ١٣٣٩م (١٨).

ثم إلى مدينة أصفهان. وهنا تقول الرواية: خلع قطب الدين حسين شيخ زاوية ابن سهل تلميذ الجنيد، على ابن بطوطة جبةً وقلنسوةً ظلتا محل اعتزاز ابن بطوطة (ج٢، ص ٤٩). وكان اليوم يصادف الرابع عشر لجمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وسبعمئة للهجرة/ ٧ مايو ١٣٢٧م. وهو ما سنراه يصطدم مع المعلومة المهمة التي وقفنا عليها بخط يد ابن بطوطة وهو في دمشق في هذا التاريخ بالضبط على ما سنرى، وما كان حديثًا يفترى (١٩).

ومن أصفهان قصد شيراز التي يقارنها بدمشق.. وبعد أن يحكي عن بعض مشاهدها ينتقل إلى كازرون والزَّيدين والحُويزاء (ج٢، ص٩٣) ثم حينئذ مدينة الحلة (٢٠) ثم إلى كربلاء حيث مشهد الحسين بن علي، ثم إلى بغداد التي يأخذ في وصفها (ج٢، ص١٠٠) مقتبسًا من ابن جبير الذي كان زارها قبل اجتياح المغول لها (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) على ما أشار إليه ابن بطوطة الذي أخبرنا بخراب المدارس (ج٢، ص١٠٥)، وأخبرنا كذلك بأنه لقي بها مسند العراق سراج الدين القزويني الذي أخذ عن الشيخة فاطمة بنت الملوك، وتم هذا اللقاء في شهر رجب سنة سبع وعشرين وسبعمئة للهجرة / يونيو ١٣٢٧م، وذلك في جامع الخلفاء (٢١).

وبعد هذا الحديث عن تاريخ بغداد وسلطان بغداد يعود الرحالة إلى ما كان بسبيله فيذكر - حسب الكاتب ابن جزي - أن نفسه تعلقت بالسفر مع محلة السلطان أبي سعيد بهادور إلى عراق العجم ليقف على «الترتيبات» التي تجري بمناسبة حركة السلطان (٢٢)، ولكن من غير أن يذكر تاريخًا للقيام بهذه الحركة ومن غير أن يذكر محطة من المراحل التي عودنا على ذكرها وكأنه أخذ طائرة على ما قلته في تعليقاتي!!!

وكلُّ ما عرفناه عن هذه الرحلة مع السلطان أبي سعيد أن ابن بطوطة اغتنم هذه الفرصة فتقدم، بمساعدة الأمير علاء الدين، إلى السلطان الذي سأله عن بلاده المغرب.. حيث أعلم الأميرُ علاء الدين السلطان أبا سعيد بعزم ابن بطوطة على الحج مرة أخرى فأمر له السلطان بالزاد والمركوب، وكتب إلى أمير بغداد، حيث نرى أنَّ ابن بطوطة يعود على التوِّ إلى بغداد ليستوفي ما أمر به السلطان، وقعد ينتظر موعد تحرك الركب العراقي إلى الحجاز..

وهنا يقول الرحالة: «وكان قد بقي لأوان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لي أن أسافر إلى الموصل وديار بكر لأشاهد تلك البلاد وأعود إلى بغداد عند سفر الركب.

ويذكر أنه خرج من بغداد.. حيث نراه - وهو مُولع بتقليد ابن جُبير واتباع خطواته، نراه يحذو حذوه مارًا بسامراء، وتكريت، إلى الموصل ومن الموصل إلى مدينة

تساؤلاتنا حول رحلة ابن بطوطة إلى جنوب فارس؟ ماذا عن أيام القيظ التي تحدثت عنها الرحلة وهي أيام قَرّ؟! وماذا عن الأتابك أفراسياب الذي تحدثت عنه الرحلة مع أنه لم يحكم البلاد إلا بعد عشرين سنة؟! وماذا عن الحديث عن الجبة والقلنسوة اللتين خلعتا على ابن بطوطة في أصفهان في تاريخ يصطدم مع تاريخ مكتوب بخط يد ابن بطوطة يثبت أنه كان في دمشق؟



المخطوطات تظهر الاهتمام الغربي برحلة ابن بطوطة

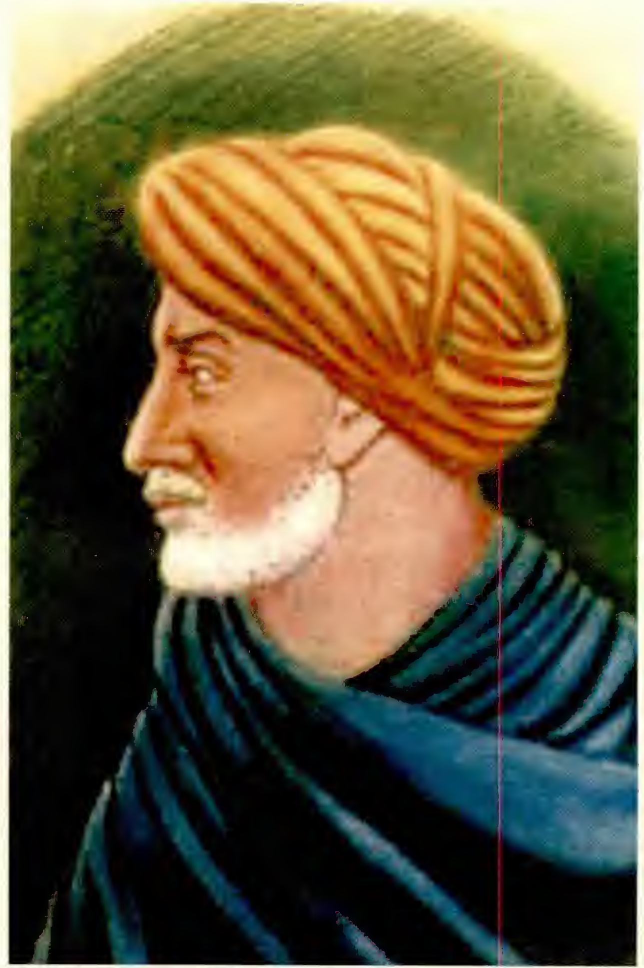
نصيبين، ثم مدينة سنجار.. ثم دارا ثم ماردين(٢٣).. قبل أن يفاجئنا بوجوده في بغداد حيث كان ركب الحاج العراقي على أهبة الرحيل.

وهنا نلاحظ أيضًا على نحو ما لاحظناه في رحلته إلى تبريز مع السلطان، أنه، أي ابن بطوطة لم يكن حريصًا على ذكر تاريخ للوصول إلى هذا الموقع أو ذاك مما كان مدعاة أيضًا لتساؤل الذين يتتبعون سير الرحلة زمانًا ومكانًا، حيث سنقف أيضًا مع شهادة أحد الباحثين من أبناء الموصل د. جَزيل الجومرد ممن كانوا يتطلعون إلى «جديد» ابن بطوطة عن الموصل(٢٤)..

وقد أحسن زميلنا الراحل العلامة خليل الله خليلي سفير أفغانستان في بغداد في كتابه (ابن بطوطة في أفغانستان) عندما استوقفته طفرة رحالتنا من مدينة بِسْطام في إيران إلى قندوز وبغلان في أفغانستان طاويًا يوميته مدة تفوق الشهر(٢٥).

ولنعد بعد هذا إلى تساؤلاتنا حول رحلة ابن بطوطة إلى جنوب فارس؟

ماذا عن أيام القيظ التي تحدثت عنها الرحلة وهي أيام قَرّ؟! وماذا عن الأتابك أفراسياب الذي تحدثت عنه الرحلة مع أنه لم يحكم البلاد إلا بعد


رسم متخيل لابن خلدون

عشرين سنة؟! وماذا عن الحديث عن الجبة والقلنسوة اللتين خلعتا على ابن بطوطة في أصفهان في تاريخ يصطدم مع تاريخ مكتوب بخط يد ابن بطوطة يثبت أنه كان في دمشق؟

ثم ماذا عن تاريخ أول ركوب له للبحر؟ هل كان عام ٧٢٧هـ أو عام ٧٣٠هـ؟ هذه الأسئلة التي حيرت الباحثين والمعلقين وحيرتنا معهم؟

متابعات وتقصيات

طوال بضع سنوات ظللت أعيش مع المتابعات ومع التقصيات إلى أن بلغ إلى علمي وجود خط الرحالة ابن بطوطة على ورقةٍ من تأليف يتعلق بالحديث النبوي موجود بمكتبة الأزهر (٢٦).. وكنت فعلاً أبحث عن خط ابن بطوطة لأقارن بينه وبين خط ابن جزي الذي وقع عليه الاختيار لنسخ الرحلة.

واغتنمت فرصة وجودي بالقاهرة لحضور أعمال مجمع اللغة العربية يوم ٣٠مارس٢٠٠٢م، حيث حصلت على المخطوطة المتعلقة بالحديث النبوي. وكانت لأبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري القرطبي دفين الإسكندرية سنة ٦٥٦هـ/١٣٥٨م، وهي بعنوان «الكتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم»، وهو يحتوي على وثيقتين اثنتين كُتبتا بذات يد الرحالة ابن بطوطة، أولاهما بآخر المجلد الثاني، وثانيتهما بآخر المجلد الثالث والأخير.. وهما معًا تثبتان ـ كما أشرنا ـ أنه كان مقيمًا بدمشق على الأقل في شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، وجمادى الآخرة من سنة سبع وعشرين وسبعمئة.

هذه المخطوطة كتبها ـ كما قلنا ـ الرحالة المغربي ابن بطوطة الطنجي بخطه. ويتأكد لي أنه كانت هناك وثيقة ثالثة في آخر المجلد الأول لكنها ضاعت معه! .. وهكذا وقفتُ على أواخر المجلد الثاني من المخطوطة، وعلى معظم المجلد الثالث وخاصةً على آخر المجلد.. وهما مما نسخه ابن بطوطة تحت سماء دمشق وفي إحدى مدارسها العلمية، (المدرسة العزيزية) ولفائدة الشيخ السخاوي (٢٧) الذي كانت تربطه بابن بطوطة علاقات متميزة على ما ذكره هو في الرحلة (ج١، ص ٢٤١).

يحمل آخر المجلد الثاني من المخطوطة الحديثية المشهورة تاريخ أول شهر جمادى الأولى (٢٦مارس ١٣٢٧م)، ويحمل الثالث تاريخ ١٨جمادى الآخرة من عام سبعة وعشرين وسبعمئة ٧٢٧هـ/ ١١مايو ١٣٢٧م.

وقبل أن أورد نص الوثيقتين أذكّر بأن هذا الرحالة أخبرنا في رحلته (ج١، ص٢٢٢) بأنه وقف في كتاب:



سورية من أهم محطات ابن بطوطة

(المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم) للإمام القرطبي على معلومة تتعلق بأُوَيس القَرَني وهو ما يؤكد الصلة بين ابن بطوطة والمخطوطة موضوع الحديث. وهذا هو النص الموجود في الرحلة:»...

ووجدت في كتاب «المفهم في شرح صحيح مسلم» للقرطبي أن جماعةً من الصحابة صحبهم أُوَيس القَرَني من المدينة إلى الشام فتوفي في أثناء الطريق في برية لا عمارة ولا ماء، فتحيروا في أمره، فنزلوا فوجدوا حنوطاً وكفناً وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه، ثم ركبوا، فقال بعضهم: كيف نترك قبره بغير علامة؟ فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر من أثر..! (ج٢، ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣) (٢٨).

فلنعد بعد هذه المعلومة إلى الوثيقتين المكتوبتين بخط ابن بطوطة الطنجي، لقد وردت الوثيقة الأولى في آخر المجلدة الثانية، ووردت الثانية بتفصيل أكثر في آخر المجلدة الثانية...

وهذا نص الوثيقة الأولى:

أنجزت المجلدة الثانية من الكتاب «المُفهم لشرح تلخيص كتاب مسلم» بحمد الله وحسن عونه وتأييده ونصره، يتلوه في أول المجلدة إن شاء الله كتاب

اللباس، وكان الفراغ منه في يوم الجمعة ثاني جمادى الأولى من عام سبعة وعشرين وسبعمئة (٢٩) على يد الفقير إلى رحمة مولاه، الراجي عفوه وغفرانه محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم الطنجي، وفقه الله ولطف به بمنه، وكرمه، وجبر حاله، وأوصله أهله، وجمع شمله على أفضل حال عن قريب، إنه سميع مجيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وأزواجه وذريته وسلم تسليمًا.

الورقة ٩٣ من مخطوطة الأزهر«المفهم» التي كتبها الرحالة الطنجي ابن بطوطة بخط يده عام ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م.

وهذا نص الوثيقة الثانية:

أنجزت المجلدة الثالثة من الكتاب: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»، وبتمامها تم جميع الديوان، والله المستعان، وذلك يوم الإثنين الثامن عشر من جمادى الآخرة من عام سبعة وعشرين وسبعمئة (٣٠)، وذلك بمدرسة العزيزية من مدينة دمشق المحروسة، والحمد لله الذي هدانا للإسلام، ووفقنا لكتابة سنة نبيه وحبيبه وخليله سيد الأنام، والله المسؤول أن يخلص أعمالنا ونياتنا وضمائرنا لوجهه الكريم، وأن يبقي علينا أسماعنا وأبصارنا وقوتنا في سبيله، وأن يعطف علينا وعلى والدينا ومشايخنا وأحيائنا وأمواتنا، وجميع المسلمين برحمته ورضوانه ورأفته، وأن يجعلنا ممن ينظر إلى وجهه الكريم في جنته. آمين يارب العالمين. كتبه العبد الفقير إلى عفو ربه، المستغفر من زلته وذنبه: الراجي رحمة ربه، محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة الجراوي الطنجي (٣١) وهو بحال غربة عن بلاده، جمع الله أموره وأحواله، حامدًا لله تعالى، ومصليًا على رسوله صلى الله عليه وسلم تسليمًا.

نسخه لمالكه الشيخ الفقيه الأجل، المدرس الأوحد، الأسني الأسعد، الأتقى الأصعد، الأشهر الأمجد، الأظهر الأوحد، المحقق الورع المتقن الصالح القاضي العدل الرضي الأرضي، نور الإسلام. سيد القضاة والحكام أبي الحسن علي السخاوي المالكي، أبقى الله عزته، ومكن رفعته، وأطال إسعاده، وبلغه في الدنيا والآخرة مراده، آمين يارب العالمين. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا رب سواه، ولا خير إلا خيره.

الصفحة ٣٣٦ من مخطوطة (المفهم) التي كتبها الرحالة المغربي ابن بطوطة الطنجي بخط يده في دمشق عام٧٢٧هـ/١٣٢٧م.

فكيف يفسر لنا ابن جُزَي بعد هذا إهمالَه لذكر وجود ابن بطوطة في دمشق هذه السنة٧٢٧هـ - ١٣٢٧م، وصنيعَه في أن ينقلنا إلى رحلة لجنوب بلاد فارس ...

هاتان وثيقتان خطّتهما يد الرحالة نفسه، شهادتان معروفتان بالمكان، محدودتان بالزمان كما رأينا. علاوةً على وثيقة ثالثة كانت بآخر المجلدة الأولى التي لم نعثر عليها.

لقـد خلق صنيع ابن جُـزَي طائفـةً من المشكلات للباحثين والمتعقبين الذين وجدوا، على ما أسلفنا، أن الأشخاص المذكورين من لدن ابن بطوطة عام ٧٢٧هـ - ١٣٢٧م، لم يكونوا على أرض الواقع آنئذ! وإنما أتوا فيما بعد !! مشكلاتهم وهم يشعرون أن شكوى ابن بطوطة من حالة القيظ لم يكن لها ما يسوّغها لأن الفصل كان فصلَ قر وبرد !!.

مشكلات الناشرَين الأولين للرحلة منذ عام ١٨٥٣م، عندما كانا مضطرين لكي يخترقا ترجمة النص ويطلبا إلى القارئ أن يصحح الخطأ ويقرأ (نُصَرَت) عوض (أَفْرَاسَيَاب) على ما أسلفنا ...

مشكلات الباحثين، وفي صدرهم (هرْبك)، الذي وجد أن حديث الرحلة عن الصحراء التي قطعها ابن بطوطة في المنطقة حديث يحتاج إلى تفسير لأنها، أي الرحلة، كانت على أرضٍ تزدان بالمروج !!

لقد وجدنا أنفسنا أمام حديث ابن بطوطة عن ركوبه البحر أول مرة سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م وليس سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م، وهكذا ازددنا اقتناعًا بأن رحلته لفارس كانت من تأليف ابن جزي، رحمه الله !!.

لقد اقتنعت، ولا سيما بعد وقوفي على المخطوطة التي كتبها بيده بدمشق سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م، بأن الوقائع التي جرى ذكرها إنما عرفتها سنة لاحقة أتت بعد عشرين عامًا (٣٢)..!

لقد كنت من الذين نشروا منذ عشرين عامًا ١٩٨٤م، أن ابن بطوطة زار (عِراق العجم) خمس مرات، وعددت منها هذه الزيارة سنة ٧٢٧هـ، موضوع الحديث (٣٣). لكني بعد أنْ وقفْتُ على مخطوطة (المفهم) بخط يده في دمشق، اقتنعتُ بأن صنيع ابن جُزَي كانت تطبعه العجلة وعدم التثبت !.

وهكذا سنستطيع تبديد الشكوك التي كانت تحوم حول مصداقية بعضِ معلومات الرحلة وخاصة ما أثير عن رحلته الأولى إلى دمشق، ورحلته إلى جنوب فارس.. ولقد حاولتُ أن أتصور مع نفسي ظروف تلخيص الرحلة على الشكل الآتي:

بعد أن صدر أمر السلطان أبي عنان، وبعد أن أملى الشيخ ابن بطوطة ما أملى من مذكراته، قام بتسليم «تقاييده» إلى الكاتب ابن جُزَي .. وكان في «التقاييد» ما يتعلق ببلاد الحجاز وفيها ما يتعلق ببلاد الشام، ومنها ما يتعلق بالهند، إلخ .. فأخذ ابن جُزَي يجمع معلومات مكة على حدة من غير بحث في ترتيب تواريخ الزيارات السبْع، ومن ثمت وجدنا أنه يذكر في الحجة الأولى ما رآه أو سمعه في الحجات اللاحقة !!.

وكذا كان في بلاد الشام، جَمَع الكاتبُ ابن جُزَي كل ما يتعلق بالشام ودمشق دفعةً واحدة، ولو أنَّ بعض ذلك وقع فيما بعد .. وهكذا اختلطت بعضُ الملفات على ابن جُزَي، وأخذ بآخرها عوض أولها ...

اقتراحي أخيرًا .. أن نؤجل تحرك ابن بطوطة إلى بلاد فارس سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م، ونجعل عوض ذلك أنه عاد من البصرة إلى بغداد حيث قام، بعد وصفه لعاصمة العباسيين بالرحلة إلى دمشق التي كان يسوّغها أكثر من سبب بالنسبة إليه...

أولاً: لما علمناه من أن ابن بطوطة له زوجة بدمشق ستأتي له بولدٍ كان يبعث له بمساعدات مالية من الهند على ما يقوله الرحالة نفسه (ج٣، ص ٣١٦)...

ثانياً: لما علمناه من نشاطه العريضِ الطويل في دمشق، حيث أخذ على الشيوخ والشيخات وحصل على الإجازات المكتوبة ...

ثالثًا: وهذا بيتُ القصيد أنه حرر بذات يده - ومن دون شك أو ريب - مخطوطةً عظيمةً ألفها رجل عظيم، ورغب في نسخها رجل عظيم، في مكان معروف ووقت محدود ... وهي لا تزال، لحسن الحظ، حيةً داخل رفوف الأزهر الشريف بالقاهرة المُعِزّية!.

وحتى يقوم ابن بطوطة بالزيارة الثانية إلى دمشق .. وحتى يرضي رغبته في أن يظل مقتديًا بسلفه ابن جبير في خطواته السابقة، سواء عندما كان يريد أن يقلده في عبوره لجدة عن طريق البحر الأحمر، أو عندما كان يعتمد على وصفه المشاهد والأماكن ... حتى يبقى مقتديًا بابن جبير سلك الطريق نفسها التي سلكها سلفه بالأمس للوصول إلى دمشق، وهكذا أفْترضُ أنه أخذ الطريق عبر الموصل ... إلى ماردين ... إلى حلب ... إلى المعرَّة .. إلى حَماة إلى حمص .. إلى دمشق قبل أن نسمع به في بغداد يأخذ طريقه مع الركب العراقي للمرة الثانية إلى حج بيت الله.

لقد كانت مآخذي على الكاتب ابن جُزَي ـ رحمه الله ـ تقف عند عدم بذل جَـهده في أن يتجنب استطرادات الشيخ، ويضم ما يتعلق بالهند إلى الحديث عن الهند (ج١، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٦)، ويذكر ما يتعلق بسيلان في سيلان (ج٢، ص ٨٠)، كان مآخذي على ابن جُزَي في أنه كان مختصرًا، بل مستعجلاً أكثر من اللازم، فقد نسي الحديث عن الأمير هَرَيْب الذي وعدنا بذكره (ج٤، ص ٦٨).

لقد كان مأخذي عليه أن نقل عن رحلة العبدري الحيحي بالحرف، ولكنه لم يذكره...!

لكن المأخذ الكبير والخطير تجلَّى لي عندما وجدنا أن رحلةً بكاملها لجهة معروفة مهمة بالنسبة إلى الرحالة، تحذف لتعوضها رحلة أخرى إلى جهة لم يصدقْها الواقع...

ومع كل ذلك فإن عمل الكاتب ابن جُزي سيظل شاخصًا أمامنا، وسيظل جَهد الرجل على الرغم من ظروفه الشخصية جَهدًا شامخًا يذكر على الدوام.. ولعل ما أشرنا إليه في بداية الحديث من الازدواجية في التأليف: مؤلِّفين اثنين يختلفان عمرًا وتكوينًا وتجربة وممارسة... هو الذي كان وراء الخلل الذي ظهر في بعض الرحلة ... ومع كل ذلك، فقد حفظ ابن جُزَي عمل ابن بطوطة تراثًا إنسانيًا محميًا من كل زيف منذ الأيام التي سجل فيها بمدينة فاس إلى يومنا هذا، وتلك مزية كبيرة لرحلة واسعة الأرجاء فسيحة الفضاء متنوعة العطاء لا يوجد لها على وجه الأرض نظير ولا مثيل.

المراجع والهوامش

١- تنبيه للقارئ:
يلاحظ أن الأرقام المثبتة في التعليقات التي تشير إلى مجلدات الرحلة وصفحاتها هذه الأرقام تنطبق تمامًا مع ما في الطبعات الدولية لترجمة الرحلة بمختلف اللغات، سواء منها الترجمات الكاملة أو الجزئية، ابتداءً من ترجمتها وطبعتها عام ١٨٥٣م من قبل الناشرين الفرنسيين ديفر يميري، وسانكينيتي، وانتهاء بنشرها باللغات الأخرى...

٢- كان اليوم يوم الإثنين بالفعل ويوافق ٢٤ فبراير ١٣٠٤م حسب جداول كاطنوز Catenoz، الرباط ١٩٥٤م.

٣- ابن الخطيب: الإحاطة، تحقيق عبدالله عنان ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ج٢. المقري: أزهار الرياض. ج٢. ص ١٩٥، طبع المملكة المغربية ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م. ابن الحاج النميري: فيض العباب. تحقيق: د. محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٠م. د.التازي: اكتشاف موقع الزاوية المتوكلية بظاهر مدينة فاس. بحث قدم لأكاديمية المملكة المغربية يوم الخميس ٢٨ شعبان ١٤١٩هـ/ ١٧ ديسمبر ١٩٩٨م.

٤- د. التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، من أقدم العصور إلى اليوم، مطبعة فضالة ـ المحمدية ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص ١٣٩، ج٧، ص ٩٦، رقم الإيداع القانوني ١٩٨٦/٢٥.

٥- رحلة ابن بطوطة: تحقيق د. عبدالهادي التازي، نشر أكاديمية المملكة المغربية، عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. رقم الإيداع القانوني ٣٢١ /١٩٩٧م.

٦- مقدمة ابن خلدون: طبعة دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٥٦م ص ٣٢٥ ـ ٣٢٧. رحلة ابن بطوطة: تحقيق د. التازي، ج٤، ص٢٨٥. مصدر سابق.

٧- أكمل ابن بطوطة رحلته إلى السودان أواخر سنة ٧٥٣هـ. وتذكر خاتمة الرحلة أن الفراغ من «التقييد» كان في ذي الحجة سنة ٧٥٦هـ. بينما كان الفراغ من كتبها في صفر سنة ٧٥٧ هـ/ فبراير، ومعنى هذا أن الفرق بين زمن التقييد وزمن الكتابة كان أقل من ثلاثة أشهر..!

٨- القصد إلى الرسام ليون بينيت L. Benett الذي أتينا على لوحته في المجلد الرابع من الرحلة (ج٤، ص٢٠٨).
٩- رحلة ابن بطوطة، ج٤، ص٤٥١ تعليق ١٥١.
١٠- رحلة ابن بطوطة، ج١، المقدمة ص ٧٩، ج١، ص٧٨.
11-The Travgels of Ibn Battutah, Abridged, Introduced and amotated by Tim Mackentosh _ Smith, B/Cado, London.
١٢- نفاضة الجراب: تأليف لسان الدين بن الخطيب، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، القاهرة، دون تاريخ.
١٣- هذا كتيب صدر لي، من طبع وتوزيع وزارة الثقافة عام ٢٠٠٤م، وهو يتضمن (مستدركاتي) على تحقيقي لرحلة ابن بطوطة التي طبعتها أكاديمية المملكة المغربية سنة١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
١٤- يبدو أن لهذا السيد المكناسي صلةً بالشيخ عبدالواحد المكناسي المشيشي الذي ينسب إليه جامع «من أقدم جوامع طرابلس الشام، بعد الجامع المنصوري الكبير، لأن بناءه تم سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٦ - ١٣٠٧م أي في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون الثانية... ومما يذكر أن الشيخ عبدالواحد التقى به الرحالة المغربي في مدينة اسنا Latoplis في الصعيد المصري. الجدير بالذكر أن هذا الولد ليس هو (أحمد) الذي تركه حيًا بالهند عند الأمير العباسي غياث الدين عندما ذهب ابن بطوطة سفيرًا للصين. وقد قال عنه: لم يعرف الله ما فعل به. (ج١، ص٢٦٧).
١٥- ابن حجر: الدرر الكامنة، (ج١، ص ٣٧٤)، (ج٤، ص ١٩٢).
١٦- يجب أن نلاحظ هنا ما يأتي له من أنه لم يركب البحر إلا سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م، حيث يقول بالحرف: «لم أكن ركبت البحر قبلها» ج٢، ص١٥٨. وكان هذا عندي مدعاة للتساؤل، كما قلت في تعليقاتي بهامش الرحلة.
١٧- حديث ابن بطوطة عن أيام القيظ ومبيته في السطح في هذا الوقت جعل الذين يتابعونه في يوميات سفره ذلك، يتساءلون: هل كان الوقت فعلاً وقت حرّ؟ وسنراه - بعد فترة مديدة من الزمن، يصل إلى أصفهان يوم ١٤ جمادى الآخرة ٧٣٧هـ/ ٧ مايو ١٧٣٧م، ومعنى هذا أن ذلك الوقت لم يكن وقت حر!!
IVAN HRBEK: The Chronology of Ibn Battuta Travel Arachiv Orient Alin, Akademie Praha _ 1962.
H. GIBB: The Travels of ibn Battuta, Vol. II, p. 289 _ V. Monteil: Introduction aux Voyage d'Ibn Bettuta.
ROSS E. DUNN: The Adventures of Ibn Battuta _ Croon Helm, London and Sydney 1986, p. 93 _ 104.
Voyage d,Ibn Battuta. Paris "Introduction et notes de Stephane Yerasimos. La decouvert, Paris 1990, p. 40 _ 390.
د. التازي: تحقيق رحلة ابن بطوطة ١٩٩٧، ج٢، ص٣٠، تعليق ٨١ كذلك. ج٥، ص ٣١٥ - ٣١٦.
د. التازي: عميد الاستشراق التشيكي إيفان هربك، وعطاؤه للمكتبة الإسلامية والمغربية والإفريقية، دراسة مقدمة إلى مجمع اللغة العربية بالقاهرة. الدورة ٨٥ - ٨ مارس ١٩٩٩م.
وانظر تحقيق رحلة ابن بطوطة (ج٢، ص ٣٠) تعليق ٨١ (ج٥، ص ٣١٥ - ٣١٦).
١٨- لاحظ كل الباحثين في التاريخ الذين علقوا على هذه المعلومة من فرنسيين وبريطانيين، وتشيكيين وغيرهم، أن ابن بطوطة اختلط عليه الأمر: إن أتابك: أفراسياب Afraciab كان يحكم هذه المنطقة بعد عشرين سنة من هذا التاريخ! أي عند عودة ابن بطوطة إلى بلاده سنة ٧٤٨هـ، أما الذي كان يحكم إيذج على عهده فهو نصرت الدين أحمد الذي توفي سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م. انظر التعليق قبل هذا، وانظر رحلة ابن بطوطة، تحقيق د. التازي، ج٢، ص ٣١، التعليق ٨٢.
١٩- لاحظ إيفان هربك Hrbek أن هذا التاريخ يحتاج إلى تعديل وتصويب بمعنى أنه تاريخ خاطئ، وسنلاحظ في هذا التاريخ المخطوطة التي كتبها بيده ابن بطوطة بدمشق سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م.
٢٠- تحدثت الرواية هنا عن صحراء اعترضت طريق ابن بطوطة، ويلاحظ هربك (ص ٤٣٤) أن خط السير كان عبر المروج، ولذلك فإنه لا يفهم معنى حديث الرحلة عن صحراء من دون ماء Waterless desert.
٢١- رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص ١١٠.
٢٢- حسب حافظ أبرو فإن رحلة فإن رحلة السلطان تمت أواخر مايو أوائل يونيو / رجب ٧٢٧هـ، يعني بعد لقاء الشيخ القزويني مباشرة. رحلة ابن بطوطة. ج٢، ص١٢٩، تعليق ٢٤٩.
٢٣- رحلة ابن جبير، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت - لبنان ١٩٨١م، ص ١٩٢ - ١٩٣. ابن بطوطة (ج٢، ص ١٤٧).
٢٤- د. جزيل عبدالجبار الجومرد، جامعة الموصل: رحلة ابن بطوطة إلى الموصل بين الحقيقة والتأليف.
٢٥- خليل الله خليلي سفير أفغانستان في بغداد والكويت: ابن بطوطة في أفغانستان ١٩٧٠ - ١٩٧١م، مطبعة الجامعة، بغداد، شارع المتنبي، ص ٦ - ٧ - ٥٨.
٢٦- عبدالعزيز الساوري: ابن بطوطة لواتي أم جرواي، مجلة المناهل، شوال ١٤٢٠هـ/ يناير ٢٠٠٠م، عدد٦٠، ص٢٤١.
٢٧- ترجمة ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٢، ص٧٩.
٢٨- الطايع الحداوي: النص الواصف لابن جزي، صنعته الخبرية وأنماطه الخطابية، مجلة المناهل، عدد ٥٩، ١٩٩٩م.
٢٩- الموافق ٢٦ مارس ١٣٢٧م.
٣٠- الموافق ١١ مايو ١٣٢٧م.
٣١- عبدالعزيز الساوري: ابن بطوطة لواتي أم جراوي، مجلة المناهل شوال ١٤٢٠هـ/ يناير ٢٠٠٠م: عدد ٦٠، ص ٢٤١.
٣٢- القرطبي: كتاب المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم عن نسخة نادرة بخط الرحالة ابن بطوطة، تقديم د. التازي (تحت الطبع من لدن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٤٢٥ - ٢٠٠٤).
٣٣- د. التازي: إيران بين الأمس واليوم: قراءة جديدة لرحلة ابن بطوطة: نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي. طبعة أولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ٨ - ٩.

هل هناك عمر محدد لتـ



ـعلم القراءة؟

محمد سالم
الرياض ــ السعودية

يعدّ ميدان تعليم القراءة من أهم ميادين التعليم إن لم يكن أهمها على الإطلاق. ذلك أن القراءة وسيلة الإنسان في كسبه المعرفة والمعلومات. وهي النافذة الواسعة التي يطل منها على ميادين المعرفة المختلفة. ولهذا لقيت القراءة اهتمامًا يفوق الاهتمام الذي لقيه أي موضوع آخر من موضوعات التربية، سواء في مصر أو في الولايات المتحدة الأمريكية أو في غيرهما من المجتمعات المتعلمة.

وغالبًا ما يحكم على مدى نجاح المعلمين والمدارس من قدرتهم على تعليم الأطفال القراءة، وقد اتفق على أن القدرة على القراءة الجيدة هي أساس النجاح في المدرسة وفي الحياة اللاحقة (Gibson & Levin, 1983)؛ لأن النجاح في المواد الدراسية الأخرى والتقدم فيها يعتمدان أساسًا على القراءة. فمن المعروف أن الطفل الضعيف في القراءة ضعيف في المواد الدراسية الأخرى، وتخلفه في القراءة يترتب عليه تخلفه في غيرها من المواد، ومن هنا كان للقراءة الأهمية الخاصة.

وكثيرًا ما تساءل المربون والباحثون في مجال التربية وعلم النفس عن السن المثلى التي يكون فيها الطفل مستعدًا عقليًا وجسديًا لتعلم القراءة، وكانت القضية الأساسية محاولة معرفة هل كان من الضروري تدريس هذه المهارة للأطفال قبل الدخول إلى مرحلة التعليم الابتدائي بفترة طويلة أو في بدايتها.

وقد استخدم مصطلح «الاستعداد للقراءة» أو «الاستعداد القرائي» عام ١٩٢٥م بمعنى مدى قابلية الطفل واستعداده لتعلم القراءة (دائرة المعارف البريطانية ١٩٦٩م)، وظهر موازيًا لهذا المصطلح مفهوم أن هناك عملاً تربويًا تمهيديًا ينبغي الشروع فيه قبل أن يبدأ الطفل الدخول في رسميات البرامج القرائية المدرسية (Feitelso,1983,P.12).

ولعل من أهم المؤشرات التي جعلت المربين يهتمون بمدى استعداد الطفل لتعلم القراءة الرغبة في منع حدوث حالات الإخفاق الكبيرة وسط التلاميذ في المراحل الأولى لتعليم القراءة. فقد وجد، مثلاً، أن الطفل الذي يجبر على الانتظام في البرامج القرائية الرسمية قبل أن يكون مستعدًا نفسيًا وجسديًا لها، يخفق في تحقيق تقدم ملموس في اكتساب مهاراتها، وربما يؤدي به ذلك إلى الشعور بالإحباط، وكراهية القراءة بصورة عامة (المرجع السابق، ص٩). ولهذا درجت معظم الدول على تحديد عمر زمني معين للسماح للأطفال ببداية البرامج القرائية النظامية.

ففي روسيا الاتحادية والدول الإسكندنافية، مثلاً، يبدأ في تدريس القراءة في سن السابعة، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ومعظم الدول الأوروبية يبدأ في السادسة.

أما في إنجلترا وأسكتلندا فيسمح للأطفال بالانتظام في البرامج القرائية في سن الخامسة وفي بعض الأحيان في الرابعة (محمد، ١٩٩٤م، ص١١).

ومن خلال المشاهدات والممارسات والدراسات تبين أن العمر الزمني لا يصلح وحده مؤشرًا حقيقيًا للحكم على مدى استعداد الطفل لتعلم القراءة، إذ وجد مثلاً أن عددًا كبيرًا من الأطفال في سن الخامسة يمكنهم الاستمرار في برنامج القراءة بنجاح تام، وأن عددًا ممن هم في سن

السابعة قد يخفقون في تعلم القراءة (Kamhi & Catts.1998).

لذلك فقد اتجهت الأنظار نحو الذكاء بصفته من العوامل المؤثرة في معظم الأنشطة السلوكية، وبدأت البحوث منذ العشرينيات من القرن العشرين في محاولة جادة لمعرفة الصلة بين الذكاء والقراءة فوجدت علاقة إيجابية تصل إلى (٠.٦) بين الذكاء والنجاح المبكر في القراءة. وقد أيدت صحة هذه العلاقة البحوث والدراسات التي أجريت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين خاصة بعد تطوير اختبارات القراءة (دائرة المعارف البريطانية ١٩٨١م) إذ صار العمر العقلي هو المؤشر الحقيقي لمعرفة مدى استعداد الطفل للانتظام في برامج تعليم القراءة. واتضح للباحثين في هذا المجال أن الطفل الذي يبدأ في تعليم القراءة في عمر عقلي يبلغ ست سنوات ونصف السنة فإنه لا يجد صعوبة في مواصلة تعلمه للقراءة (Harris & Malmquist, 1983)، ويعتقد أن الطفل الذي عمره العقلي خمس سنوات يمكنه النجاح في البرامج القرائية إذا وفرت له وسائل وأساليب وأدوات غير تلك التي تستخدم في الظروف العادية (Perfetti,1988).

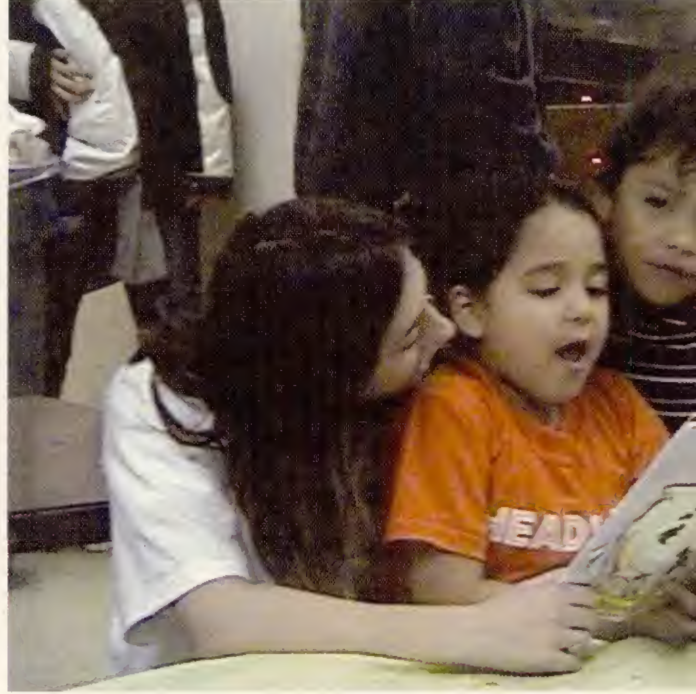
ومن النتائج المهمة التي توصلت إليها الدراسات والبحوث في هذا المجال أن استعداد الطفل للقراءة لا يعتمد على عامل واحد فقط، وإنما على عوامل كثيرة متداخلة ومتشابكة منها: النضج العقلي والإدراكي، والخبرة الشخصية، والتمييز السمعي والبصري، والنضج اللغوي، والنضج الحسي، والصحة والخلو من الاضطرابات العصبية، والاهتمام والرغبة في القراءة، والنضج الاجتماعي والانفعالي (البجة، ٢٠٠٠م، ص٢٩٩). ولكنَّ هناك افتراضًا سائدًا وسط التربويين هو أن النضج الإدراكي والعقلي الضروريين لتعلم القراءة يتحقق في مرحلة متأخرة من الطفولة (Feitelso, 1983, p.22) وأن الأطفال الذين يتعلمون القراءة قبل المدرسة قليلو العدد وعادة يكونون من الأذكياء، ومعظمهم من البنات، وينتمون إلى آباء مثقفين لا يألون جهدًا في توفير المادة القرائية المناسبة التي تجعل اللغة غنية كمًا وكيفًا (Kistner & Licht, 1984).

ويؤكد هذه النتائج (البجة ٢٠٠٠) حيث يشير إلى أن تلاميذ الصف الأول الابتدائي يوجد من بينهم مستويات لا

إن جميع الأطفال الذين هم دون السادسة من العمر أياً كان وسطهم الاجتماعي أو الاقتصادي أو لغتهم الأم يريدون بل يستطيعون تعلم القراءة إذا ما وضعوا في حالة تعلم في بيئة غنية وحافزة



البيئة الحافزة أهم عناصر تعليم القراءة المبكر



ازدياد تجارب التعليم المبكر في المحيط العائلي


عوامل متداخلة تؤثر في تعليم القراءة

حصر لها، فهناك فروق في السن، وفروق في الذكاء، ثم في العمر، كما أن هناك فروقًا في الخبرات السابقة، والمحصول اللغوي السابق، والبيئة، والثقافة، والنضج العقلي والجسمي والاجتماعي، وهناك من قد أمضى مدة في مدارس الحضانة، حيث أتيحت لهم في تلك المدارس خبرات تعليمية معينة في حين أن الأغلبية قد أتت من المنازل دون أن تتاح لها هذه الخبرات.

من خلال المشاهدات والممارسات والدراسات تبين أن العمر الزمني لا يصلح وحده مؤشرًا حقيقيًا للحكم على مدى استعداد الطفل لتعلم القراءة لذلك فقد اتجهت الأنظار نحو الذكاء بصفته من العوامل المؤثرة في معظم الأنشطة السلوكية

وهذه الفروق تعني بالتأكيد، وجود فروق متباينة بينهم في درجة الاستعداد، ومع هذه الفروق الواضحة فإنه من المعروف أن المدارس تعامل هؤلاء الوافدين جميعًا وكأنهم فئة متجانسة مما ينجم عنه عدم بلوغ بعض التلاميذ المستوى المطلوب، ومعنى هذا انتقال بعض التلاميذ إلى مرحلة أعلى دون أن يصلوا مستوى الآخرين، فيزدادون تخلفًا عامًا بعد عام. ولذا فإن المربين يقررون أن التلاميذ يختلفون في درجة استعدادهم لعملية التعلم، وعليه ينبغي أن نتعرف مدى استعداد كل منهم، ومحاولة تنمية هذا الاستعداد بشتى الطرائق والوسائل التربوية المتاحة، وألاَّ نسرع في تنفيذ مناهج تعلم القراءة إلا بعد أن يبلغ التلميذ درجة مناسبة من الاستعداد (البجة، ٢٠٠٠، ص٢٩٨).

ومن المسلّمات التي كان يعتقد في صحتها الكثيرون، وظلت مقبولة فترة طويلة، أن الطفل الذي لم يبلغ السادسة من عمره ليس في مقدوره تعلم القراءة، ولا ينبغي له أن يتعلمها، وأن العمر المناسب لذلك يمكن أن يحدد بوساطة



الطفل قادر على التعلم بغض النظر عن وسطه الاجتماعي والاقتصادي

اختبارات الاستعداد (تيتونه، ١٩٨٥م، ص٣٩). ولكن بإخضاع هذه المسلّمات للتجربة والدراسة بصورة مكثفة في البلدان الصناعية خلال العقدين الماضيين ثبت أن ليس هناك عمر محدد لتعلم القراءة، وأن سن السادسة أو السابعة إنما هي حدود اعتباطية، فالتعلم المبكر لا يضر بصحة الطفل ولا بنموه العقلي ولا بدراسته. ونتيجة لهذا بدأت حركة نشيطة لمصلحة التعلم المبكر للقراءة، وأخذت في الانتشار والاتساع لتشمل الكثير من البلدان (كوهين، ١٩٨٥م، ص٣٧).

الجدير بالذكر أن بدايات هذه الحركة ترجع إلى ما نشره جلين دومان Doman في كتاب له بعنوان «كيف تعلم طفلك القراءة؟» نشر في عام ١٩٦٤م، وقد حاول دومان في كتابه هذا دحض صحة المسلّمات السابقة، وصياغة مبادئ وفروض تبدو غريبة، ولكن ليس من السهل نكران صحتها أو إثباتها، فهو يرى أن صغار الأطفال يريدون تعلم القراءة. وأنهم قادرون على تعلمها، وأنه ينبغي لهم أن يتعلموها، ويستطرد دومان قائلاً: إن في مقدور الأطفال أن يقرؤوا كلمات في السنة الأولى من عمرهم، وجملاً في سن الثانية، وكتبًا في سن الثالثة، وهم يحبون ذلك (Doman, 1964, p.72). ومن ثم عمد كثير من التربويين منذ بداية الستينيات من القرن العشرين إلى إخضاع طريقة دومان وطرائق أخرى مماثلة للتجربة والدراسة، وتوصلوا إلى نتائج مدهشة ومثيرة مما زاد في تجارب التعلم المبكر للقراءة، سواء في المحيط المدرسي أو المحيط العائلي، وفي كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وإيطاليا والسويد وبلجيكا واليابان ودول أخرى (تيتونه، ١٩٨٥م، ص٧٢).

وتؤكد النتائج المستخلصة من كل تلك التجارب أن جميع الأطفال الذين هم دون السادسة من العمر أياً كان وسطهم الاجتماعي أو الاقتصادي أو لغتهم الأم يريدون بل يستطيعون تعلم القراءة إذا ما وضعوا في حالة تعلم في بيئة غنية وحافزة (عطية وآخرون، ١٩٩٦م، ص٢٦).

واستنادًا إلى المسلّمات السابقة قامت راشيل كوهين بإجراء تجربة خلال السنوات ١٩٨١ - ١٩٨٤م في مدرسة في حي فقير في فرنسا، معظم سكانه من الطبقة العاملة ومن جنسيات مختلفة، وملحق بالمدرسة دار حضانة تستقبل أطفالاً أعمارهم بين الثانية والخامسة. فتوصلت من خلال هذه التجربة إلى تأكيد صحة الفرضيات والمسلّمات التي

المربون يقررون أن التلاميذ يختلفون في درجة استعدادهم لعملية التعلم، وعليه ينبغي أن نتعرف مدى استعداد كل منهم، ومحاولة تنمية هذا الاستعداد بشتى الطرائق والوسائل التربوية المتاحة



تقول: إن الطفل الصغير قادر على التعلم وراغب فيه بغض النظر عن وسطه الاجتماعي والاقتصادي ولغته الأم، وإنه يتعلم بسرعة وعفوية. كما لاحظت نمو قدرات مهمة منها: حب الاستطلاع، والميل إلى البحث، والاستقلال الذاتي، والزيادة في حدة السمع والبصر، والقدرة على التعامل مع الرموز، إلى جانب الميل إلى قراءة الكتب والقصص (كوهين، ١٩٨٥م، ص٢٤، ٢٥).

وتستمر تجارب التعلم المبكر للقراءة أكثر إثارة، وتصل نتائجها إلى حد محاولة إثبات أن الطفل في سن ما قبل المدرسة يستطيع بسهولة تعلم القراءة والكتابة، لا بلغة واحدة بل بلغتين، ويعتقد رانزو تيتونه أن التعلم المبكر للقراءة بلغتين من شأنه أن يحدث تأثيرًا إيجابيًا في النمو المعرفي واللغوي للطفل، ويقترح طريقة تركز في الشروط المثلى لتعلم القراءة، وتعتمد على الانسجام والتناغم بين الحواس البصرية والسمعية واللمسية (تيتونه، ١٩٨٥م، ص٧٨).

المراجع

- البجة، عبدالفتاح حسن. «أصول تدريس العربية بين النظرية والممارسة (المرحلة الأساسية الدنيا)، عمان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م.
- تيتونه، رانزو. «التعلم المبكر للقراءة في لغتين» مستقبليات، مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية، المجلد ١٥، رقم ٥٣، العدد ١، ١٩٨٥م.
- كوهين، راشيل. «التعليم المبكر للقراءة: طرح المسألة» مستقبليات، مكتب اليونسكو الإقليمي للتربية في الدول العربية، المجلد١٥، رقم ٥٣، ١٩٨٥م.
- محمد، عبدالغني إبراهيم. «طرق تعليم القراءة ومراحل تعلمها»، المجلة العربية للتربية، المجلد ١٤، العدد الأول، يونيو ١٩٩٤م.

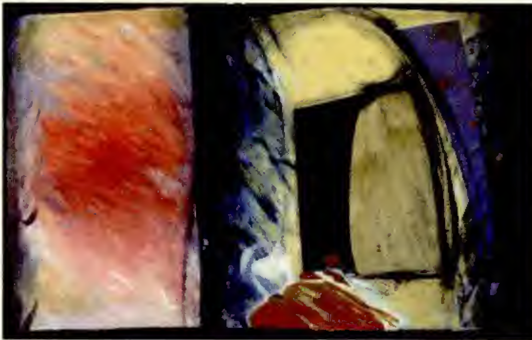
- Doman , Glenn. (1964). Teach Your Baby to Read. London: Jonathan Cap -
- Encyclopedia Britannica (1969). Volume 19
- Encyclopedia of Education. (1981). Deighton Lee C., (ed).the macmillan company and free press, volume7.
- Feitelso, Dina. (1983). ":Learning to read" in staiger, R.C. (ed)., the theching of reading. paris unesco.
- Gibson, E., and Levin, H. (1983) The Psychology of reading. Cambridge, MA: MIT press.
- Grabe, W. (1991). Current developments in Second Language reading research. Tesol quaterly, 25.
- Harris, Aibert J. and malmquist. Eve J. (1983). research in reading in staiger R.C. (ed). the teaching of reading paris, unesco. pp.189.
- Kamhi. Alan and Catts Hugh (1988). Reading disabillities Developmental language perspective. Allyn & Bacon, asimon & Schuster Company.
- Khol. Herbert R. (1988). Reading, how to. Milton Keynes: Open University press.
- Kistner, J. and Licht, B. (1984) Cognitive - motivational factors affecting academic persistence of Learning disabled children. Paper presented at the meeting of the Association for children and Adults with Learning Disabilities, New Orleans.

Perfetti (1988). reading ability. new yourk: oxford University press.

صولة الحجر

مجبل المالكي
صنعاء ـ اليمن

حَجَرٌ فاتكٌ
غابةٌ مِنْ نِصالْ
ودمٌ مشرقٌ في رحيقِ التُرابِ الموشّح بالشمسِ
والعبقِ البُرْتقالْ
حَجَرٌ مورقٌ في صفوف المغاوير،
في صولةِ العاشقينَ الإقامة في هيكل الموتِ
حتى الشهادة،
في زفّةِ النارِ طالعةً مِنْ صهيل البروقِ المُشعّةِ
في حَدَقٍ للخيولِ المُغيرةِ تصطافُ في موكبٍ
يزدهي بالرجالْ
حَجَرٌ مورقٌ في ربيع الأَكُفِّ المُحنّاةِ بالجمرِ
فوقَ ابتسامِ الربابةْ
حَجَرُ البدءِ،
ناقوسُ قافلةِ المُنتهى،
وَشْمُ هذي الكواكبِ يختطُّ بالنورِ
عشقَ المواكبِ،
ملحمة النصر في أقحوان الفصولْ
حَجَرٌ لا يُدانيهِ في الزمنِ الصّعبِ إلاّهُ،
محتدمٌ فوقَ زهو البيارقِ،
مشتعلٌ في ندى الأرضِ،
في كُلِّ ساريةٍ
أطلقتْ روحَها نجمة
في ظلامِ المدارات،
واخضوضرتْ في مخاضِ الرحيلْ.



يملأ أقداحه الياسمين

عزالدين سليمان سليمان
الرياض ـ السعودية

تمرِّينَ في السَّفْح مَوْكِبَ حُسْن
فيشهق طيبٌ، ويَنْدى صَبا
وتهفو الغصونُ إلى لمسةٍ
وتهتف أرْزاتُهُ: مَرْحبا
وتَغْدو الدّروبُ العتيقاتُ نهر
أغانٍ، وتمشي الرُّبا
ويملأُ أقداحَه الياسمينُ
ويشرب نَخْبَك، ما أطْيَبا !!
يُزَنِّر خَصْرَكِ صوتُ الشَّحاريـ
ـر أوْشَكَ صدْرُكِ أنْ يَعْتبا
وينسكب الصَّيفُ في خصْلةٍ
ويلعبُ ما شاءَ أنْ يَلْعبا
يخاصرُكِ الحُسْنُ بين الحُقول
فيستوْقفُ المغربُ المَغْربا
تُدَوْزِنُ رَيْحانةٌ عودَها
أصارَ الغديرُ لها مُطْرِبا؟
تلفُّ بكفِّ الشَّذا خَصْرَها
تُغطّي بشالِ النّدى مَنْكِبا
أفاقتْ صخورٌ، فبعضٌ تَمشّى
يُلَمْلِمُ طيْبًا، وبَعضٌ حَبَا
يُغازلُكِ النَّبعُ كي تَشْرَبي
تُراهُ يُغازلُ كي يَشْرَبَا؟
يسائلني الدَّربُ: مَنْ زارَنا؟
ومن أيْقظَ السَّفْحَ؟ من ألْهَبا؟
ومن يأمر الحُسنَ أن يَنْحني؟
ومن يأمر الطّيبَ أنْ يُسْكَبا
ومن مرَّ في صَيْفِنا غَيْمةٌ؟
أرى عطَشَ الأرضِ قد أخْصَبَا
وهذي العصافيرُ ما تَشْتَهي
نأتْ موكِبًا أو دنَتْ مَوْكِبَا؟
يُجرِّحُني الشَّوْكُ، أغْلقَ دَرْبي
وما أطْيَب الجرحَ !! ما أعْذَبا !!
وما أبْعدَ القُربَ من موعدٍ !!
وما أقربَ البُعدَ!! ما أقْرَبا !!



الولد الذي لا يحب المطالعة!

فاضل السباعي
دمشق - سورية

في أثناء سهرتهم الهنية التي ضمت البنات الآتيات من كل صوب مع مطالع هذا الصيف، جاءهم الخبر، عبر الهاتف، بأنّ الخال «عبدالبديع» يصل البلاد غدًا في زيارةٍ خاطفة.

فَرِحَت بذلك الأسرة وزفّت البناتُ الخبر لأخيهنّ الأصغر:

- الخال آتٍ غدًا يا «وحيد»!

فردّ عليهنّ بنَزق:

- الخال! الخال! الخال! وماذا يعني أن يأتي خالنا عبدالبديع بعد اغتراب، في زيارة خاطفة أو طويلة؟ نعم، هو كاتبٌ مرموق، أعرف هذا وأُقدِّره، وأما أنه يستطيع أن يجعلني أهوى قراءة الكتب ومطالعة الروايات خاصة تلك التي يكتبها ويؤلفها، أن يُغريني بذلك بأسلوبه الذي تُسمِّينَه شائقًا، لَبِقًا. فلا وألف لا! إني لا أحب المطالعة، ولا أهوى قراءة الروايات حتى إن كانت سامية الأهداف نبيلة الغايات، كما تدَّعِين.. خَلَص! خَلَص! خَلَص!

ووصل الخال.

ذهب، إلى استقباله في المطار، كثيرٌ من أفراد الأسرة الكبيرة، أولاد الإخوة والأخوات، صبيانًا وبنات كبارًا وصغارًا... ولم يذهب وحيد! كان ساعة الوصول على «موعد» مع رفاقه في مقهى الإنترنت. هو لا يعرف خاله إلا في الصور. كان في الخامسة من عمره يوم غادر البلد مغتربًا. يشاهده أحيانًا في الفضائيات، يُحاور، يُجادل. يختلف، وقلَّما رآه يتفق مع مناظريه! تعتزّ أخواته بأن خالهنّ عبدالبديع رجلُ فكر، يمتلك كثيرًا من الآراء الناضجة، التي يطرحها في الندوات ويدافع عنها بحرارة. هو كاتبٌ سياسيّ - قالوا - ويكتب دراساتٍ في الأدب، ويؤلِّف رواياتٍ تاريخية ومعاصرة. منذ قريب عرضت إحدى الفضائيات آخر حلقة من مسلسل مأخوذ عن رواية له، لاقى إقبالاً من الجمهور. ترى أخواته وهنّ يهتفن إلى صويحباتهنّ بمواعيد بثّ الحلقات، وكذلك الندوات. يشاهد أحيانًا بعض ذلك في البيت عَرَضًا، ولكن الإنترنت عنده أهم.

يحبّ الأغاني، الأجنبية خاصة، ويُغرم بالمطرب «ايمينيم» ويتتبع، هو ورفاقه، الجديد من أخباره. تعاون رفاقه وأسسوا في الحيّ مقهًى صغيرًا مرتجلاً، أطلقوا عليه اسمًا كبيرًا..

قالت أخته الكبرى «شَفَق»، القادمة من كندا مصطحبة ولديها، مُشفقةً عليه:

- أنت تُضيِّع وقتك في هذا المقهى السخيف!

فيحتجّ:

- سخيف؟!

وتضيف أخته «شروق» الآتية من روسيا وعلى يدها طفلها، مؤيدةً أختها:

- بل هو يُضيّع مستقبله، فلا دراسة، ولا مطالعة،

ولا هم يحزنون!

وتستغرب «صباح»، الواصلة قبل يومين من الخليج، حاملاً تحرص على أن تضع وليدها الأول في مسقط رأسها:

- أنا لا أدري كيف وصل أخونا الحبيب إلى صفّ الكفاءة!

فيضحك:

- بأعجوبة!

وتتأوه «ضُحى»، التي تعمل محامية متدرّبة:

- آه لو أنه يدرس كما درستْ أخواته!

فتُكمل «أصيل»، الطالبة سنة رابعة «اقتصاد»،

- لكان أصبح عبقريًا!

فيردّ:

- وماذا أفعل بالعبقرية؟!

وتشكو «غروب»، الطالبة سنة ثانية «فلسفة»:

- نحن لا نراه يلمس كتابًا بيده، أيَّ كتاب!

وتُبالغ في الشكوى «ليالي»، التي خرجت من امتحان «الثانوية» قبل أيام:

- هو لا يتناول كتابه المدرسيّ إلا بعد أن يُنَشِّف حلوقَنا!

بعد أن استمع وحيد إلى هذه «المعزوفة»، التي اعتاد سماعها، انبرى يقول بصوتِ خطيب مُفَوَّه:

- سيداتي آنساتي! اسمحنَ لي أن أُؤكد لكنّ، يا أخواتي الحنونات، أني، نعم، لا أحب أن أمسك بيديّ هاتين كتابًا مدرسيّاً ولا أدبيّاً، فأنا لا أرغب في أن أصير عبقريًا مثلكنّ، وإني من هواة الإنترنت، ومن المغرمين بالأغاني الأجنبية... وعلى ذلك أقترح أن تكفّ كلّ واحدة منكنّ عن تقريعي في الطلعة والنزلة، فتُوفِّرن بذلك على أنفسكن عناء النُّصح وتُرِحْنَ أخاكنّ



الأصغر، الذي جاء والديه بعد سبع بنات!

وهنا تتدخل الأم، لتقول بصوت يرشح حنانًا:

- دعْنَ أخاكنّ وحيد، يا بنات.. لا تُضايقْنَه!

وأمـا الأب، فـإنه يكتـفي بأن يُنقّل نظره بين البنات الناجحات وبين ابنه الغالي عاشق الإنترنت، كاتمًا في صدره أُمنية لا يجد فائدة من البوح بها.



كثيرًا ما ضاقت الشقيقات السبع ذرعًا بأخيهنّ الوحيد، وقد ذهبت بددًا جهودهنّ في حضّه على الدراسة وتحبيبها إليه. فلما ظهرت بدعة «الإنترنت»، وجد فيها مرتعًا خصبًا زاد في إلهائه عن الدراسة، ولكنه مع ذلك يجتاز صفًا بعد صف! وقد ضاعفت أخواته الأربع المقيمات من جهودهن في مراقبته في سنة الشهادة هذه، التي شغله فيها - مثلما شغل رفاقه هواة الإنترنت - أنهم برعوا في «الدخول» إلى عالمه والتجول في أرجائه، بمقهى يرتادونه وينفقون فيه الوقت وكل ما في جيوبهم الصغيرة.. إلى أن تدبروا بيتًا في الحيّ، شغلوا غرفة فيه جعلوا منها مقهى مرتجلاً من مقاهي الإنترنت التي ابتدأت تشيع بين الشباب، وسمَّوْه «العالم رهن إشارتك»!

ولكن وحيدًا الابن الثامن لأب يُدَرِّس «الجغرافية» وأُمٍّ تُدرِّس «الإنجليزية»، كان مع ذلك ينتقل من سنة دراسية إلى السنة التي تليها، وإنْ أتى اسمه - وكذلك أسماء رفاقه الحميمين - في آخر قائمة الناجحين، وإنهم ليُهلّلون يوم إعلان «النتائج» فَرَحًا: «قد نجونا، هذه السنة أيضًا!»، ويزدادون ولعًا بالإنترنت! وكان لا بدّ من أن يتّخذ غرامُهم به وجهةً، نحو الأغاني التي تبثها الفضائيات «الغنائية» العالمية، فباتوا يحفظون الأسماء، والألحان، والرقصات، ويعرفون كل الظروف التي تحيط بهذه «الفرقة» أو تلك.

تقول له أخته المحامية ضُحى:

- افتح كتابك، يا وحيد!

فيردّ عليها:

- ولكني لا أريد أن أصبح «محاميًا»!

وتقول له أخته أصيل:

- نحن لا نراك تدرس قطّ، وأنت هذا العام في صفّ الكفاءة!

فيجيبها بثقة:

- يكفيني ما أستوعبه من شرح الأستاذ في أثناء الدرس.

وتقول له أخته غُروب:

- اقرأ كتابًا تُنمّي به ثقافتك!

- ثقافتي أستمدّها من... الإنترنت!

وتقول له ليالي، التي تسهر الليالي في التحضير لامتحان «الثانوية»:

- اقرأ كتابًا، روايةً لخالنا عبدالبديع.

- قراءة الروايات تجلب لي السأم.

- ولكنْ ما من أحدٍ بدأ بقراءة روايةٍ لخالنا إلا تابع القراءة حتى النهاية.

- إلا أنا!.. إلاّ أنا!...

وإنه ليُصغي إلى أحاديثهنّ عن أنّ للخال عبدالبديع أسلوبًا خاصًا في إغراء جليسه - إنْ كان هذا ممّن لا «يتعاطون» الكتاب! - بمطالعة إحدى رواياته، فهو يُقرّب له ويُبعّد، بأنْ يقرأ له فقرة أولى منها، ثم يطلب منه أن يتابع القراءة...

وهكذا حتى يُسقطه في «الفخّ» ويُحوِّله إلى قارئ نَهِم.. يُصغي إليهنّ مبتسمًا، ثم يقول بهدوء يزيد في غيظهنّ:

- هذه الأساليب كلُّها لا تنطلي عليّ!!



نزل الخال عبدالبديع في أحد فنادق المدينة.

وتوارد عليه الأهل مسلّمين. وقام يردّ الزيارة لهم في بيوتهم، متعرّفًا إلى الأجيال الجديدة، مَن كان منهم في المهد فأصبح فتًى ناشطًا، ومن شَبَّ عن الطّوق فدخل معترك الحياة. وقد استرعى انتباهه الفتى وحيد، ابن أخته «فلك» التي واظبت على الحَمل والولادة حتى رزقها الله بهذا الصبي الوسيم، الذي اكتسب قامةً مديدة، فقرّت به عينًا وتوقفت عن الإنجاب!

قال ممازحًا وهو يستمع إلى «المنظومة» من أسماء البنات:

- يا أختي العزيزة فلك! يا زوجة مدرّس الجغرافية والفلك! لقد استوحيتما من الزمن، من دورته اليومية، أسماء البنات المتميِّزات: شَفَق، شروق، صباح، ضحى، أصيل، غروب، فلما استنفدتما «مراحل» اليوم الزمنية، سمّيتما السابعة «ليالي».. لِمَ لم تُسمِّيا هذا الفتى، ذا العينين المتّقدتَين ذكاءً، نور «نور الدين»، أو شمس «شمس الدين»، أو حتى «ضياء الحق» مثلاً.. ألست من الأوائل في دراستك يا وحيد؟ هل أنت من محبي المطالعة والساعين إلى جنيّ ثمارها؟ ما «العناوين» التي قرأت من أعمال خالك الأدبية؟

أحسّ وحيد، بعد «المقدمة» الجميلة، أنه قد حوصر بأسئلةٍ تهاطلت عليه مثل زَخِّ المطر. وما شكٌّ في أنها «مؤامرة»، قد نَسجت خيوطها أخواتُه هؤلاء اللواتي يعتصمن بالصمت العميق.. قال مصطنعًا اللا مبالاة:

- أنا لا يهمني أن أكون من الأوائل!

- والمطالعة؟

- صراحة؟ إني لا أكاد أقرأ صفحة في كتاب حتى يهجم عليّ النُّعاس.. مقرّرات المدرسة لا أعرف كيف أقرؤها!

- والمعرفة، يا بن أختي، الثقافة، من أين تجتنيها؟

فوجدها وحيد سانحة:

- ليست الكتب وحدها، يا خالي، مصدرًا للثقافة.. هناك الإنترنت.

فأظهر الخال ارتياحًا:

- عال! فأنت تستمد بعض ثقافتك من عالم الإنترنت الرحيب.

هنا استرسل وحيد، متباهيًا:

- إني أستطيع أن أدخل على كثير من «المواقع». ولكن في الفضائيات أيضًا ما يُغري. هناك ما يسمونه «ثقافة الأغاني». إنّ في الولايات المتحدة زنوجًا يقدمون أغاني ناقدة لحكومتهم، وتتحدّث عن أوضاعهم البائسة. ولكن أحد المغنّين من البيض، واسمه «إيمينيم Eminem»، أخذ يقلد طريقتهم في الغناء وفي النقد والشكوى، والطريف أنه يُصرّ على أن يكتب حرف E الأخير من اسمه مقلوبًا نحو اليسار .... ! تصوّر، يا خالي، إنه يحبّ العرب، نكايةً بحكومة بلاده، وخاصة الشخصيات العربية التي يكرهها الأمريكان. أنا ورفاقي نحبّه. كل الفضائيات الغنائية تبثّ أغانيه، عدا الأغاني التي يجهر فيها بحبّه للعرب، فنحن نطّلع عليها في مواقع على الإنترنت، ولكن بعض المواقع يُحجم عن بثّها، يرونها خطيرة. إننا نحب أغاني الـ «راب Rap» هذه التي قوامها الكلام. كلام يتلفظه المغنون بسرعةٍ عجيبة، حتى إننا نعجز عن فهمه، وفي هذه الأغاني يتبادل فريق المغنين الشتائم! نحبّ منها أغنية «ضيِّع نفسك Lose Yourself» وبمعنى آخر: انغمس في الموسيقى! وهناك، أيضًا أغاني الـ «هاردروك Hardrock»، وفيها نسمع الغناء صراخًا، صراخًا يصمّ الآذان، وخاصة ما تطلقه فرقة «لانكينبارك Linkinpark» التي تحرص على أن يُكتب حرف N في عنوانها مقلوبًا.....

أجل، استرسل وحيد في حديثه.. فهل أخطأ في استرساله وفي تباهيه؟

كان الخال عبدالبديع، المحبّ لأخته أم البنات

السبع والصبي الأوحد، يصغي ويطيل الإصغاء. والبنات توقّعن أن يتّخذ خالُهن موقفًا ما من أخيهنّ، الذي نفض كلّ ما عنده من أسرار هوايته. والأب ترقّب، والأم توجّست.

سأل الخال:

- وأين تمارسون، أنت، ورفاقك هذه الهواية الجميلة؟

- في مقهى أسّسناه في بيتٍ يملكه والد صديقنا، هنا في الحارة، وسمّيناه «العالم رهن إشارتك»، يدخل علينا الأولاد ويلعبون، نحاسبهم «على الساعة» ونراعيهم.. أشهر لعبة هي «عدّاد البلاط المرمريّ Counter Strike»، الجميع مغرمون بها في هذه الأيام.

- ألا تدخلون على «المواقع» لتعرفوا أخبار العالم، وتتعرّفوا المستجدات، والتقنيات، وحوادث الأيام الخوالي؟

- إن عالم الإنترنت واسع جدًا، يا خال، أوسع مما يتصوره عقلُ إنسان، ونحن نهتمُ بجانبٍ من جوانبه.

- والكتب والمجلات الثقافية، ألا تُعنون بها؟

- أعترف لك، يا خالي بأنّ كل واحدٍ منّا، ما إنْ يقرأ صفحةً من كتاب حتى يعتريه الملل!

ولكنّ المطالعة يا بن أختي، هي المصدر الأول للمعرفة، فيها يرتاد القارئ عالم المجهول، ويتعرّف تجارب الآخرين فيستفيد من خلاصتها، وذلك ما يُجنّبه المزالق والوقوع في الأخطاء.. وهل تعرف أن أنسب مراحل العمر للمطالعة هي السنّ التي أنت فيها الآن، ففيها تتأصل عادة المطالعة النافعة، وفي ظلها يبدأ الفرد في بناء شخصيته؟

والمطالعة، بعد ذلك، شائقة وتبعث على المتعة الجميلة..

ضحك وحيد في سرّه: ولكنها عندي تجلب النُّعاس، يا خالي!

- طيّب، ما رأيك في أن نحاول، أنا وأنت، الساعة، أن نقرأ معًا فقرةً أولى من مؤلفات خالك التي تضمّها مكتبة الأسرة؟ (ونادى) هاتي، يا ليالي، من هناك، أول رواية يقع عليها نظرك.

- خالي، أرجوك! قلت لك أني لا...

- لنحاول، نحن لن نخسر شيئًا أي شيء.

أصبح وحيد على يقين من أنه سوف يمنح الخيبة لخاله، هذا الذي منحه جزءًا من وقته الثمين، حين حادثه واستمع إليه وكأنه ندٌّ له، ولم يعمد إلى نصحه ولا همّ بتقريعه على استغراقه هو ورفاقه في دنيا الإنترنت، وأغاني الكلام، وأغاني الصراخ، كما تفعل أخواتُه السبع!

حضر الكتاب.أتت به، بسرعة البرق، أخته ليالي. وإذ تلقّى خاله الكتاب، شعر هو بأنه قد زُجَّ به في أصعب امتحان ولا امتحان الكفاءة الذي خرج منه قبل أيام أو امتحان الثانوية إن قُدِّر له أن يصل إليه!

- لنستمع معًا إلى هذه الفقرة.

قال الخال ذلك، ثم أخذ يقرأ، قراءةً هادئةً، متأنّية، منَغَّمة، فكأنها ترتيل:

- «عشر سنين مضت، والذكريات ما تزال ثاويةً في أعماق نفسه، يحاول أن يُبعدها فإذا هي تزداد قُرْبًا، وأن يَئِدها فتعود وهي أكثر ما تكون توهُجًا وألقًا....».

أصغى وحيد.. ومع أنه كانت في النصّ كلماتٌ لا يعرف معناها، «ثاوية»، «يئدها»، «أَلَقًا»، إلا أنه تساءل بينه وبين نفسه، عمّن يكونه هذا الرجل الذي يريد أن يطرد الذكريات من خاطره ولا يستطيع؟ ولماذا؟...

خاله يُمعن في القراءة، وهو يُمعن في الإصغاء، والعيون، كل العيون، يراها تُنعِم النظر، متنقلة بينه وبين الخال.

ـ هل نقرأ الفقرة الثانية معًا؟

اعتذر:

ـ ولكن، يا خالي، أنا لا أحسن القراءة، مثلك!

ـ نتعاون.

وأخواته، لا ريب ، يضحكن، في سرّهنّ، شامتات!

قال الخال:

ـ لا بأس. إني قرأت من النصّ ما يكفي. فلتنفرد، يا بن أختي، بالقراءة بينك وبين نفسك.

وناوله الكتاب وانصرف عنه، وانصرفوا إلى أحاديثهم.

وفي قراءته الصامتة، بدأ وحيد يشعر بمتعة تتسلل إلى فؤاده وتعمر جوانحه.. ولكنها متعةٌ يداخلها إحساسٌ صغير بأنه قد اندحر: فأسلوب الخال عبدالبديع، في تحبيبه القراءة لمن لا يحبّها قد انطلى عليه!

تقول الحكاية:

إنّ وحيدًا توارى، في تلك الليلة عن الأنظار.

قرأ في الليل، ثم قرأ في النهار. ولم يخطر له أن يغادر البيت إلى «العالم رهن إشارتك»، فقد كان بين يديه عالمٌ جديد من الحوادث والعواطف والأحاسيس. وكانت عيناه، في ذلك، تدمعان حينًا حتى ليستغرب ما يراه في نفسه من «رقّةٍ» في الشعور، وحينًا آخر تأخذه نشوةُ الفرح فيرقص قلبه طربًا.

حدّث بذلك رفاق الإنترنت، فما صدّقوه: أيمكن أن تفعل قراءةُ كتابٍ في النفس ما تفعله أغاني الإنترنت؟ وأعارهم الكتاب، ومن عَجَب أنهم استمتعوا بقراءته! وهو، أخذت يده تمتد، مرةً بعد مرة، إلى مكتبة الأسرة.. وأسعده أن يُمسي، خلال أيام معدودات، من عشّاق المطالعة.. ولكنّ ظلّت نظراتُ أخواته، المختلسة تُسبب له ضيقًا!

ويوم وداع الخال عبدالبديع ـ تقول الحكاية ـ أحبّ رفاق الإنترنت أن يصحبوا صديقهم وحيدًا إلى المطار، بعد أن أدركوا أن مطالعة الكتب مفيدة، وهي ليست ممّا يبعث على السأم أو يجلب النُّعاس! وقد ضمتهم، وهم في طريقهم إلى المطار، سيارةٌ يقودها واحدٌ منهم. وطول الطريق كانوا يُرددون الأغاني العربية، وتلك التي يتلاحق فيها الكلام أو يعلو الصراخ، ولكنّ ما نغّص عليهم رحلتهم أن دولاب السيارة «نَزَل»، قُبيل وصولهم المطار، فنزلوا يُبدلونه، وهم في خشية من أن تفوتهم لحظة الوداع. والله كم حزّ في نفوسهم أن «الخال عبدالبديع» الذي علمهم المطالعة وهو لا يدري، قبل أن يعرفوا شخصه ويُكَحِّلوا عيونهم بمرآه، كان قد تم توديعه من قبل أهليه، فدخل المطار إلى حيث لا خروج منه إلاّ إلى باب الطائرة!

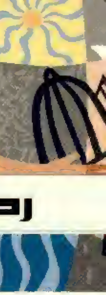
وتقول الحكاية: إنّ وحيدًا، تلك السُّوَيْعة، وقف بين رفاقه على رصيف المطار، ينتظر إقلاع الطائرة. فلمّا رآها تحلّق فوق الرؤوس لم يتمالك نفسه من أن يرفع صوتًا ضائعًا:

ـ خالي! قد قرأت كتابك وقرأه أصدقائي، وقرأتُ غيره. أصبحنا بفضلك نقرأ ولا نحسّ بسأم. الشكر لك، يا خالي عبدالبديع!

ودَمَعت عيناه. فكاد يحسّ من ذلك خجلاً أمام أصدقائه، لولا أنه رآهم يلوّحون بأيديهم للطائرة وهي تمضي بعيدًا، وأصواتهم تتعالى:

ـ شكرًا لك، يا «خـــال»! شكرًا... شكرًا... أنت علمتنا المطالعة!

أجل، كانوا مراهقين، ولكنهم يملكون إحساسًا جميلاً وصافيًا... فقط كانوا في حاجةٍ إلى من يأخذ بأيديهم حتى يصبحوا في حالة أفضل.



الوطن في أدب الشراكسة

حوى النبي علي صالح
قسم التحرير



الوطن في أدب الشراكسة
إيمان بقاعي

«الوطن في أدب الشراكسة» كتاب وضعته إيمان بقاعي وقدم له الدكتور رفيق خليل عطوي رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة اللبنانية في بيروت. وقد أشار في مقدمته إلى المساهمات الأدبية والسياسية والدينية والاجتماعية التي قدمها الشراكسة للحضارة الإسلامية العربية، ووصف موضوع الكتاب بأنه «جديد كل الجدة، أكاديمي، موضوعي، يخضع لمقومات البحث العلمي الملتزم أصول الحياد».

أما الكاتبة فقد جاءت مقدمتها سردًا مجملاً لمحتويات البحث وكيفية معالجة موضوعاته، كما نوهت بدوافعها للكتابة في هذا الموضوع، وهي خلوّ المكتبة العربية من الكتابات في هذا المجال، إضافة إلى الدافع العرقي، فالشراكسة - كما تقول: «هم جدودي وأخوالي الذين انتقلت منهم إليّ هواجس البحث عن الوطن بكل ما يعنيه من مفاهيم وامتدادات».

ويقع الكتاب في ثلاثة أبواب، جاء الباب الأول في مدخل وثلاثة فصول، تحدثت في المدخل عن تاريخ الشراكسة منذ أقدم العصور، وتتبعت أخبارهم وأصولهم وأسماءهم التي عرفوا بها في تاريخ «هيرودوت»، وعند الرومان، ومؤرخي بيزنطة والعرب.

الشراكسة

والشراكسة أربع قبائل هي: تركس، وأركس، وكسا، وآص، وتتفرع عن تلك القبائل الأربع بطون وأفخاذ كثيرة، غالبًا وما يكون الاسم «شركس» جاء من جيرانهم الفرس، فهي تعني في لغتهم «الرجال الأربعة». أما اليوم فيعرف الشراكسة

البارودي ورث موهبة الشعر من أجداده الشراكسة، كما ورث عنهم أيضًا حدة المزاج والميل إلى الفروسية، إضافة إلى أن أمه غذّت فيه روح التمرد منذ الصغر

بالمجموعة الغربية من شمال القفقاس، ويتألفون من الأديغة، والوبخ، والأبخاز، وهم يدعون جميعًا بالأديغة، وهي تعني إنسانًا كاملاً، أو نجيبًا أصيلاً، أو إنسانًا نبيلاً.

ويعد اليونان والرومان من أوائل الذين كتبوا عن الشراكسة، ثم جاء بعد ذلك الروس والإنجليز والفرنسيون والألمان والأرمن والكرج والأتراك والعرب.

وقد استطاع الشراكسة المحافظة على جنسيتهم وقوميتهم ولم يختلط دمهم بدم آخر على الرغم من تقلب الأوضاع وتعدد الفاتحين والمغيرين على بلادهم، وقد عرفوا بالشجاعة وحب الأوطان حتى هابتهم الأمم التي عاصرتهم وجاورتهم، وفي العصر الحديث لفتت شجاعتهم في مقاومة الروس (١١٧٧هـ ـ١٧٦٣م/ ١٢٨١هـ ـ١٨٦٤م) أنظار الأوربيين، فكتبوا عنهم الكثير.

جغرافية القفقاس وتأثيرها في مسار التاريخ

وجاء الفصل الأول من الباب الأول تحت عنوان: «جغرافية القفقاس وتأثيرها على مسار التاريخ»، وفيه تعرضت المؤلفة إلى موقع القفقاس الإستراتيجي، وكيف كان يشكل حلقة اتصال بين الشرق وبلدان أوربا الوسطى والشمالية، وهو مع هذا الموقع الجغرافي المميز كان يمتاز بموارد اقتصادية ضخمة: زراعية وتجارية وصناعية. وهذه الميزات جعلت هذا الموقع يمثل هدفًا حيويًا ومهمًا للإمبراطوريتين العثمانية، التي أرادت الاتصال بالشعوب الطورانية في آسيا الوسطى لتحافظ على إمبراطوريتها مستعينة بدعمهم، والروسية التي حلمت باحتلال القفقاس للوصول إلى البحار الدافئة لترث الإمبراطورية البيزنطية وتدافع عن المسيحية.

وبعد حروب طويلة وقاسية مع روسيا، انتهت بإبادة جماعية للشراكسة وتهجير من بقي منهم إلى تركيا وبعض الأقطار العربية، قُطِّعت أوصال شمال القفقاس وتشرذم إلى كيانات صغيرة ضعيفة، ضمن الإطار التنظيمي لجمهورية روسيا الاتحادية (U R R)، كما يوجد الشراكسة اليوم في تركيا وفي البلاد العربية في الأردن ومصر وسورية.

سلاطين الشراكسة في مصر (البرجيون)

وجاء الفصل الثاني عن «سلاطين الشراكسة في مصر (البرجيون)»، بدأته المؤلفة بمناقشة أسباب مجيء الشراكسة إلى البلاد العربية، وعزت ذلك إلى الحروب التي تعرض لها إقليمهم من قبائل الهون البربرية، ودولة الخزر، وجيش إمارة طارقان، وأمراء الروس، والتتار، ثم زحف القائد المغولي جنكيز خان على البلاد الإسلامية سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م، وسبب آخر لوجود الشراكسة في البلاد العربية هو مجيء بعض الجنود ـ كما يقول سير وليم موير في كتابه: «تاريخ دولة المماليك في مصر» ـ لتأييد الخلافة العباسية وحمايتها من طبقة العبيد (من قبائل التركمان والمغول) التي صارت تشكل خطرًا عليها.

أما في عهد الدولة الأيوبية فقد أصبح ظهورهم واضحًا، وقد بنى لهم صلاح الدين الأيوبي ثكنات بجزيرة الروضة، وأطلق عليهم اسم المماليك البحرية، وقد حكم المماليك مصر خلال الفترة من سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ـ ٧٨٣هـ/١٣٨١م، وكان منهم السلطان بيبرس (٦٥٨ ـ ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٧٩م)، والسلطان سيف الدين قلاوون (٦٧٨ ـ ٦٨٨هـ/ ١٢٧٩ ـ ١٢٨٩م). وقد نال الشراكسة قسطًا كبيرًا من التعليم، ثم إن حياة الحكم وفرت لهم عزلة جعلتهم يحافظون على عاداتهم وتقاليدهم وجنسيتهم ولغتهم أيضًا. وقد بقوا على اتصال بوطنهم الأم.

واستعرضت المؤلفة «الأوضاع التي ساهمت في إبراز دور الشراكسة»، كما تناولت «الحياة الاجتماعية والثقافية في عهد سلاطين الشراكسة»، و«العادات والتقاليد الشركسية»: وشملت «الحياة الدينية»، و«الحياة الاجتماعية»، وتناولت فيها التربية، والزواج، والمرأة، والفروسية، والخيل، والضيافة، والموسيقا والرقص.



عرف الشراكسة آلات موسيقية كثيرة

أدب الشراكسة العربي

وجاء الباب الثاني من الكتاب عن «أدب الشراكسة العربي»، وخُصص فصله الأول للحديث عن ابن إياس وقانصوه الغوري كمثال للشعراء في عصر سلاطين الشراكسة.

ابن إياس

هو محمد بن إياس (٨٥٢-٩٢٠م)، جده الأمير إياس الفخري الظاهري من مماليك السلطان الظاهر برقوق أول مماليك دولة الشراكسة، كاتب وشاعر ومؤرخ، طغى عليه التاريخ فعرف به مع أنه شاعر حسن الشعر، كتب الشعر وعنه. وله عدة مؤلفات في التاريخ أهمها «عقود الجمان في وقائع الأزمان»، و«بدائع الزهور في وقائع الدهور»، و«نزهة الأمم في العجائب والحكم». وقد عول على التاريخ، وعدّه الصادق المغني عن السيف، وقال في هذا المعنى:

عوِّل على كتب التاريخ واعنَ بها

فكم تهز لها الأعطاف من طربِ

ولا تعّول على من قال عن سفه

السيف أصدق أنباء من الكتبِ

وقد عاش في عصرين: أواخر العصر التركي المملوكي، ومستهل العصر التركي العثماني، وشهد أحداثهما، فكانت كتاباته ذات فائدة عظيمة حتى وصفه مارجليوث في كتابه: «محاضرات حول المؤرخين العرب» «بأن أسلوبه في الكتابة والتأليف، ونمطه في التفكير، ينم كل منهما عن فردية واستقلال في الرأي قل أن يقربه فيه معظم المؤرخين».

واتجه الشعر في عصر ابن إياس إلى العامية، وكان سلاطين الشراكسة أميل إلى الشعر العامي، إذ لا يجهدهم التعرف إلى معانيه، لذا قربوا الزجالين وشعراء العامية. وكانت لغة ابن إياس في شعره سهلة بسيطة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى، وقد تتبع الحوادث التي حدث في مصر والقاهرة، وكتب عنها حسب مشاهداته وإحساساته، إلى جانب أنه كان يستقي معلوماته من أوثق المصادر، وأكثرها صلة بالأحداث الجارية في مصر وقتذاك.

و كان جريئًا في قول الحق لا يجامل ولا يخاف، وتذكر له المصادر كثيرًا من المواقف مع السلطان قانصوه الغوري - وهو ابن قومه ووطنه الأم - الذي وصل إلى حكم مصر، وكانت البلاد منهارة تعاني المشكلات والفتن، واتخذ السلطان

استطاع الشراكسة المحافظة على جنسيتهم وقوميتهم ولم يختلط دمهم بدم آخر على الرغم من تقلب الأوضاع وتعدد الفاتحين والمغيرين على بلادهم

كثيرًا من القرارات التي لم تعجب الشاعر، فوقف له محاربًا بالشعر، حتى إنه شارك العامة شماتتهم حين شاع نبأ مرض أصاب الغوري في عينه فقال:

سلطاننا الغوري غارت عينه

لما اشترى ظلم العباد بدينه

لا زال «ينظر» أخذ أرزاق الورى

حتى أصيب «بآفة في عينه»

وقال حين أمر السلطان الغوري أصحاب الدكاكين، قاطبة، أن يقطعوا الطرقات من الشوارع قدر ذراع بالكامل، وكانت الطرقات قد غليت جدًا، فلما رسم السلطان بذلك، حصل للناس الضرر الشامل بسبب التكلفة، فقال ابن إياس:

من دولة الغوري ومن جوره

لقد حملنا فوق ما لا نطيق

وقد كفى من فعله ما جرى

من قلة الأمر و«قطع الطريق»

وقد أثبتت الأيام أن ابن إياس كان جريئًا، ولكنه كان موضوعيًا، فهو يثور حين تدعو الحاجة إلى الثورة، ويسجل رضاه حين تدعو الحاجة أيضًا، وها هو ذا يمدح السلطان الغوري بعد أن زالت الأسباب قائلاً:

بالأشرف الغوري المفدا

أصبح ثغر الزمان باسم

يا قانصوه العلي قدرًا

فقت على من مضى وقادم

ارتبط الشراكسة بإخوانهم العرب وقضيتهم المركزية فلسطين، وشاركوا في الجهاد ضد الصهاينة، حتى إن بعضهم دخل الأدب بسبب استشهاده

فكل يوم تراه عيدًا

به فأوقاتنا مواسم

تشرف الغور باسمه مذ

رفرف طير السرور حائم

وقد كان هذا حاله مع كل حاكم ووالٍ وقاضٍ، وقد قال في مداعبة لطيفة في ابن النقيب قاضي القضاة الذي مات عندما رفسه فرسه، وكان هذا القاضي قد سعى في حياته إلى عزل كثير من القضاة ليتولى المنصب بدلاً منهم:

منصب الحكم في القضا قال لما

كشف الله ما به من هموم

زال عني ابن النقيب وإني

كنت معه في قبضة الترسيم

قانصوه الغوري السلطان الشاعر

وهو قانصوه بن عبدالله الشركسي السلطان الأشرف المشهور بالغوري (٩٠٦ - ٩٢٢هـ)، سماه ابن طولون جنديًا وجعل قانصوه لقبًا له، والغوري نسبة إلى طبقة الغور، وهي إحدى الطبقات التي كانت بمصر مدة تعليم المؤدبين، وهو الذي ذكره المتنبي وهو يمدح كافور:

يدبر الملك من مصر إلى عدن

إلى العراق فأرض الروم فالنوب

وكان أديبًا شاعرًا محبًا للعلم والأدب، مطلعًا عالمًا بثقافة عصره، وله شعر بالعربية والتركية، وكان يجيد سبع لغات كما تقول الروايات، وتولى حكم مصر - وهو له كاره - وكانت مصر في أحرج ساعاتها، ولكنه استطاع، بأسلوبه المسالم، وطبيعته الهادئة غير الميالة إلى المناهضة والحرب، أن يضبط الوضع في غير ما عنف أو هدر دماء. وقد عاش في عصره علماء كبار كجلال الدين السيوطي، والسخاوي، والقسطلاني، وزكريا الأنصاري، وفخرالدين عثمان اليمي، ونورالدين الأشموني، ومحمد بن النجار الدمياطي، وابن إياس الحنفي، كذلك عرفت مصر في عهده عددًا لا بأس به من المهندسين

والأطبـاء والمشـاهيـر والصناع، واهتم الغـوري بالتـعليم في مراحله الثلاث: الطفولة والمراهقة والشباب، كما اهتم أيضًا بإنشاء الأبراج والمعامل وسفن الأسطول.

وكان الشعـر في عصره أكثـر رونقًا وجودة، وقد تضمن أغـراضًا كثيـرة منها: النقـد الاجتـماعي، والهجـاء، والمدح، والمديح النبوي، والغزل، والتشوق، والعتاب، والوصف، والرثاء، كما تناول شؤون التربية والحكمة والنصيحة والتصوف، ورثاء الدولة الزائلة، وكان الشعـراء كثيـري العـدد لدرجة أن ابن إياس ذكر أن مئتي شاعـر انبرى للرد على الشاه إسماعيل الصوفي، ملك العجم الذي أرسل، متهكمًا، بيتي شعر للغوري مع رسول له يحمل رأس أزبك خان ملك التتـار، فاختـار السلطان رد الشاعر صفي الدين الحلي وأرسله إلى الشاه.

أما بيتا الشعر اللذان أرسلهما إسماعيل الصوفي، كما أوردهما ابن إياس في (بدائع الزهور، ج٤ حوادث ربيع الأول عام ٩١٧هـ) فهما:

السيف والخنجر ريحاننا

على النرجس والآس

مدامنا من دم أعدائنا

وكأسنا جمجمة الراس

متهكمًا على الغوري لاهتمامه بغرس الرياحين عن الحروب والقتال. أما بيتا الحلي فهما:

ولي فرس للخير بالخير ملجم

ولي فرس للشر بالشر مسرج

فمن رام تقويمي فإني مقوم

ومن رام تعويجي فإني معوّج

وكان أهم ما يميز شعر الغوري هو تلك النزعة الإيمانية المنبثقة من حنايا قصائده، فهو عبدالله، متقرب إليه، طالب غفرانه، طالب هداه وعونه، كما في قوله:

لا تؤاخذ ثم اغفر ذنبنا وهو عظيم

وهدى منك ولطفًا للصراط المستقيم

والاستغفار يتكرر في أشعاره:

بعد بوس الأرض استغفر كثيرً

لأجل ذنب العبد مكسور الجنان

ويخصص الغوري قصيدة لليلة النصف من شعبان:

إذ قيل يفرق كل أمر محكم

فيها وفيها تسقط الورقات

هي ليلة يتوقع الداعي بها

لله أن تقضى له حاجات

واهتم الغوري في شعره، كما في واقعه، بأحوال الأمراء، والوزراء، والكبار، والجنود:

رب فاحفظ الأمرا

فيه لي مع الوزرا

والصدور الكبرا

والجنود بالجملة

وحكم الغوري مدة ستة عشر عامًا في جو من السلم المستتب الذي منحه الفرصة لإنشاء البساتين، وتوسيع الميادين، وإنشاء السواقي والمنازه، وبناء الآثار الخالدة من

إحدى لوحات الكتاب



مدارس ومساجد وقصور وقلاع وجسور وترع وسبل، وغيرها، وقتل في معركة مرج دابق على يد السلطان العثماني سليم بن بايزيد سنة (٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م).

شعراء الشراكسة في القرن التاسع عشر

أما الفصل الثاني من الباب الثاني فقد كان عن شعراء الشراكسة في القرن التاسع عشر، فقد انتهت دولة سلاطين الشراكسة مع انتهاء حكم الملك الأشرف طومان باي (٩٢٢ - ٩٢٣هـ/١٥١٦ - ١٥١٧هـ) الذي خلف السلطان الغوري، وتعرض الشراكسة إلى مذبحة القلعة الشهيرة سنة (١٢٢٤هـ/١٨٠٩م)، الذي راح ضحيتها عدد من الشراكسة على يد محمد علي باشا، وعلى الرغم من ذلك انخرط الشراكسة في الحياة العسكرية والمدنية ونالوا أعلى الرتب، كما ظهر منهم عدد كبير من الأدباء والشعراء منهم: البارودي، وأحمد محرم، والشاعر إسماعيل صبري، والشاعر عزيز أباظة، والشاعر الأديب علي الجارم، وولي الدين يكن، وأحمد ذوالفقار الكاشف، وفكري أباظة، وثروت أباظة، والدسوقي أباظة، ويوسف السباعي، ومحمد فريد وجدي، ومحمد طاهر لاشين، وإسماعيل مظهر، ويحيى حقي، وغيرهم كثر، وقد اختارت المؤلفة البارودي نموذجًا لأنه كان متمسكًا بشركسيته تمامًا كتمسكه بمصريته إذ جمع الاثنين في نموذج فريد.

محمود سامي البارودي (١٢٥٥ ـ ١٣٢٢هـ)

ولد محمود سامي البارودي بمصر لأبوين من الشراكسة سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، وكان أبوه حسن حسني (بك) البارودي من أمراء المدفعية، ثم صار أميرًا لبربر ودنقلا (في شمال السودان) في عهد محمد علي (باشا) والي مصر، أما لقبه البارودي فنسبة إلى بلدة إيتاي البارود أحد بلاد مديرية البحيرة، إذ كان أحد أجداده ملتزمًا لها. وقد توفي والده في دنقلا وهو في السابعة من عمره.

التحق البارودي بالجيش المصري، وتدرج في سلك الجندية حتى وصل رتبة أمير لواء، ونال مناصب عليا من ضمنها وزارة الحربية، واختلف البارودي مع خديوي مصر توفيق ودعا إلى الثورة ضده جهارًا:

أرى أرؤسًا قد أينعت لحصادها

فأين ولا أين السيوف القواطع؟

فكونوا حصيدًا خامدين أو افزعوا

إلى الحرب حتى يدفع الضيم دافع

ولكن الثورة ضد الفساد والتدخل الأجنبي السافر قد أفشلت، وانهزم العرابيون بخيانة قادتهم وتخاذلهم، ونفي بعدها شاعرنا إلى جزيرة سرنديب، وبقي هناك ١٧ عامًا عاد بعدها إلى مصر، وطنه الذي برّحه الشوق إليه، فقال رائيته المشهورة:

أبابل رأي العين أم هذه مصر

فإني أرى فيها عيونًا هي السحر

وقد تلازم السيف والقلم عند شاعرنا، فهو المحارب الشجاع غير المتكسب بشعره:

فإن صلت فداني الكمي بنفسه

وإن قلت لباني الوليد من المهد

وقال في هذا السياق نفسه:

أنا مصدر الكلم النوادي

بين الحواضر والبوادي

أنا فارس أنا شاعر

في كل ملحمة ونادي

فإذا ركبت فإنني

زيد الفوارس في الجلاد

وإذا نطقت فإنني

قس بن ساعدة الإيادي

وقد أنشد في هذا المنفى كثيرًا من الأشعار.

وكان البارودي قد ورث موهبة الشعر من أجداده الشراكسة، كما ورث عنهم أيضًا حدة المزاج والميل إلى

الفروسية، إضافة إلى أن أمه غذّت فيه روح التمرد منذ الصغر. إذ أخبرته أن جده لأمه وكذلك جده الثاني لأبيه قتلهما الأتراك في مذابح القلعة الشهيرة، وقد عُدّ البارودي من رواد النهضة الشعرية بعد عصور الانحطاط.

شعراء الشراكسة في القرن العشرين

تفاعل الشعر الشركسي العربي مع القضايا العربية

كان قضاء العثمانيين على دولة المماليك الشراكسة معاصرًا تقدم الروس نحو الجنوب باتجاه بلاد الشركس في القفقاس في عهد إيفان الثالث وإيفان الرابع (١٥٥٨م) واحتلالهم إياها احتلالاً نهائيًا عام (١٨٦٤م)، فأجبر الشركس على الهجرة خارج مواطنهم الأصلية، كما جاء في الموسوعة الفلسطينية.

وقد وصل الشراكسة إلى فلسطين وسورية والأردن، وشراكسة فلسطين هم الذين وصلوا عن طريق البحر، عكس شراكسة سورية الذين وصلوا برًا، وقد فتكت الأمراض بكثير منهم في رحلاتهم البحرية وفي المناطق التي سكنوا بها، وهي مناطق مستنقعات، وقد هجرها كثير منهم.

وعلى الرغم من كل هذه الظروف فقد ارتبط الشراكسة بإخوانهم العرب وقضيتهم المركزية فلسطين، وشاركوا في الجهاد ضد الصهاينة، حتى إن بعضهم دخل الأدب بسبب استشهاده كالشهيد البطل جواد آنزور الذي كتب عنه الكاتب عبدالسلام العجيلي قصة في كتابه الذي يحمل عنوان «السيف والتابوت»، وهنالك مرثية مشهورة للشهداء تدخل في المراثي الشعبية في الجولان ألفتها الشاعرة الشركسية «شريفة». ويقدم لنا الشاعر أحمد محرم مثلاً واضحًا عن هذا التفاعل والمشاركة.

أحمد محرم "شاعر القضية"

ولد أحمد محرم في حي الوزير في القاهرة سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م، ووالده حسن عبدالله أحد أبناء المماليك الشراكسة المستعربين الذين أحبوا العرب والإسلام، وأورثوا هذا الحب لأبنائهم، وارتبط أحمد محرم كغيره من أبناء جلدته الشراكسة الذين لم يخرجوا عن الخط القومي العربي، ووقفوا مع إخوانهم العرب في جهادهم ضد الصهيونية، وأبلوا في ذلك بلاءً حسنًا، وقد شارك أحمد محرم بشعره مشاركة فعالة في الدفاع عن فلسطين حتى دعي بشاعر القضية الفلسطينية، وهو واحد من شعراء شراكسة كُثر دافعوا بشعرهم بالعربية وبالشركسية عن قضية العرب الرئيسة فلسطين، وديوانه «مجد الإسلام» أو «الإلياذة الإسلامية»، يقع في أربعة أجزاء تناول فيه حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة، ثم تحدث عن هجرته، وعن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وعن غزواته، وعن الوفود التي قدمت للمدينة، ويرى الشاعر الشركسي أن الإسلام رمز يوحد بين المسلمين فيسخر قلمه من أجل هذه الغاية. وقد صور الظلم الذي في فلسطين شعرًا بقوله:

لم ننسها والظلم منتصر بها

والعدل منهزم الفيالق هارب

ورسم صورة لفلسطين كوطن وقع بين أنياب ذئبين كبيرين بلفور والصهاينة، وللذئاب قوانين متعارف عليها، فهم يعطون بعضهم فرائسهم، ويتبادلونها دون رادع أو ضمير:

باعه ذئب لذئب غيلة

فهو للذئبين نهب مقسم

وقال أيضًا:

(بلفور) أنزلها، وباء بإثمها

والظلم إثم كله وفساد

الرواية الشركسية متشابهة، يظن القارىء، لولا اختلاف الأساليب، أنها لكاتب واحد، ونجد أن موضوع الحرب والهجرة مسيطر عليها، وهي تصور معاناة الشراكسة في إيجاد وطن بديل



لعلهم يسترجعون الماضي وذكرياته !

هلا تبين وهو يقضي أمره

أيباع شعب أم يباع جماد

ولا ينسى الشاعر بقية الظلمة فيخاطب فلسطين قائلاً:

قولي (لروزفلت) المؤمل عدله

(روزفلت) ما للظالمين ومالي

أعلي إيواء (الشريد) ومن دمي

يسقى ويطعم بعد قتل عيالي

تعد قصيدة "منصور بك" الشركسي الذي قاتل بسبعمئة فارس شركسي أكثر من ١٤ ألف روسي من أهم القصائد الوطنية التي تناقلتها الأجيال

ويدعو الشاعر إلى اللغة التي يعرفها الأعداء:

لغة السيوف تحل كل قضية

فدع الكلام لجاهل يتشدق

الخيل والرهج المثار حروفها

والنار والدم والبلاء المطبق

أ/الشتات والغربة

فيصل حبطوش:

ويمثّل الشاعر الشركسي فيصل حبطوش شعراء الشتات والغربة، والشتات والغربة هو داء عانى منه الشراكسة طويلاً، فهم أكبر شعب اقتلع عن موطنه الأصلي في هجرة جماعية شملت نحو مليوني شخص أجبروا على الهجرة إلى بلاد غريبة، وتم معظم هذا النزوح الجماعي عبر مرافئ البحر الأسود التي كانت غير مهيأة للتعامل مع هذا العدد الهائل من الناس، وقد هلك من هؤلاء المهجرين نحو نصف مليون شخص، ومن بقي منهم في الوطن الأم تعرض لضغوط سياسة الترويس

من إخلاء للسكان الأصليين ليحل محلهم سكان روس موالون للدولة، أو لقتل جماعي، أو يعتنق المسيحية.

وقد برع حبطوش في تصوير حالة قومه ومعاناتهم، وحالة الانتظار المجهول، والغربة، وعدم الانتماء، وفقدان الهوية، وغيرها من معاناة اللجوء وفقدان الوطن:

عانقت في حربي الغبار

وضممت أشواكًا وغار

ورقدت في حضن دار

لا سقف فيه ولا جدار

ويفتش الشاعر عن شيء يرطب هذا الجو الخانق، عن ماء، عن حلم بتخفيف كل هذا الجفاف، عبثًا:

لا نبع يغترف منه الصغار

فالماء غار!

يسقي بجوف الأرض أحلام انتصار

وبلا قرار

الماء لاب عن افترار

في مبسم، إن هم، يهمي الانتحار

وعند الأرض المقدسة (تركيا وبلاد الشام)، يخلع الشاعر نعليه، فهو لا يلبس النعل في الأماكن المقدسة:

وخلعت نعلي، لن أدوس

أرضًا تقبلها الشموس

أرضًا يباركها الإله

ومضيت يغمرني الألق

نقل الأدب العربي بعض التراث الشركسي المتمثل في الأغاني والأناشيد، خاصة فيما يتعلق بالرثاء، وذلك لأن معظم الكتابات تصور الوطن والحروب



الشراكسة ومعاناتهم في إيجاد وطن بديل

ونسيت جرحي في الشفق

وقلت باسم الله

يقر لي قرار

ب/الشتات والغربة

الرواية الشركسية المعربة والعربية

تعرضت الكاتبة أيضًا للرواية الشركسية العربية والمعربة في عهد الشتات، فأوضحت أن الرواية الشركسية متشابهة، حتى يظن القارئ، لولا اختلاف الأساليب، أنها لكاتب واحد، ونجد أن موضوع الحرب والهجرة مسيطر عليها، وهي تصور معاناة الشراكسة وخيبة أملهم في إيجاد وطن بديل، ولعل ذلك ما جعلها تعتمد على التاريخ وحوادثه وحيثياته وهي بذلك - عربية أو معربة - رواية واقعية جدًا.

ومن أمثلة الروايات الشركسية المعربة رواية «البذرة الأخيرة»، للكاتب باغرات شينكوبا، وهي ملحمة تصف الحياة والحروب والغزوات والعادات والتقاليد، كما تصف الهجرة والتهجير، ويمكن أن يقال عنها: إنها تنحصر في هموم الوطن

كانت لغة ابن إياس في شعره سهلة بسيطة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى، وقد تتبع الحوادث التي حدثت في مصر والقاهرة

وأوجاعه، وكذا الحال في رواية ميخائيل لاخفينتسكي «دوي الرعد»، وحكيم تيونوف، «الأم الثانية».

أما الرواية الشركسية العربية فنجد رواية «جان» للروائي راسم رشدي وهو مؤرخ أكثر منه أديبًا، ولذا أخذت روايته الطابع التاريخي الهادف، مفصلاً الحوادث والمعارك والهزائم والانتصارات واستسلام الشيخ (شامل) الزعيم الداغستاني الذي حارب الروس خمسة وعشرين عامًا (١٨٦٣م)، و«جان» أميرة شركسية فاتنة ناضلت من أجل وطنها، أما رواية زهرة عمر ابشاتسه «الخروج من سوسروقة»، فهي خير مثال لأدب الشتات، إذ تتحدث الرواية عن الوطن وعن هجرة الشراكسة إلى تركيا وكيف أنهم اصبحوا مضطهدين مع ذكر ما عانوه في أثناء رحلتهم إلى تركيا، وكذلك هجرتهم إلى الأردن، ومشكلاتهم مع البدو.

وللحصاد أغانٍ وأناشيد عند الشراكسة



أثر التراث الشركسي في أدب الشراكسة العربي

واختص الباب الثالث من الكتاب بالحديث عن أثر التراث الشركسي في أدب الشراكسة العربي، فجاء فصله الأول عن اللغة:

على الرغم من كل المآسي والهجرات التي تعرض لها الشراكسة، إلا أنهم حافظوا على لغتهم وتقاليدهم وتراثهم وهم يحلمون بالعودة إلى الوطن الأم.

وتنقسم المجموعات اللغوية واللغات الأدبية الشركسية إلى ثلاثة أقسام:

- الأبخاز (الإباظة): وتعود هذه اللغة، حسب الحفريات الأثرية، إلى عصور موغلة في القدم. وهي تشكل مع لغة الأديغة أصلاً واحدًا، وإن كانت لغة الأبخاز تنقسم إلى لهجتين: أبسوا وأبازين، أما لغتها الأدبية، فتعتمد لهجة التاباتا والأنجو.
- الوبخ: وهي لغة مرحلة انتقالية بين لغة الأبخاز ولغة الأديغة، ولا يوجد اليوم في القفقاس من الأوبيخ - القوم - سوى عائلات تم إسكانها في مناطق أخرى، وهم لا يتحدثون الأوبيخية.
- الأديغية: وتنقسم إلى لهجتين، الأولى في شمال غرب القفقاس وجنوبها، والثانية في شمال شرق القفقاس، وتتألف الأبجدية الشركسية من ٦٤ حرفًا وحركة.

وتحدثت الكاتبة عن أثر اللغة العربية في اللغة الشركسية، ومن ثم في الأدب الشركسي، مع أن أدباء الشراكسة لم يتخلوا عن الطابع الشركسي في كتاباتهم على الرغم من لغتهم العربية المتقنة.

الشعر الشركسي في أدب الشراكسة العربي:

عرف الشعب الشركسي بأنه شعب شاعري يقرض الشعر ويتفاعل معه، وقد سجل شعراؤهم آلام الشعب الشركسي والنكبات التي تعرض لها منذ أمد بعيد، وكما استعان الأدباء الشراكسة - العرب، بتراث الشراكسة من أمثال، ولغة، وأساطير، وعادات وتقاليد، كذلك فعلوا فيما يتعلق بالشعر الشركسي، فجاء، في نصوصهم مكملاً لهذه النصوص، مسلطًا الضوء بشكل واقعي على الكتابات التي ترتدي لباسًا قوميًا مختلفًا عن اللباس القومي العربي ومن هنا أيضًا، كان الشعر الشركسي منسجمًا مع النص العربي، وليس خارجًا عنه أو ملصقًا به، وقصيدة «منصور بك» خير مثال على وجود الشعر الشركسي في النص العربي الأدبي.

وتعد قصيدة «منصور بك» الشركسي الذي قاتل بسبعمئة فارس شركسي أكثر من ١٤ ألف روسي من أهم القصائد الوطنية التي تناقلتها الأجيال، لقد صرخ منصور بك في جنوده: «لن نترك بلادنا، وإذا لم تجئنا النجدة، فسوف نقطع رؤوس نسائنا وأطفالنا، ونحرق بيوتنا وممتلكاتنا، ثم ننسحب إلى الصخور العالية وندافع عن أنفسنا حتى يقتل آخر رجل منا»، وفي الوقت الذي كان رجال الشراكسة يقاتلون، كان الأطفال والنساء والشيوخ يقتلون:

لقد ذبحوا الأطفال كأنهم نعام
وقتلوا الشيوخ كأنهم شباب
واستباحوا النساء كأنهن بغايا

وكانت النتيجة بعد المعركة قاسية:

لم يبق في القرية حجر على حجر
أو جذع على شجرة
أو طير على غصن
أو طفل على ذراع

ما الذي بقي؟ بقي شبح الموت يخيم على أرض المعركة الذي يعمل على أكثر من جهة: قتلى، مرضى، واستراحة المحارب:

الموت يحصد بمنجله الرؤوس
والمرض ينتشر في الجو كالضباب
والوباء الفاتك يطل برأسه الأسود
على القرى المقوضة
وينعق على خرائبها كالبوم

وقد جاء الشعر الشركسي المكتوب بالعربية في اتجاه الشعر المكتوب بالشركسية نفسه شارحًا لقضايا الوطن والهجرة وحلم العودة.

أساطير وملاحم النارت:

والنارتيون هم أسلاف الشراكسة ورموزهم الذين يصفونهم في أساطيرهم بالفروسية والشجاعة والجلد، وقد حملت أسماءهم المدن الشركسية، ودخلت هذه الأساطير في أشعارهم وموسيقاهم.

الأسطورة الشركسية في أدب الشراكسة العربي:

وصفت الروائية زهرة عمر الأسطورة بأنها معرفة القوم «حياتهم، نوعهم، نمطهم، أفكارهم، معتقداتهم، سلوكهم، ماضيهم، حاضرهم، مستقبلهم، إمكاناتهم، قدراتهم، فاعليتهم»، وكانت زهرة تدخل الأسطورة في كثير من أعمالها الأدبية وتضعها ضمن النص دون تعليق عليها أو شرح لها، تاركة للقارئ تلمس جمالها الشعري واكتشاف القوم بنفسه، فتنجح في كسر رتابة النص. وقد قارن الأستاذ محمود إبراهيم بين الأسطورة

الموسيقى الشركسية قديمة جدًا، وقد ارتبطت بالعبادة في ابتهالاتها ونشر التعاليم الدينية، والقوانين، والفضيلة، والتربية، إلى جانب أغاني الحب والحرب



الفروسية جزء من حياة الشركسي

الشركسية وأساطير ألف ليلة وليلة فوجد أنهما تشتركان في الأجواء العامة من حيث وجود المردة والجن، والخيول الطيارة، والضباب، ولكنهما تختلفان بفقدان أسطورة الشراكسة لأهم عناصر الأسطورة العربية وهو العنصر الإسلامي الذي يكون الوعاء الفكري والاعتقادي، والذي احتوى ألف ليلة وليلة. فالنارت وهم أسلاف الشراكسة، كانوا وثنيين اتخذوا لأنفسهم عدة آلهة، على الطريقة اليونانية، ومن أشهر أبطالهم في الأساطير «سوسروقة» وتقول الأسطورة: إنه مولود من حجر وهو يستعمل القوة والحيلة لبلوغ هدفه وهزيمة أعدائه.

الأمثال الشركسية في أدب الشراكسة العربي:

والمثل كما يقول شورتن إسكربي في كتابه الأمثال الشعبية: «فكر جماعي تجده في لغة كل شعب وتاريخه»، والأمثال الشركسية تصف بصورة معبرة مواقف الناس وأخلاقهم وعاداتهم وشخصياتهم، وتتميز بطابعها الشعري، وكثيرًا ما تكون مقفاة، وهي تعبر عن الفكرة مباشرة من دون تورية أو مجاز، والأمثال الشركسية إنما هي ابنة بيئتها



الزراعية الرعوية، وتعنى بتربية الإنسان وتنميته.

والأمثال الشركسية تحتوي على الايجاب وكذلك السلب، وهي تصف بصورة معبرة مواقف الناس وأخلاقهم وعاداتهم وشخصياتهم، وتتميز بطابعها الشعري، وفي معظم الحالات تكون مقفاة.

الأغاني والأناشيد الشركسية في أدب الشراكسة العربي:

فالمعروف أن الموسيقى الشركسية قديمة جدًا، وقد ارتبطت بالعبادة في ابتهالاتها ونشر التعاليم الدينية، والقوانين، والفضيلة، والتربية، إلى جانب أغاني الحب والحرب، وقد عرف الشراكسة عدة أنواع من الآلات الموسيقية أهمها: موسيقى اليد ذات المنفاخ Accordeon، والكمان، ونوع عرف عندهم باسم «بجامي» وهو مزمار يستعمله الرعاة عادة، والقيثارة، والناي، وآلة أخرى من اثني عشر وترًا، والـ «شيكآبشنة»، ثم صار الأكورديون الآلة الأساسية عندهم.

ويقسم مت جوناتوقة يوسف عزت الأغاني الشركسية إلى قسمين رئيسين:

- «ورد»: وهي الأغاني التي توصف فيها الحياة القومية والوقائع الحربية والحب والخيال والنكات وبعض النوادر المسلية المضحكة، وتحتوى أيضًا على تفاصيل الوقائع الحربية القديمة.
- غيبزة»: وهي عبارة عن مرثيات لشهداء الحروب والمقتولين قهرًا، أو الذين قضوا نحبهم في حب الوطن.

وهناك أنواع أخرى من الغناء مثل أغاني العمل، فهناك أغان للحصاد، وأغان للرعاة، والدرّاسين والبيادر والصيادين وأغانٍ للآلهة وأغانٍ للمرض.

أما ب. س بالاس فله رأي آخر في تقسيم الأغاني الشركسية ونفصلها كالآتي:

- أغاني النارت: وهم الأبطال الخرافيون للقصيدة الوطنية القديمة، وهي أغانٍ تدور حول موضوعات الوطن والبطولة والصراع من أجل البقاء ونشر الخير.
- الأناشيد التاريخية: وهي الأناشيد التي تمجد كفاح الأبطال ونضالهم.
- الأغاني والأناشيد الطقوسية: وهي تعكس بقايا العقائد الشركسية التي وجدت قبل المسيحية والإسلام.
- الأناشيد الجنائزية «المراثي»: وتنشد عند مناسبات الكوارث العائلية أو القومية، ومن الأناشيد الجنائزية المشهورة الأنشودة التي تناولت الطرد القسري للشراكسة إلى الدولة العثمانية بين عامي (١٨٥٩ و١٨٦٤م) وهي تندب حظ الشراكسة الذين هلكوا بأعداد كبيرة في البحر الأسود في أثناء عملية الترحيل.

وقد نقل الأدب العربي بعض التراث الشركسي المتمثل في الأغاني والأناشيد، خاصة فيما يتعلق بالرثاء، ذلك لأن

الأمثال الشركسية تحتوي على الايجاب وكذلك السلب، وهي تصف بصورة معبرة مواقف الناس وأخلاقهم وعاداتهم وشخصياتهم، وتتميز بطابعها الشعري، وفي معظم الحالات تكون مقفاة

يمثّل الشاعر الشركسي فيصل حبطوش شعراء الشتات والغربة، والشتات والغربة هو داء عانى منه الشراكسة طويلاً، فهم أكبر شعب اقتلع عن موطنه الأصلي في هجرة جماعية


إبداع في الصناعات اليدوية

معظم الكتابات تصور الوطن والحروب، وما يتأتى عنها من قتل وتدمير وموت، ومرثية (جان) خير ما يمثل هذا النوع من الأناشيد، وقد حمل الشراكسة هذا التراث معهم أينما ذهبوا وأينما حلوا، سواء في الأدب المكتوب أو في الأدب الشفهي.

أثر العادات والتقاليد الشركسية في أدب الشراكسة العربي

تحدثت الكاتبة عن أثر العادات والتقاليد في أدب الشراكسة العربي في آخر فصول الكتاب، وبدأت بعادة «عدم إغداق الدلال والحب على الطفل»، بهدف أن يشب الطفل فارسًا شجاعًا يدافع عن الأمة والوطن، وقالت عن عادة التدليل: إنها مرفوضة تمامًا، وتطرقت إلى عادات اللباس عند الرجل والمرأة الشركسية وتقاليده المرتبطة بوصف الجسد المثالي الشركسي سواء للرجل أو المرأة، وعادات الزواج الشركسي والرقص الشركسي وتقاليدهما.

ثم تحدثت عن «قوة الشركسي وجلده وتحمله»، وهي عادة مرتبطة بعادات الفروسية، فليس من حق الشركسي - حسب العادة - أن يبكي أو يبدي حزنه على عزيز فقده مهما كانت مكانته. حتى النساء حرمتهن هذه العادات من البكاء والعويل، وقد حمل الشراكسة هذه العادات معهم حين نزحوا عن الوطن الأم وحافظوا عليها.

وخلصت الكاتبة إلى أنها بحثت، «من خلال الأدب، قضية الشراكسة، عبر وطنهم المتعدد، من القفقاس، إلى البلاد العربية، التي مثلت الوطن الثاني - الدين الإسلامي، الذي صهر، في بوتقته، الشعوب التي اعتنقته فضمها إلى أرجائه معطيًا إياها شعور الانتماء، وقد اكتشفت أن للأدب الشركسي - العربي شخصية مميزة تمثلت واضحة خلاله»، وبانتقالها، عبر الأدب، تاريخيًا وجغرافيًا، وجدت الوطن يتجلى في عدة صور.

وتمنت الكاتبة في خاتمة الكتاب أن يكون هذا البحث بداية لبحوث تستكمل الدراسات المتعلقة بشعوب القفقاس «التي قام العرب، قديمًا، من مؤرخين، وجغرافيين، ورجال دين باستكشافها، في حين كف الأحفاد العرب عن هذه المهمة حتى كادت المنطقة، بشعوبها وتاريخها وقضاياها، ثم بأدبها، تشبه الطلاسم، التي لا تحتاج، في فكها، إلى قوى السحر، بل إلى قوة المعرفة».

ويقع الكتاب في ٤٨٠ صفحة من القطع المتوسط، ولم ترد فيه إشارة إلى اسم الناشر أو تاريخ النشر أو مكانه.

شارك أحمد محرم بشعره في الدفاع عن فلسطين حتى دعي بشاعر القضية الفلسطينية، وهو واحد من شعراء شراكسة كُثر دافعوا بشعرهم بالعربية وبالشركسية عن قضية فلسطين

عبداللطيف البغدادي

العـــالم الموســـوعي والطبيب



مكتبة البودليان

...ب الإكلينيكي

بركات محمد مراد

القاهرة – مصر

يعدّ موفق الدين عبد اللطيف البغدادي من العقول الممتازة في تاريخ الفكر العربي، جمع بين التحصيل الوافر الدقيق لكل من العلوم المعروفة في عصره وأصالة الفكر، ودقة المنهج العلمي، والقدرة على النفوذ إلى جوهر المشكلات العلمية. فقد أتقن علوم العربية حتى صار من أعلام النحاة، وحدّث فتخرج على يده نفر من المحدثين، وفاض في علوم البلاغة فكان له فيها عدة مؤلفات، لكن هذا الجانب الفقهي الخالص كان مع ذلك أضعف جوانبه. إنما قيمته كل القيمة في العلوم العقلية كما كانت تسمى آنذاك: في الفلسفة والجغرافيا، والطب والنبات. وأبرز ما له في الفلسفة أبحاثه في المنطق التي تنبه فيها لكبريات المشكلات المنطقية فأفرد لها الرسائل. أما الطب فكان يمارسه علمًا وعملاً وتعليمًا، وله فيه الدراسات الوافرة والمختصرات المفيدة لمتعلمي الطب، فضلاً عن أصالة المنهج في الملاحظة والتشخيص والكشف عن الأسباب والعلامات.

«إن ما تراه أعيننا أصدق بكثير مما نقرؤه» قال هذه الجملة، التي إن دلت على شيء فإنما تدل على عقلية العرب الناقدة، طبيب وعلامة من أصفياء صلاح الدين يدعى عبداللطيف البغدادي أمضى حياته متنقلاً في كل مدن إمبراطورية المشرق، وعلّم في مدارسها العالية. وكان أينما ذهب وحط الرحال يسخّر عينيه وعقله باحثًا منقبًا مستفهمًا عن الحقيقة.

وفي القاهرة أخبره أحدهم بوجود تل كبير من الهياكل العظمية البشرية، في مكان ما، فاستيقظ وفي نفسه حب الاستطلاع العلمي، وانطلق دون أي تردد في اتجاهها، قائلاً ما معناه: «لقد سافرنا إلى الخارج ورأينا آلافًا من العظام والأرجل ففحصناها فحصًا دقيقًا، وحصّلنا على معارف جمة من هذه الدراسة، معارف لم نكن لنحصل عليها بين دفات الكتب. وقد علمنا جالينوس أن الفك الأسفل مؤلف من قطعتين من العظم يجمع بينهما تدريز. ولكننا فحصنا أكثر من ألفين منها، ولم نجد فكًا سفليًا واحدًا له عظمتان، إنه عظمة واحدة دون أي تدريز. وانظر هناك إلى مستدق الظهر، إنه مؤلف من قطعة واحدة من العظم، وليس من ست كما قال جالينوس. ونحن نؤمن بالبراهين التي تقدمها لنا الحواس أصدق بكثير وأكثر إقناعًا من البراهين المستندة إلى بعض أساطين العلم!» هكذا قدمت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه شخصية البغدادي في مؤلفها الكبير «شمس الله تسطع على الغرب»، الذي أرخت فيه لعباقرة العرب والمسلمين في مختلف اتجاهاتهم العلمية.

ومن هنا لم يكن غريبًا أن يعجب به مؤرخ العلم الكبير جورج سارتون الذي مدحه في كتابه «المدخل إلى تاريخ العلوم» وذكر أنه يمتاز من غيره بأسلوبه السهل،

واضح الأفكار، فالبغدادي عالم فذ ومن أعظم الموهوبين في عصره. وقد ساهم مساهمة ملحوظة في جميع فروع المعرفة، فهو من العلماء الذين لا يؤمنون بالرواية المتناقلة، بل يميل تمامًا إلى المشاهدة والتجربة العلمية، لكي يصل إلى النتائج الصحيحة.

نشأة البغدادي ورحلاته العلمية

ويُعدّ البغدادي بنشأته أنموذج الإنسان المسلم الذي اجتمعت في شخصيته وتكوينه العلمي، الأسس الدينية، والنشأة الروحية مع وشائج العلوم العقلية التي نقلها العرب عن الأمم السابقة، فامتزجت في بنيته المعرفية عناصر شرقية روحية أساسية مع مكتسبات غربية عقلية، وتمكن من تحقيق الجمع بين المعقول والمنقول، والمزاوجة بين التراث العربي الإسلامي التجريبي والعلوم العقلية اليونانية الوافدة، ولكن بنزعة نقدية.

وقد ولد موفق الدين عبداللطيف البغدادي في دار جدة في بغداد سنة ٥٥٧هـ - ١١٦١م، وهو من أصل موصلي، وكان والده من علماء الحديث والقراءات، وأما عمه فكان من كبار الفقهاء. نشأ البغدادي في دار علم، فدرس النحو وعلم الكلام وعلوم العربية حتى صار حجة في اللغة العربية، يقول عنه ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء»: «إنه كان مشهورًا بالعلوم، متحليًا بالفضائل، مليح العبارة، كثير التصانيف، وكان متميزًا في النحو واللغة العربية، عارفًا بعلم الكلام والطب. وكان قد اعتنى كثيرًا بصناعة الطب، كما كان بدمشق واشتهر بين علمائها. وكان يتردد إليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه.. وكان كثير الاشتغال، لا يخلي وقتًا من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة». كما يصفه ابن أبي أصيبعة بأنه «شيخ نحيف الجسم، ربع القامة، حسن الكلام، جيد العبارة، وكانت مسطرته أبلغ من لفظه». وهذا ليس بغريب على العلماء العرب والمسلمين الأوائل الذين جمعوا بعبقرية واضحة بين علوم التراث والعربية والعلوم الوافدة من الحضارة الهندية والفرسية واليونانية.

ولا أدل على عمق تربيته العلمية، من تحصيله كثيرًا من العلوم والمعارف والفنون المنتشرة في عصره، بل تحصيله معظم التراث العربي والإسلامي السابق عليه، وهذا ما نتبينه من ترجمته لنفسه التي يورد بعضها ابن أبي أصيبعة، إذ يقول: «إنه تربى في حجر الشيخ أبي نجيب السهروردي، لا يعرف اللعب واللهو، وأكثر زمانه منصرف إلى سماع الحديث. وأخذت له إجازات العلم من شيوخ بغداد وخُراسان والشام ومصر، ولما ترعرع حمله أبوه إلى كمال الدين عبدالرحمن الأنباري (ت ٥٧٧هـ) شيخ بغداد فتلقى عنه كثيرًا من العلوم. ويورد البغدادي كثيرًا من الكتب والمؤلفات التي حفظها وفهمها مثل «اللمع»، و«أدب الكاتب» لابن قتيبة، و«مشكل القرآن»، و«غريب القرآن» له أيضًا، و«الإيضاح» لأبي علي الفارسي وشروحه، و«المقتضب» للمبرد، ومؤلفات الأنباري التي تبلغ أكثر من مئة وثلاثين مؤلفًا أكثرها في النحو واللغة والأصول والتصوف والزهد. وكتب سيبويه، و«الأصول» لابن السراج، و«الفرائض» و«العروض» للخطيب التبريزي، و«معاني القرآن» للزجّاج. ثم أتى على كتب «جابر ابن حيان» في الكيمياء وكتب «ابن وحشية»، ثم مؤلفات الإمام الغزالي «المقاصد»، و«معيار العلم»، و«ميزان العمل» وغيرها، حتى إذا فرغ من الغزالي انتقل إلى كتب ابن سينا صغارها وكبارها بدءًا من النجاة وانتهاء بالشفاء.

ويقول: إنه استمر ببغداد حتى «لم يبق ببغداد من يأخذ قلبي، ويملأ عيني، ويحل ما يُشكل عتيّ» فرحل إلى الموصل سنة ٥٨٥هـ، حيث وجد فيها عالمها الفذ الكمال بن يونس الذي جمع بين المهارة الرياضية والفقه، وقد أقام بالموصل بعد أن امتهن التدريس بمدرسة ابن مهاجر المعلقة، ودار الحديث التي تحتها يتابع العلم



فيزاليوس أيد البغدادي في آرائه

والتعليم، ثم أخذ في قراءة مؤلفات السهروردي المقتول سنة ٥٨٧هـ، مثل «التلويحات» و«اللمحات»، و«المعارج»، وقد هاجمه البغدادي هجومًا شديدًا، ولم يوافق على تصوفه الفلسفي. ثم رحل عن الموصل إلى دمشق سنة ٥٨٦هـ، حيث قابل وناظر كثيرًا من العلماء هناك مثل ابن طلحة الكاتب، وابن العطار المقتول، وابن هبيرة الوزير، والكندي البغدادي النحوي».

«وقد وضع كثيرًا من مؤلفاته في دمشق في علم الحديث واللغة وأصول الدين. وفيها وجد شيخه المغربي القديم عبدالله بن تاتلي الذي فتح له أبواب العلوم العقلية. ثم توجه موفق الدين من دمشق إلى زيارة القدس، ثم إلى عسكر صلاح الدين الأيوبي بظاهر عكا. وكان البغدادي من المعجبين بالسلطان صلاح الدين، وقد تمكن من مقابلته سنة ٥٨٨هـ - ١١٩٢م»، وينقل لنا عبدالكريم شحاتة عنه في بحثه «أضواء على الطب العربي والعالم الموسوعي عبداللطيف البغدادي» إذ يقول: «فرأيت ملكًا عظيمًا يملأ العين روعة، والقلوب محبة، قريبًا بعيدًا، سهلاً محببًا وأصحابه يتشبهون به،

وكان مهتمًا ببناء سور القدس وحفر خندقه، يتولى ذلك بنفسه، وينقل الحجارة على عاتقه، ويتأسى به جميع الناس: الفقراء والأغنياء، والأقوياء والضعفاء، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل». كما يصف صلاح الدين بأنه كان يصطفي العلماء، ويحسن الاستماع إليهم، ويشاركهم في البحث والحديث، ويرى أن من أسباب نجاح صلاح الدين استشارته العلماء وكثرة جلوسه إليهم، فلم يستبد برأيه، ولكنه شارك العلماء في عقولهم باستماعه إلى مشورتهم وآرائهم.

لقد زار البغدادي كثيرًا من المدن الإسلامية المشهورة بعلمائها مثل الموصل ودمشق والقاهرة والقدس كي يتلمذ لكبار العلماء هناك. ويجالس كثيرًا منهم، ودرّس في الأزهر الشريف حقل الطب، وتفنن في هذا المجال حتى صار من كبار الأطباء. لقد كان البغدادي كثير الترحال بين مختلف البلدان العربية والإسلامية، وكان يحمل معه من الكتب ما استطاع، ويضيف ويكمل ما ابتدأ به أنى حل وأقام. ويجمع المؤرخون والمترجمون على أن البغدادي كان شديد الذكاء، سريع الحفظ، واسع الاطلاع، غزير المعرفة، وكان عالمًا باللغة والفقه والتاريخ والفلسفة، والطب والنبات، كما كان كثير التأليف، خصب الإنتاج، ألّف وصنّف كتبًا كثيرة في الطب والنحو والمنطق وأصول الدين والحيوان والنبات،

اشتهر البغدادي باستقلاله في الرأي، فكان لا يأخذ بما سلم به علماء العرب والمسلمين من آراء علماء اليونان، مثل جالينوس في الطب وديسقوريدس في علم النبات، وأرسطو في علم الحيوان وغيرهم



رسم متخيل للقائد صلاح الدين

وشرح وفسّر واختصر كثيرًا من الكتب للأقدمين. وكان كثير الاعتداد بنفسه، صريحًا جريئًا، لاذع النقد، وعرف عنه أنه كان متعصبًا للعلماء العرب، وخصوصًا العراقيين منهم، في غير إسراف، ويكرمهم، ويُعلي من قدرهم، ويبالغ في تعظيمهم.

ويستعرض الباحث أحمد عيسى في كتابه «تاريخ النبات عند العرب» حياة البغدادي ويقول: «خطر للبغدادي أن يحج ويجعل طريقه على بغداد، وأن يقدم للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه ولما وصل بغداد مرض في أثناء ذلك وتوفي في الثاني عشر من المحرم سنة ٦٢٩هـ، ودفن بالوردية عند أبيه بعد أن غاب عن بغداد خمسًا وأربعين سنة.

البغدادي في مصر

وقد رحل عبداللطيف البغدادي إلى مصر، ويرجّح الدكتور عبدالرحمن بدوي في كتابه «دور العرب في تكوين الفكر الأوربي» دخوله مصر سنة ٥٨٧هـ، حيث جاءه وكيل القاضي الفاضل بها، وهو الشاعر المشهور

البغدادي من كبار الصيادلة العرب والمعتمدين في استخراج عقاقيرهم من النباتات التي تجود بها البيئة العربية، ومن الذين عرفوا الأعشاب وخصائصها الطبية

ابن سناء الملك (المتوفى سنة ٦٠٨هـ) فأنزله دارًا، وجاءه بدنانير وغلة، وعرّفه إلى أرباب الدولة في مصر قائلاً: إنه ضيف القاضي الفاضل. يقول البغدادي: «فدارت الهدايا والصلات من كل جانب، وكل عشرة أيام أو نحوها، تصل تذكرة القاضي الفاضل إلى ديوان مصر مهمات الدولة، وفي فصل يؤكد الوصية في حقي. وأقمت بمسجد الحاجب لؤلؤ - رحمه الله - أقرئ الناس». وعلى ما يذكر القفطي في كتابه «إنباء الرواة



جمع العلماء العرب بين علوم التراث والعلوم الوافدة

ج٢، ص ١٩٤» إذ يؤكد أن البغدادي «نزل في مسجد باب زويلة، وتعرف بالحاجب لؤلؤ».

وهنا يذكر لنا موفق الدين أنه قصد من رحلته إلى مصر لقاء ثلاث أنفس: «ياسين السميائي، والرئيس موسى بن ميمون اليهودي، وأبا القاسم الشارعي، وكلهم جاؤوني. أما ياسين فوجدته محاليًا كذابًا مُشعبذا، يشهد للشاقاني بالكيمياء، ويشهد له الشاقاني بالسيمياء، ويقول عنه: إنه يعمل أعمالاً يعجز موسى بن عمران عنها، وإنه يحضر الذهب المضروب متى شاء، ومقدار ما شاء، وإنه يجعل ماء النيل خيمة، ويجلس فيه وأصحابه تحتها، وكان ضعيف الحال». ويبدو أن البغدادي كان لا يزال يهتم بعلوم الصنعة (الكيمياء) حين قدومه إلى مصر، بيد أنه لم يجد لديه شيئًا يفيده في تحصيل ما رجاه.

أما الشخص الثاني الذي قصد لقاءه فهو موسى بن ميمون، ويقول عنه البغدادي: إنه وجده «فاضلاً لا في الغاية؛ قد غلب عليه حب الرياسة وخدمة أرباب الدنيا، وعمل كتابًا في الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس، ومن خمسة كتب أخرى .. وعمل كتابًا لليهود سماه كتاب «الدلالة» (يقصد دلالة الحائرين)، ولعن من يكتبه بغير العلم العبراني، ووقفت عليه فوجدته كتاب سوء يفسد أصول الشرائع والعقائد بما يظن أنه يصلحها».

والشخص الثالث هو أبو القاسم الشارعي، والبغدادي يمجد فيه ويقول عنه: إن «سيرته سيرة الحكماء والعقلاء، وكذا صورته. قد رضي من الدنيا ببرض لا يتعلق منها بشيء يشغله عن طلب الفضيلة، ثم لازمني فوجدته قيمًا بكتب القدماء وكتب أبي نصر الفارابي. ولم يكن لي اعتقاد في أحد من هؤلاء؛ لأني كنت أظن أن الحكمة كلها حازها ابن سينا وحشاها كتبه». ولكن الشارعي أخذ يحاضره شيئًا فشيئا بكتب أبي نصر الفارابي والإسكندر الأفروديسي وثامسطيوس،



يُعدّ البغدادي بنشأته أنموذج الإنسان المسلم الذي اجتمعت في شخصيته وتكوينه العلمي، الأسس الدينية، والنشأة الروحية مع وشائج العلوم العقلية

اجتذابًا له حتى أقبل على هذه الكتب.

وحين عاد إلى دمشق، وأكب على الاشتغال بالعلم، وإقراء الناس بالجامع الأموي يقول: إنه كلما أمعن في كتب القدماء من اليونان ازداد منها رغبة، وفي كتب ابن سينا زهادة، وتبين له بطلان الكيمياء (تحويل المعادن الخسيسة إلى الذهب) وعرف حقيقة الحال في وضعها ومن وضعها، وما كان قصده في ذلك. وفي مصر كان يقرئ - كما يقول ابن أبي أصيبعة - الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون، وفي الليل أشتغل على نفسي، ولم أزل على ذلك إلى أن توفي الملك العزيز».

ويصف البغدادي، في دقة ملاحظة علمية كبيرة، أرض مصر في كتابه، ويقول: إن أرضها رملية لا تصلح للزراعة. ولكن يأتيها طين أسود فيه دسومة كثيرة يسمى الإبليز، يأتيها من بلاد السودان مختلطًا بماء النيل عند مدّه فيستقر الطين، وينضب الماء فيحرث ويزرع، وكل سنة يأتيها طين جديد، ولهذا يزرع جميع أراضيها، ولا يُراح شيء منها كما يفعل في العراق والشام.

مؤلفاته

أورد ابن أبي أصيبعة في الجزء الثاني من كتابه الكبير ثبتًا حاملاً أسماء مؤلفات موفق الدين عبداللطيف البغدادي يتضمن ١٧٢عنوانًا بين مقالة صغيرة وكتاب كبير، وهي مؤلفات تتوزع بين الأقسام الآتية: اللغة وعلومها، والفقه، والنقد الأدبي، والطب، وعلمي النبات والحيوان، والفلسفة بكل فروعها، وعلم التوحيد، والتاريخ، والحساب والعلوم، والتعليم، والسحر، والمعادن، ومنوعات. ومن يتصفح عناوين كتبه ورسائله يجدها شديدة التنوع، وفي مختلف الفنون والتخصصات، فإذا نظرنا مثلاً في كتبه الفلسفية وجدناها تتوزع بين الإلهيات والطبيعيات والمنطق، وأوفرها حظًا من التأليف هو المنطق.

كما نجد له مؤلفات نقدية في الرد على اليهود والنصارى، وفي الرد على ابن سينا، فضلاً عن عروض وافية من التلخيص والشرح والتحليل والتفسير لمؤلفات اليونان بدءًا من الطبيعيين وانتهاء بأفلاطون وأرسطو والفلاسفة المتأخرين.

ويا للأسف لم يبق من مؤلفاته إلا بضعة مؤلفات تكشف عن عقلية كبيرة وموسوعية. وقد اهتم البغدادي بعلم النبات، فتلمذ لمؤلفات كل من ابن وافد والدينوري وغيرهما من علماء العرب والمسلمين الموسوعيين، في هذا المجال الخصب. كما درس عن كثب كتاب الحشائش لديسقوريدس، وعلق عليه، وشرح الكثير منه. لذا يُعدّ البغدادي من كبار علماء النبات.

ويذكر عمر رضا كحالة في كتابه «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» أن البغدادي اختصر كتاب الأدوية المفردة لابن وافد، وعلق عليه، كما أوجز كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري، وعلق، وشرح على كتاب ديسقوريدس في صفات الحشائش ومقاله في النخل، كما ذكر تفاصيل ما شاهده من نبات مصر، وشرح بعضه، وعلق عليه. وهنا يجب ألا ننسى دور البغدادي في علمي النبات والصيدلة، فهو من كبار الصيادلة العرب والمعتمدين في استخراج عقاقيرهم من النباتات التي تجود بها البيئة العربية، ومن

الذين عرفوا الأعشاب وخصائصها الطبية. فكان في عصرهم الطبيب هو النباتي، والنباتي هو الطبيب، لقرب الصلة بين المهنتين، كما كان البغدادي من العلماء الذين يؤمنون بضرورة الزيارات للعلماء المتخصصين، كي يتمكنوا من تبادل الخبرة والمعلومات التي يستطيعون تقديمها بالمراسلة، ويعترف بأن المناقشة الشفوية مفيدة جدًا، بل لا غنى عنها للباحث في أحد مجالات المعرفة، فلا تكفي قراءة الكتب وكراريس العلم. لذا نجد البغدادي من الذين دونوا مشاهداتهم للنبات في مختلف بقاع العلم، فإنتاجه العلمي متكامل من الناحيتين النظرية والتجريبية.

وقد اشتهر البغدادي بمؤلفه «الإفادة والاعتبار بما في أرض مصر من الآثار» وهو في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، وقد وصف فيه أرض مصر من حيث السكان والحيوان وطبيعة الأرض. ويذكر عمر فروخ أنه تكلم هنا على الأبنية وعلى أنواع الأطعمة والأشربة الراهنة، بعدئذ يتكلم على النيل، وينقد الخرافات المتعلقة بمنابعه وسبب فيضانه، وأخيرًا يصف القحط الذي حل بمصر سنة ٥٩٧هـ ـ١٢٠٠م، وما رافقه من مجاعة امتدت حتى أكل الناس البهائم، وأكل بعضهم بعضًا.

ويذكر المستشرق ماكس ما يرهوف في« تراث الإسلام» أن البغدادي رحل من بغداد إلى القاهرة ليرى كبار العلماء وأرض مصر، كما وصف المجاعات والزلازل التي حدثت فيها. وقدم البغدادي معلومات نفيسة عن خواص العظام بعد دراسة لها في مقبرة قديمة تقع شمال غرب القاهرة، وراجع وصحح وصف جالينوس «لعظم الفك الأسفل وعظم العجز».

ولم يبق من مؤلفات البغدادي إلا بعض الكتب القليلة، منها الكتاب السابق في وصف مصر، ومخطوطته في مكتبة البودليان في أكسفورد، وقد ترجم إلى الألمانية عام ١٧٩٠م، والفرنسية عام ١٨١٠م، والإنجليزية عام ١٩٦٤م. وهناك كتاب «ما بعد الطبيعة» الذي ذكره الدكتور عبدالرحمن بدوي، في مكتبة حكمة تيمور نسخة منه، وفي إستانبول نسخة أخرى، وكتاب «مقالة في الحواس والمسائل الطبيعية» في مكتبة الأسكوريال. وقدّم الدكتور بول غليونجي وسعيد عبده لها في مقالتهما في الحواس. وقدما قائمة بمؤلفات البغدادي تصل إلى سبعة وستين كتابًا ومقالة.

كما يستعرض الدكتور عبدالرحمن بدوي فصول كتاب «ما بعد الطبيعة» الذي تناوله في أربعة وعشرين فصلاً، كما عرض لبعض مقالاته المنطقية، مثل «مقالة تزييف الشكل الرابع»، و«مقالة في تزييف ما يعتقده أبو علي ابن سينا من وجود أقيسة شرطية تنتج نتائج شرطية». ويقول بدوي: إن المقالة الأولى تثير مشكلة من أطرف المشكلات التي لا تزال يعنى بها المناطقة حتى اليوم، وهي: هل يوجد شكل رابع مستقل عن الأشكال الثلاثة الأولى للقياس؟ ونحن نعلم كيف تعاقب على حلها المناطقة الأوربيون في النصف الأخير من القرن الماضي ومستهل هذا القرن. وكيف أنهم انتهوا إلى ما انتهى إليه صاحبنا عبداللطيف البغدادي من تزييف الشكل الرابع.

ومن هنا يقول بدوي: «لهذا كم كنا نشتاق إلى معرفة كيف زيف هو الشكل الرابع وماذا كانت حجته! ومن يدري فلعل هذه المقالة لو وجدت لأغنت لاشلييه وجوبلو عن الخوض في هذه المسألة! ومن يدري لعل حججه

يجمع المؤرخون والمترجمون على أن البغدادي كان شديد الذكاء، سريع الحفظ، واسع الاطلاع، غزير المعرفة، وكان عالمًا باللغة والفقه والتاريخ والفلسفة، والطب والنبات

وحججهما متشابهة في هذا الباب».

ثم يتابع بدوي: إن المقالة الثانية تؤذن بأصالة وعمق إدراك منقطعي النظير، لأن مشكلة الأقيسة الشرطية التي تنتج نتائج شرطية من المشكلات التي تسبب في وجودها ابن سينا، وقد أثيرت في العصر الحديث، أثارها كينز في كتابه «دراسات وتمرينات في المنطق الصوري»، ويمكن الرجوع إلى مؤلف بدوي «المنطق الصوري والرياضي» لمتابعتها، وأثارها كذلك إيبرمك وزجفرت وجفنز، كما أثيرت بين المناطقة العرب أنفسهم، وأصح الآراء اليوم هو الذي يقول بمثله صاحبنا عبداللطيف البغدادي من تزييف هذا النوع من الأقيسة الشرطية التي تنتج نتائج شرطية: لأن معظمها مناف للطبع، وشكلي لفظي محض.

الاهتمام بالمصطلحات الطبية والعلمية

وفيما يتصل باهتمام الأطباء العرب والمسلمين من أمثال البغدادي بالمصطلحات العلمية والطبية التي ترجموها عن اليونانية، في محاولة جادة وعميقة لتأصيل مصطلحات تناسب العربية نجد لهؤلاء العلماء مجهودات دقيقة وعميقة، فقد توسع بعض الأطباء العرب في عملية تعريب المصطلح اليوناني، وعقدوا لذلك فصولا مستقلة في كتاباتهم، كما فعل القلانسي السمرقندي سنة ٦٢٠هـ، في كتاب «الأقراباذين» (الأدوية المركبة أو الفارماكولوجي) حين خصص الباب العشرين منه لموضوع (في تغيير أسامي الأدوية المركبة باليونانية) ثم تلاه بباب جعله بعنوان: (في شرح أسامي الأدوية المركبة بالعربية). وقد سار في هذا الكتاب مستكملاً جهود السابقين في معالجة المصطلح اليوناني ووضع البديل العربي له. وقد أدت جهود القلانسي، وكذلك البغدادي إلى ترادفات اصطلاحية، حاول علماء هذه المرحلة أن يحيطوا بها، كما نرى في «مختصر مفردات ابن البيطار». نجد هذا واضحًا عند البغدادي في شرحه على كتاب «تقدمة المعرفة» حيث يتوقف في المقالة الأولى من التعليم السادس عند قول أبقراط «فأما ما دون الشراسيف فأجود حالته ...» فيقول في بيان المصطلح: «قال الشيخ: الشراسيف، جمع شرسوف وهي مقاطع الأضلاع والغضاريف التي تنتهي إليها، وتنقطع عندها، وإنما يكون ذلك في الأضلاع السفلى التي تحت أضلاع الصدر السبعة» «شرح تقدمة المعرفة: المخطوط بدار الكتب المصرية». وفي موضع آخر يضع البغدادي اصطلاحًا جديدًا، ويفسره بقوله: «أعني بالأعضاء البيض العروق والعصب والأربطة والأغشية والغضاريف والعظام».

وفي إطار هذه الجهود الرامية إلى إقرار مصطلح طبي جديد ظهرت عند أطباء المرحلة مقدرة فائقة على ربط اللفظ العربي الجديد بالدلالة الخاصة به، وتأسيس المصطلح الطبي على إطار اللغة وجذور الاشتقاق، كما يظهر من خلال تلك التعليمات التي يقدمها ابن أبي عقيل سنة ٦٥٧هـ، صاحب مخطوط «بهجة الفكر» لتسمية طبقات العين - على ما تذكر الباحثة هناء فوزي عامر في كتابها «مناهج الأطباء العرب» - وابن النفيس في مؤلفاته الطبية، ولذلك لم يكن غريبًا أن يهتم البغدادي بالمصطلحات العلمية والطبية والنباتية، وتعريبها وتأسيس مصطلحاتها في اللغة العربية، خصوصًا أنه ذو شهرة

البغدادي يتلاقى مع أكبر علماء النبات في العصر الحديث بدقة وصفه، وبراعة التعبير، وحسن المشاهدة، ومع علماء الزراعة في تنظيم دورات الحقل بما يحقق أكبر إنتاج



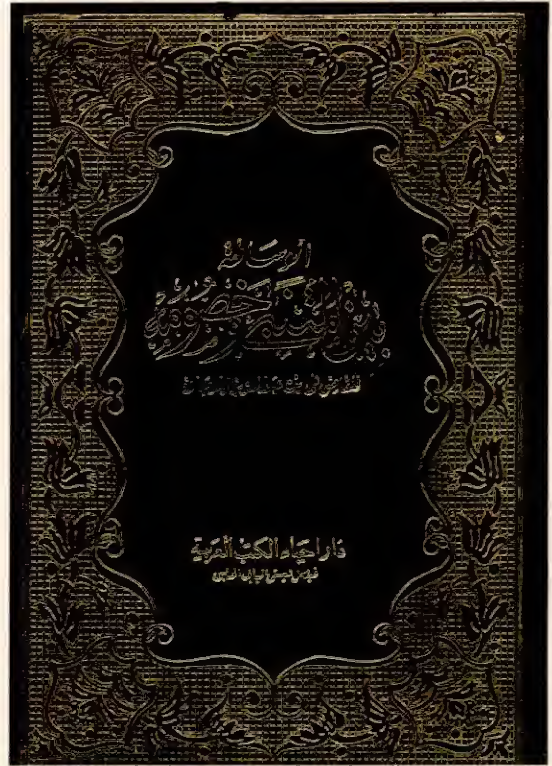
كبيرة في علوم اللغة، فقد وضع ثلاثة عشر مؤلفًا في اللغة وعلومها، على ما يذكر ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء»، وقد أسهم انضباط المصطلح الطبي واستقراره في انضباط البحث العلمي واتصاله بعيدًا عن أي تشتت منهجي يمكن أن يؤدي إليه عدم الدقة في استخدام المصطلح الطبي.

الملاحظة والشروح العلمية والاتجاه النقدي

وقد اشتهر موفق الدين عبداللطيف البغدادي باستقلاله في الرأي، فكان لا يأخذ بما سلم به علماء العرب والمسلمين من آراء علماء اليونان، مثل جالينوس في الطب وديسقوريدس في علم النبات، وأرسطو في علم الحيوان وغيرهم، إلا بالاستناد إلى الملاحظة العلمية الدقيقة والبرهان العلمي الواضح. لقد نهج منهج ابن الهيثم، وابن سينا في اعتمادهما على المشاهدة والاستقراء، وتحري الحقيقة، إذ يقدم لنا فكرة جيدة واضحة عن الطرائق التي كانوا يتبعونها لإيجاد أدلة في الرأي يؤيدون بها ما يقرؤون من الكتب. وهذه طريقة تبين إلى أي مدى كبير استقلالهم في الرأي ووسائلهم العلمية الصحيحة، وعدم خضوعهم إجمالاً إلا لحجية المشاهدة ودقة التحري، حتى فيما قال جالينوس، إذ انتقد جالينوس نقدًا صريحًا، وأظهر خطأه في التشريح معتمدًا على المشاهدة والفحص. وهذا يتضح مما يأتي:

كان الأطباء السابقون في القرن السادس الهجري يعتمدون في كتاباتهم الطبية على الأصول اليونانية المتمثلة في مجموعة أعمال أبقراط والمعروفة بالاثني عشر كتابًا، وأعمال جالينوس الستة عشر المعروفة باسم (جوامع منتخبات الإسكندرانيين)، ولم تظهر في هذه الفترة إلا لمحات نقدية عابرة نجدها هنا وهناك. وكان الأطباء العرب ـ على ما تذكر الباحثة هناء فوزي عامر في كتابها «مناهج الأطباء العرب» ـ في هذه المرحلة على وعي تام بالطبيعة التراكمية للعلم، وأهمية معاودة النظر في التراث الطبي السابق عليها. وكانوا في ذلك سباقين من الناحية التاريخية على بعض علماء مناهج فلسفة العلوم الذين نبهوا على الطباع التراكمي للمعرفة

نجد له مؤلفات نقدية في الرد على اليهود والنصارى، وفي الرد على ابن سينا، فضلاً عن عروض وافية من التلخيص والشرح والتحليل والتفسير لمؤلفات اليونان بدءًا من الطبيعيين وانتهاء بأفلاطون وأرسطو والفلاسفة



العلمية، وأهمية خاصية التكرار Recurring، وهي ميزة مهمة من ميزات المنهج العلمي.

تجلى هذا الملمح المنهجي بوضوح في هذا الكم الهائل من الشروح والتعليقات التي قام بها أطباء هذه المرحلة، ولا بد هنا من أن نقف عند مفهوم (الشرح).

اشتهر البغدادي بمؤلفه "الإفادة والاعتبار بما في أرض مصر من الآثار" وهو في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر"، وقد وصف فيه أرض مصر من حيث السكان والحيوان وطبيعة الأرض

وقد كان للبغدادي كثير من المؤلفات المهتمة بالشرح والتحليل. فهو لا يعني عندهم مجرد إعادة القديم فحسب، وإنما مراجعته وتنقيح مسائله، وتصحيح أغلاطه، ونقد محتواه، ويمكننا القول: إن الشرح في هذه المرحلة كان يعني: إعادة النص إلى الحياة. وبهذا المفهوم السابق لكلمة الشرح قام الكثير من الأطباء، ومنهم الدخوار وابن النفيس وعبداللطيف البغدادي وغيرهم بشرح أعمال أبقراط وجالينوس، ومن هنا كان إسهامهم في إحياء التراث اليوناني الطبي الذي كاد يندثر من جهة، والعمل على تطويره وتقدم العلوم الطبية بمختلف فروعها من جهة أخرى.

ولننظر إلى المقدمة المنهجية التي وضعها البغدادي في بداية شرحه على «تقدمة المعرفة» نجده عدّ عملية الشرح هي (وضع كتاب علمي على جهة معدلة)، يقول البغدادي في كتابه «شرح تقدمة المعرفة»: «إن كل واضع كتاب علمي على جهة معدلة .. فقصده تسهيله على المتعلم بثلاثة أوجه. ويفسر لنا البغدادي تلك الأوجه الثلاثة على النحو الآتي:

الأول: أن يجتنب اللفظ الوحشي والملبس والمغلط، ويجتهد أن يصور المعنى في نفس المتعلم بغاية الإمكان..

الثاني: أن يثبت الرأي بالحجج الممكنة والأدلة الواضحة.

الثالث: أن يرتب الموضوع ترتيبًا يسهل حفظه، ولا يصعب ضبطه.

ولم يكن البغدادي هنا يقدم صياغة نظرية فحسب، وإنما يحدد طريقًا عمليًا لما قام به بالفعل في شرحه، فنراه يحرص كل الحرص على تقديم آراء السابقين ورأي العلماء فيها وتحليلها ونقدها وتصحيح ما بها من أغلاط. وقد تجلت هذه النزعة النقدية. على ما يذكر الدكتور بول غليونجي في تقديمه مقالة «الإفادة والاعتبار». في أعمال عبداللطيف البغدادي بشكل بارز،

فهو في معرض حديثه عن آثار مصر واعتقاد العوام المعاصرين له في ضخامة أجسام الفراعنة، ينتقد هذه الفكرة العامية برجوعه إلى المومياوات الفرعونية، ثم يقدم تعليلاً لاعتقاد العوام فيقول: «وإذا رأى اللبيب هذه الآثار (يقصد التماثيل الضخمة للفراعنة) عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة، وأجسامهم عظيمة أو أنهم كان لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ... إلخ».

أما فيما يخص الطب والتشريح، فينتقد البغدادي ما ذهب إليه جالينوس في تركيب العظام، وهو يمهد لنقده بالإشارة إلى أنه اعتمد على مشاهدة (تل من الجثث يقرب من عشرين ألف جثة) واستنادًا إلى مشاهدات البغدادي لهذا التل يبدأ في تحرير كلام جالينوس، وتصحيح معلوماته قائلاً: «فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علمًا لا نستفيده من الكتب .. فإن كان جالينوس في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه، فإن الحس أصدق منه. ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرجًا إن أمكن، فمن ذلك عظم الفك الأسفل، فإن الكل أطبقوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك، وقولنا: الكل: نعني به هنا جالينوس وحده، فإنه هو الذي باشر التشريح بنفسه، وجعله دأبه ونصب عينيه، وصنف فيه عدة كتب، معظمها موجود لدينا ... والذي شاهدنا من حال هذا العضو أنه عظم واحد، وليس فيه مفصل، ولا درز أصلا، واعتبرناه ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصناف الاعتبارات فلم نجده إلا عظمًا واحدًا. من كل وجه، ثم استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه، وكذلك في أشياء أخر غير هذه».

ويتابع البغدادي تأكيده هذه الحقيقة استنادًا إلى المشاهدة الدقيقة حين يقول: «ثم إني اعتبرت هذا العظم أيضًا بمدافن بوصير القديمة، فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز، ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق، وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة، وأما العجز مع العجب فذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة أعظم، ووجدته أنا عظمًا واحدًا، واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظمًا واحدًا، ثم إني اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس، وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال إلا في جثتين فقط، فإني وجدته فيهما عظمًا واحدًا، وهو في الجميع موثق المفاصل، ولست واثقًا بذلك، كما أنا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل».

ويعلق الدكتور بول غليونجي قائلاً: «لقد استمر جالينوس في (عظمتي) الفك زمنًا طويلاً، فقد أخذ برأيه ابن سينا عند وصفه تشريح عظام الفكين، واستمر هذا الرأي سائدًا حتى بعد عبداللطيف إلى أن أعاد نقده عملاق التشريح فيزاليوس Vesalius في القرن السادس عشر، وكأننا عند قراءة وصفه نستمع إلى عبداللطيف البغدادي يملي ملاحظاته على تلاميذه، ونرى عبداللطيف يفحص ما يزيد على ألفي جمجمة، ثم يكلف غيره بمشاهدتها. ثم يتوجه إلى مدافن بوصير، لعل العظام هناك تختلف عنها في

لم يكن غريبًا أن يهتم البغدادي بالمصطلحات العلمية والطبية والنباتية، وتعريبها وتأسيس مصطلحاتها في اللغة العربية، خصوصًا أنه ذو شهرة كبيرة في علوم اللغة

المقس، وكأنه توقع اعتراض معترض بأن الدروز لا تظهر في الجثث الحديثة، فرد بهذا مُسبقًا على طبيب القرن السادس عشر الذي صرح بأن الطبيعة إذا اختلفت من أقوال جالينوس فإنها اختلفت لتغيير طرأ عليها على مرّ الزمن.

ونلاحظ هنا أن المشاهد والملاحظة الدقيقة كانت هي سند البغدادي في تسجيله لحقائق التشريح، ذلك العلم الذي كان يتقدم على يد المسلمين على استحياء، وذلك لتحرج كثير من الفقهاء من عمليات التشريح، خصوصًا أن للجسم البشري كرامته الوافرة في المنظور الإسلامي. وقد كانت الملاحظة الإكلينيكية التي تقوم على تتبع أحوال المرضى في البيمارستان أو في غيره هي أهم أنواع الملاحظة عند الأطباء العرب. وقد حفظت لنا كتب الطب السابقة لهذه المرحلة ما لا حصر له من الملاحظات الإكلينيكية (السريرية)، منها ما يحتشد في كتاب طبي مهم كان في مرحلتنا الممتدة بين القرنين السادس والسابع الهجريين، من أهم كتب الطب المعتمدة، وذلك هو كتاب (الحاوي) الذي جمع فيه الرازي عبقري الطب الإسلامي ما لا حصر له من ملاحظات سريرية، ودوَّن فيه ما شاهد من أحوال المرضى.

أما في النصوص الخاصة بالمرحلة التي عاش فيها البغدادي، فهناك الأقوال التي نجدها عند الأطباء في أهمية هذا النوع من الملاحظة، يقول البغدادي «وقد ينبغي أن تجعل نظرك في جميع الأمراض الحادة على هذا الطريق، انظر أولاً، إلى وجه المريض، هل يشبه وجوه الأصحاء؟ وخاصة هل يشبه ما كان عليه؟ فإنه إذا كان كذلك فهو على أفضل حالاته، فأما الوجه الذي هو من المضادة لذلك الوجه، أشبه في الغاية بما كان عليه فهو أردأ الوجوه». وهذا الذي يقوله في كتابه «تقدمة المعرفة» يؤكده في كتاب «الإفادة والاعتبار»، وقد كانت الملاحظة بمعناها العام هي السبيل الذي انتقد به البغدادي قول جالينوس في تركيب العظام - كما أشرنا إلى ذلك من قبل - حيث قال: «ما شاهدناه مخالف لما قيل، والحس أقوى دليل من السمع» وقوله: «والذي شاهدناه من حال هذا العضو .. إلخ» إلى قوله «وضعنا مقالة في ذلك تحكي ما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس».

ويظهر لنا جليًا أن البغدادي ليس فقط مشهورًا في الطب والتشريح، ولكنه من المتضلعين من علم النبات. فقد أثبت أن اطلاعه عميق في مختلف العلوم الطبيعية يقول عبدالرزاق نوفل: إن البغدادي يتلاقى مع أكبر علماء النبات في العصر الحديث بدقة وصفه، وبراعة التعبير، وحسن المشاهدة، ومع علماء الزراعة في تنظيم دورات الحقل بما يحقق أكبر إنتاج بخصوبة الأرض من جودة التوزيع والتنويع.

اشتهر البغدادي باستقلاله في الرأي. فكان لا يأخذ بما سلم به علماء العرب والمسلمين من آراء علماء اليونان. إلا بالاستناد إلى الملاحظة العلمية الدقيقة والبرهان العلمي

البغدادي وعلاج السكر

يذكر لنا بول غليونجي أن عبداللطيف البغدادي كان له فضل الريادة في معرفة داء السكري، وإن كان الفضل في اكتشافه يرجع إلى علماء الصين، وذلك في القرن الثالث الميلادي عندما لاحظوا أن حلاوة البول تجتذب الكلاب. ثم درس علماء الهند هذا الموضوع دراسة دقيقة في القرن السادس الميلادي، وسموا المرض (بول العسل) لحلاوة هذا السائل ولزوجته. أما علماء العرب والمسلمين فهم الذين عرفوا أعراضه ومنهم العلامة



ارسطو

عبداللطيف البغدادي الذي قال من أعراضه: استرسال البول (كثرة البول)، العطش الشديد (نتيجة لكثرة البول)، وتعرض البدن للهزال والجفاف.

ويذكر عبدالكريم شحاتة، في مؤلفه عن البغدادي، أن الأقدمين كانوا يجهلون أن قصور البنكرياس في إفراز الإنسولين هو سبب السكر، وإن كان البغدادي تكلم على معالجة السكر والأدوية المختلفة التي تنفع فيه، وعن التغذية والحمية، وينصح بوجوب الخلود إلى الراحة النفسية بقدر الإمكان. ونرى البغدادي يحلق في التسلسل المنطقي في تعريفه ووصفه للعلامات السريرية لداء السكري ديابيطس Diabetes اعتمادًا على الملاحظة العلمية الدقيقة على الرغم من عدم توافر المعلومات الكيماوية والحيوية والفيزيولوجية التي نملكها الآن.

وصايا البغدادي العلمية والتربوية

ومن أقوال موفق الدين عبداللطيف البغدادي التي ذكر معظمها ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء»، وأعاد صياغتها عبدالرزاق نوفل في كتابه «المسلمون والعلم الحديث»، وهي وصايا جديرة بالفحص والتأمل:

- أوصيك ألا تأخذ العلوم من الكتب، وإن وثقت في نفسك من قوة الفهم. وينبغي أن تكثر اتهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها. واعرض خواطرك على العلماء، وعلى تصانيفهم، وتثبت ولا تتعجل، ولا تعجب فمع العُجب العثار، ومن لم يعرق جبينه إلى أبواب العلماء لن يعرق في الفضيلة، ومن لم يحتمل ألم التعلم لم يذق لذة العلم.

- ينبغي للإنسان أن يقرأ التواريخ، وأن يطلع على السير وتجارب الأمم، فيصير بذلك كأنه في عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية، وعاصرهم وعاشرهم، وعرف خيرهم وشرهم.

- استكثر من حفظ الأشعار الأمثالية، والنوادر الحكمية، والمعاني المستغربة.

- إياك والهذر، والكلام فيما لا يعني، وإياك والسكوت في محل الحاجة ، ورجوع النوبة إليك إما لاستخراج حق، وإما لاجتلاب مودة، وإما لتنبيه على فضيلة. وإياك والضحك مع كلامك، وكثرة الكلام، وتبتير الكلام، بل اجعل كلامك سردًا بسكون، بحيث يستشعر منك أن وراءه أكثر منه، وأنه عن خميرة سابقة، ونظر متقدم.

- وإذا تمكن الرجل في العلم والشهرة به، خطب من كل جهة، وعرضت عليه المناصب، وجاءته الدنيا صاغرة، وأخذها وماء وجهه موفور، وعرضه ودينه مصونان.

- العلماء لا يموتون أبدًا، وإنهم يخلدون في أعمالهم ومؤلفاتهم، وآثارهم الباقية، وعلمهم النافع، والعالم الحق من يضع لبنة في بناء العلم العظيم.



. ينبغي أن تحاسب نفسك كل ليلة إذا أويت إلى منامك، وتنظر ما اكتسبت في يومك من حسنة فتشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها، وتقلع عنها. وترتب في نفسك مما تعمله في غدك من الحسنات، وتسأل الله الإعانة على ذلك.

. إذا قرأت كتابًا فاحرص كل الحرص على أن تملك معناه، وتوهم أن الكتاب قد عدم، وأنك مستغن عنه، لا تحزن لفقده. وإذا كنت مُكبًا على دراسة كتاب تفهمه، فإياك أن تشتغل بآخر معه، واصرف الزمان الذي تريد صرفه في غيره إليه، وإياك وأن تشتغل بعلمين دفعة واحدة، وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله، فإذا قضيت منه وطرك فانتقل إلى علم آخر.

. ولا يحسبن المرء أنه إذا حصل علمًا فقد اكتفى، بل يحتاج إلى مراعاته لينمو، ومراعاته لا تكون إلا بالمذاكرة والتفكير.

. وإذا تصدى المعلم لتعليم علم أو للمناظرة فيه، فلا يمزج به غيره من العلوم، فإن كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره.

. إياك والغلط في الخطاب، والجفاء في المناظرة، فإن ذلك يذهب بهجة الكلام، ويسقط فائدته، ويعدم حلاوته، ويجلب الضغائن، ويمحق المودات، ويصير القائل مستقلاً بسكونه، وأنهى إلى السامع من كلامه، ويثير النفوس على معاندته، ويبسط الألسن بمخاشنته، وإذهاب حرمته.

المراجع والهوامش

. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢، بيروت عام ١٩٦٨م.

. زيغريد هونكه، شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، بيروت، ط٦، عام ١٩٨١م.

. د. علي عبدالله الدفاع، إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، بيروت عام ١٩٨٥م.

. د. عبدالرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، الأنجلو المصرية عام ١٩٦٧م.

. هناء فوزي عامر، مناهج الأطباء العرب، دار سعاد الصباح، القاهرة عام ١٩٩٣م.

. د. محمد عبدالرحمن مرحبا، الجامع في تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، ط٣، عام ١٩٨٩م.

. عبدالكريم شحاتة، أضواء على الطبيب العربي عبداللطيف البغدادي، بيروت عام ١٩٨٥م.

. د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، بيروت عام ١٩٨٠م.

صدر حديثاً

مكتبة و دار ابن حزم للنشر والتوزيع




توجيه مشكل القراءات العشرية الفرشية لغة وتفسيرا واعرابا
د. عبدالعزيز بن علي الحربي


الشرح الميسر على ألفية ابن مالك
د/ عبدالعزيز بن علي الحربي


نمو المعاني - دراسة تحليلية لسورة آل عمران
د. عادل حسني شكري يوسف


حديث مصعب بن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله ابن الزبير بن العوام
تحقيق / أبي عبدالباري رضا بوشامة الجزائري


الباقيات قراءات تراثية
د. محمد خير البقاعي


المعاني المستنبطة من سورة الفاتحة
تأليف / أبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري


تحريف الكلم والترجمة
د. محمد خير محمود البقاعي


صفات الله عز وجل في ضوء القرآن الكريم
جمع وتحقيق / عبدالله بن عبدالعزيز الدغيثر


الأسباب المشروعة لجلب الرزق وزيادته
تأليف / عصام بن عبدربه مشاحيت


قصيدة من إنشاء الحافظ أبي طاهر السلفي الاصبهاني
تحقيق / أبي عبدالباري رضا بوشامة الجزائري


الايمان العلمي تأصيلا وتطبيقا (١)
المدخل عن نظرية المعرفة
تأليف / أبي عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري


إلى أين مع الجديد؟ في فتنة الحداثة والمعاصرة
تأليف أ.د. إبراهيم السامرائي

وسيصدر قريبا إن شاء الله

- المدرسة الظاهرية في تفسير النصوص الدينية
تأليف: د. أحمد طاهر النقيب.
- قراءات في رحاب أشعار خالد الفيصل
المؤلف: مالك سليمانو
- تطريز الكساء في التساوي بين أسماء الرجال والنساء
تأليف / أحمد ابراهيم العلاونة.

مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع

الرياض - شارع السويدي العام - هاتف وفاكس ٤٢٧٥١١٧ / ٠١ جوال ٠٥٣١٢٢٩٣٥ / ٩٦٦+ - ص.ب ٢٢٥٦٦ الرياض ١١٤١٦

مسابقة الفيصل

أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣٣٢) صفر ١٤٢٥هـ/ إبريل ٢٠٠٤م.

الفائز الأول: إبراهيم محمد علي الريمي ـ تعز ـ اليمن.
الفائز الثاني: إبراهيم السيد حمزة ـ بورسعيد ـ مصر.
الفائز الثالث: أريج عبدالحميد الجلامدة ـ الزرقاء ـ الأردن.
الفائز الرابع: جمال عبدالله ـ بنان ـ تونس.
الفائز الخامس: أحمد مصلح عبدالخالق الشمراني ـ جدة ـ السعودية.
الفائز السادس: إسماعلي علوي هاشم ـ أرفود ـ المغرب.
الفائز السابع: خالد عبدالعزيز الشمري ـ القامشلي ـ سورية
الفائز الثامن: ريم فهد سلطان ـ الدوحة ـ قطر.

حل مسابقة العدد (٣٣٢)

١- لاتلق دهركَ إلا غيرَ مُكترثٍ
مادام يصحب فيه روحَكَ البدنُ
قائل البيت هو: المتنبي.

٢- الميثولوجيا: الأساطير المتصلة بالآلهة وأنصاف الآلهة والأبطال الخرافيين عند شعب ما.

٣- القلب الأرجواني: وسام أمريكي لجرحى الحرب.

٤- اللازوليت: معدن لازوردي الزرقة.

٥- المرزبان: حاكم ولاية فارسية قديمة.

أسئلة مسابقة العدد (٣٣٥)

ضع علامة ✓ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) من قائل هذا البيت: وتمتّع بالصبح ما دمت فيه   لا تخف أن يزولَ حتى يزولا!
- ☐ إيليا أبو ماضي
- ☐ أبو العلاء المعري.

(٢) الفرّيسيون:
- ☐ طائفة من يهود عهد المسيح عرفت بتمسكها بالطقوس والتقوى الكاذبة
- ☐ أتباع الإله فريس في الميثولوجيا الإغريقية.

(٣) سنحاريب:
- ☐ ملك آشور. أعاد بناء نينوى، ودمّر مدينة بابل
- ☐ أحد قواد الإسكندر المقدوني مؤسس السّلالة السلوقية.

(٤) الهوني:
- ☐ واحد الهُونْ، وهم شعب مغولي مترحل سيطر على جزء كبير من أوربا الوسطى والشرقية نحو عام ٤٥٠م
- ☐ وحدة وزن تساوي مئة باوند (في الولايات المتحدة الأمريكية) أو ١١٢ باونداً في إنجلترا.

(٥) الوشم:
- ☐ وادٍ كبير في وسط نجد بالمملكة العربية السعودية يعتقد أنه نهر توقف جريانه منذ آلاف السنين
- ☐ منطقة تضم الكثير من المدن والقرى في وسط المملكة العربية السعودية.

الاسم: ________ المدينة: ________ ص.ب: ________ هاتف: ________

العنوان: ________ الدولة: ________ الرمز البريدي: ________ ناسوخ: ________

نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات بالحروف الإنجليزية.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

الجائزة الأولى: ١٠٠٠ ريال.

الجائزة الثانية: ٧٠٠ ريال.

الجائزة الثالثة: ٥٠٠ ريال.

الجائزة الرابعة: ٤٠٠ ريال.

الجائزة الخامسة: ٢٥٠ ريالاً.

الجائزة السادسة: ١٥٠ ريالاً.

الجائزة السابعة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).

الجائزة الثامنة: مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.

والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا حظًا وافرًا لجميع القراء الأعزاء.

تنويه:

نفيد الإخوة المتسابقين أن المجلة ستراعي ما حدث من تأخر في مواعيد صدور الأعداد الأخيرة لظروف فنية خارجة عن الإرادة. ولهذا فقد تم مدّ فترة تلقي المشاركات في المسابقات شهرين بدلاً من ٤٥ يومًا.

مسابقة الفيصل

شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

عنوان المجلة

ص.ب (٣). الرياض ١١٤١١ ـ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ـ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الملف الثقافي



- الاستشراق وصقور البيت الأبيض في مركز الملك فيصل
- السينما تسخر من بوش
- المؤتمر الثاني للجمعية الدولية للبرديات العربية
- رحيل الشاعر حسن القرشي والمستشرق مكسيم رودنسون

●● خاتمة المطاف: علي جواد الطاهر والنقد القصصي

الاستشراق وصقور البيت الأبيض

استضاف مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرابع والعشرين من مايو/أيار الماضي الدكتور مازن مطبقاني في محاضرة بعنوان «الاستشراق وصقور البيت الأبيض» ضمن نشاطه الثقافي لهذا الموسم، وأدار الحوار الأستاذ مطشر المرشد.

بدأ المحاضر بمقدمة تناول فيها ارتباط الدراسات العربية والإسلامية أو دراسات الشرق الأوسط أو دراسات المناطق في الغرب بالحكومات الغربية لما تقدمه لها من خبرات ومتخصصين في مجال معرفة الشعوب الأخرى والتعامل معها، وتناول أيضًا الدعم الذي تجده هذه المراكز من الحكومات.

ثم تحدث عن العلاقة بين صقور البيت الأبيض أو صقور واشنطن والاستشراق، وعرّف هؤلاء الصقور بأنهم طبقة من السياسيين الأمريكيين الذين ينتمون إلى حزب المحافظين الجدد الذين ظهروا إبان الحرب الباردة والنزاع الأمريكي الروسي، كما تحدث عن الصلة القوية التي تربط هؤلاء الصقور بالاستشراق والتي ازدادت في أثناء حرب الخليج الثانية وظهور مستشرقين من أمثال برنارد لويس يثيرون العداوة بين الإسلام والمسلمين، وبخاصة بعد سقوط الشيوعية، وادعاء فريق في الغرب أنه لابد من عدو جديد، وأن العدو القادم هو الإسلام، فجاءت كتابات صموئيل هنتنجتون عما يسمى «صدام الحضارات».

وجاءت المحاضرة في ثلاثة مباحث، تناول المحاضر في المبحث الأول صقور البيت الأبيض وعلاقتهم بالدراسات العربية والإسلامية أو دراسات الشرق الأوسط في السنوات الماضية، وبخاصة حينما بدأ بعضهم محاولاً إعادة هذا المجال المعرفي إلى مرحلة المكارثية في السياسة الأمريكية، وأن التضييق والمراقبة لهذه الدراسات إنما هما لاستمرار الهيمنة الصهيونية اليهودية عليها.

ثم تناول في المبحث الثاني العلاقة بين صقور البيت الأبيض وعدد من كبار المستشرقين من أمثال برنارد لويس وفؤاد عجمي وكنعان مكية ودانيال بايبس وغيرهم، وكيف أن لهؤلاء مكانة مرموقة في البيت الأبيض حتى إن المحطة



مازن مطبقاني



علي الشويش وصالح الخريجي



أمين سيدو

التلفازية الخاصة بالكونجرس الأمريكي C-Span تقدم أحد كتب لويس على أنه كتاب ينبغي أن يدرس في المراحل الدراسية ما قبل الجامعية!.

وفي المبحث الثالث تناول المحاضر مواقف معينة

لصقور البيت الأبيض في قضايا تخص الشرق الأوسط بخاصة والعالم الإسلامي بعامة، وكيف أن هذه المواقف مبنية على النزعة الإمبريالية التي يدعو إليها نفر من المستشرقين الأمريكيين.

وختمت المحاضرة بعدد من الأسئلة والمداخلات.

وكان مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية قد شهد في نهاية الشهر الماضي محاضرتين: الأولى بعنوان «بروتوكول Z39.50 للبحث والاسترجاع وتطبيقاته في المكتبات» قدمها الدكتور علي بن شويش الشويش، تحدث في بدايتها عن معنى كلمة بروتوكول، وشرح كيفية عمله، ثم قدم عددًا من التطبيقات على البحث على الشاشة في عدد من الجامعات الأمريكية، وأوضح الشويش في ختام محاضرته أن البروتوكول مطبق في مكتبتين عربيتين، وسوف يطبق في مكتبات المملكة العربية السعودية قريبًا.

وفي المحاضرة الثانية دشن الدكتور أمين سليمان سيدو كتابه الإلكتروني الجديد الذي صدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بعنوان «من أعلام الفكر العلمي في الحضارة الإسلامية»، ويحوي الكتاب دراسة بيو - ببليوجرافية لأعلام الفكر الإسلامي ، وحصرًا ببليوجرافيًا لآثارهم، وما كتب عنهم، مع إيراد نماذج من مؤلفاتهم، وحوارات فكرية عنهم، بالإضافة إلى صور ومشاهد فيديو وتعليق صوتي.

وقد تمحور هذا الكتاب حول سبعة عشر عَلمًا من أعلام المسلمين الذين لم تقتصر اهتماماتهم العلمية بعلوم الدين الإسلامي فحسب، وإنما اهتموا إلى جانب ذلك بالعلوم العقلية والنقلية، مثل الفلسفة، والطب، والفلك، والمنطق، والرياضيات، والفيزياء، والهندسة، وعلم اللغة، والأدب، والتاريخ، وهم: ابن البيطار المالقي، وابن حزم الأندلسي، وابن النفيس الدمشقي، وأبو بكر الرازي، وأبوبكر بن الطفيل، وأبوحيان التوحيدي، وأبو الريحان البيروني، وأبو عثمان الجاحظ، وأبو علي بن سينا، وأبو محمد الخوارزمي، وأبو نصر الفارابي، وأبو الوليد بن رشد، وجابر بن حيان، والحسن بن الهيثم، وحنين بن إسحاق، وعبدالرحمن بن خلدون، ويعقوب بن إسحاق الكندي.

وأدار الحور في المحاضرتين الدكتور صالح الخريجي.

السينما تسخر من بوش

فاز الفيلم الوثائقي السياسي (فهرنهايت ١١/٩) للمخرج السينمائي الأمريكي ميكل مور بجائزة السعفة الذهبية لمهرجان كان السينمائي الفرنسي السابع والخمسين من بين ١٩ فيلمًا آخر جرت بينهما المنافسة، وتعد هذه الجائزة من أهم جوائز السينما العالمية. وينتقد الفيلم الفائز بشدة تعامل الرئيس الأمريكي جورج بوش مع أزمة العراق والحرب على الإرهاب، وقد أهدى المخرج الفيلم إلى «أطفال أمريكا والعراق وجميع شعوب العالم التي عانت من سياسات بوش». ويعتمد الفيلم بشكل أساسي على المقابلات، وعلى صور للجنود الأمريكيين وضحايا الحرب العراقية، بالإضافة إلى صور من الأرشيف لبوش.

وقال مور في مؤتمر صحفي إنه يندم على شيء واحد هو أنه نسي أن يشكر بوش؛ لأنه مصدر أكثر السطور إثارة للضحك في الفيلم، وتوقع مور أن تقول وسائل الإعلام اليمينية في الولايات المتحدة: إن فرنسا التي تعد من أكثر الدول معارضة للحرب الأمريكية ضد العراق، هي التي منحته الجائزة، موضحًا أن «لجنة التحكيم دولية، وليست فرنسية، وكان العدد الأكبر من أعضائها من الأمريكيين».

وقد أبدى مور رغبة في عرض الفيلم سريعًا حتى يؤثر في الناخب الأمريكي في انتخابات الرئاسة الأمريكية التي ستجري في شهر نوفمبر المقبل كي يعيد بوش إلى مسقط رأسه تكساس، كما يقول.

وقد وصف البيت الأبيض الأمريكي هذا الفيلم بأنه «مضلل بشكل سافر بل إنه لا يستحق التعليق».

مايكل مور



وفاة المستشرق مكسيم رودنسون

توفي في الثالث والعشرين من مايو/أيار الماضي في مدينة مارسيليا (جنوب فرنسا) المؤرخ الفرنسي وعالم الاجتماع المختص بالإسلام مكسيم رودنسون عن عمر يناهز ٨٩ عاماً مخلفًا عددًا كبيرًا من المؤلفات التي تتناول في معظمها العرب والحضارة الإسلامية، إذ يعد رودنسون من أبرز المختصين في تاريخ الأديان.

ولد رودنسون في باريس في ٢٦يناير/كانون الثاني عام ١٩١٥م في أسرة فقيرة، إذ كان والده يعمل في الخياطة، ونال عددًا من الشهادات الجامعية منها: شهادة دكتوراه في الأدب، وشهادة في اللغات الشرقية، وأخرى من المعهد الفرنسي للدراسات العليا، والتحق بالحزب الشيوعي عام ١٩٣٧م، ولكنه طرد منه عام ١٩٥٨م.

وقد عُرف عن رودنسون معرفته اللصيقة بالعالم الإسلامي، وقد كان وجوده في لبنان خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٤٠م إلى عام ١٩٤٧م عاملاً مساعدًا في ترسخ هذه المعرفة، إذ عمل في التدريس في صيدا قبل أن ينتقل إلى بيروت مسؤولاً عن مكتب البعثة الأركيولوجية الدائمة لفرنسا في الشرق.

وكان رودنسون مهتمًا جدًا بالدراسات الإسلامية، وظل يتابع صعود التيار الأصولي منذ أكثر من عشرين عامًا، وكتب عددًا من المقالات التي تضع الإسلام منافسًا قويًا للغرب المسيحي قبل أن يكتب صامويل هانتغتون كتابه «صدام الحضارات».

وقد خلّف رودنسون عددًا من المؤلفات منها: «محمد» ١٩٦١م، و«الرأسمالية والإسلام» ١٩٦٦م، و«الماركسية والعالم الإسلامي» ١٩٧٢م، و«عظمة الإسلام»١٩٨٠م.

من حجر اليمامة إلى البصرة

«الطريق التجاري من حجر اليمامة إلى البصرة» هو عنوان الكتاب الذي صدر حديثًا لمؤلفه عبدالله بن محمد الشايع، تتبع فيه المؤلف أحد الطرق التجارية القديمة من حجر اليمامة إلى البصرة، وهو الطريق الذي أوضح مساره صاحب كتاب (بلاد العرب)، إلا أنه نظرًا للتغيير الذي طرأ بعد ذلك على مسميات بعض الأماكن، فقد أصبح من الصعوبة بمكان التعرف إلى تلك المواضع، وموارد المياه التي ذكرت في وصف هذا الطريق.

وقد بذل المؤلف قصارى جهده في تتبع مسار هذا الطريق، وتحقيق موارده، ومواقع أعلامه من صوى ومذيلات ودوائر حجرية، وذلك من بداية انطلاقه من حَجْر اليمامة (الرياض حاليًا) حتى بلغ مورد ماء طُويلع قرب مدينة (قرية العليا).

ولم يكن هذا الكتاب هو الأول للمؤلف في هذا المجال.

بوش ومهنة الصحافة

كشف استطلاع للرأي أجراه مركز بيز الأمريكي للأبحاث المتعلقة بالرأي والصحافة نشرت نتائجه مؤخرًا أن ٥١٪ من الصحافيين العاملين في وسائل إعلام وطنية، و٤٦٪ في وسائل إعلام محلية يرون أن مهنتهم تسير في الاتجاه الخاطئ. وقال ٦٦٪ من الصحافيين في صحف وطنية: إن الضغوط المالية على مؤسساتهم «تؤثر بشكل جدي» في نوعية تغطية الأحداث، مقابل ٤١٪ فقط من الصحفيين عبروا عن رأي مماثل في عام ١٩٩٥م.

وفي دراسة أخرى حول وضع وسائل الإعلام في عام ٢٠٠٤م، أوضح خبراء مركز «بيو» أن ٤٪ أي ما يعادل ألفين من الوظائف في الصحافة المكتوبة ألغيت بين عامي ٢٠٠٠م و ٢٠٠٤م، و٥٧٪ من الوظائف في الإذاعات بين عامي ١٩٩٤م و ٢٠٠١م.

من جهة أخرى رأى ٥٥٪ من صحافيي وسائل الإعلام الوطنية أن الصحافة لم تنتقد بشكل كاف

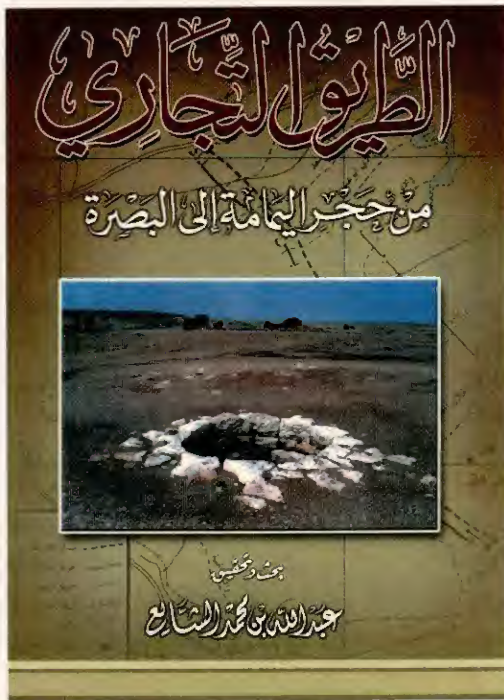
فقد تتبع من قبل مسارات ثلاث طرق أخرى، وأصدرها في كتب مستقلة، وهو ينوي - عملاً بنصيحة الأستاذين الشيخ حمد الجاسر والدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري - وضع كتاب خاص يحصر فيه كل ما تم تحقيقه من مواضع تسهيلاً للرجوع إليها من قبل الباحثين.

وكان المؤلف قد اختلف مع المؤرخين والمستكشفين - كما جاء في كتابه «أعلام الطرق القديمة: بين خيال الباحثين والواقع» - بشأن حقيقة الصُّوى والدوائر والمذيلات الحجرية المنتشرة بكثافة في أرض المملكة العربية السعودية والتي تباينت فيها وجهات نظرهم: فعدها بعضهم مساكن ومقابر تعود إلى عصور حجرية، وعدها آخرون أماكن لأمور تعبدية كعبادة النجوم، بينما قال بعضهم: إنها أمور لها علاقة بالسحر والشعوذة، وقد خلص المؤلف إلى القول بأن جميع أصحاب هذه الآراء لم يقدموا دليلاً واحدًا على أساس علمي يقتنع به.

ويرأي المؤلف أن أغلب ما شاهدوه ووقفوا عليه من هذه الآثار هي أعلام طرق للقوافل القديمة ولا شيء غير هذا، وقد بذل المؤلف جهدًا كبيرًا من أجل إثبات هذه الحقيقة؛ وذلك من خلال المسح الذي قام به في نواحي المملكة المختلفة، كما استعان بكتب التراث ولا سيما معاجم اللغة العربية ودواوين الشعر في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام والعصر الأموي.

وقد توصل المؤلف إلى تحقيق بعض الأماكن التاريخية والجغرافية التي كانت محل خلاف بين الباحثين في وقتنا الحاضر، مثل: الحريملة، وطار، والجرباء، والرداع، وذات الرئال، وحفر بني سعد، ودَحْل خريشيم، ورمل المِعَا، وطويلع، وغيرها.

ويقع الكتاب في ٢٨٤ صفحة، وقد استعان المؤلف بعدد كبير من الخرائط والصور الفوتوغرافية لتوثيق المعلومات التي أوردها في الكتاب.



سياسة الرئيس جورج بوش. وقال ٣٥٪: إن الصحافة كانت عادلة مع بوش بينما أكد ٨٪ فقط أنها تجاوزت حدود النقد المقبول حياله.

أما صحافيو وسائل الإعلام المحلية فقد رأى ٣٧٪ منهم فقط أن وسائل الإعلام لم تنتقد بشكل كاف الرئيس الأمريكي.

وقال الاستطلاع الذي شمل ٥٤٧ صحفيًا: إن ٥٤٪ من الصحافيين العاملين في وسائل إعلام وطنية يعدّون أنفسهم «معتدلين سياسيًا»، بينما أكد ٣٤٪ أنهم يساريون أو ليبراليون، وهي زيادة بنسبة ٢٢٪ عن عام ١٩٩٥م. وقال ٧٪ فقط من الصحافيين: إنهم «محافظون»، بينما يعدّ ٣٣٪ من الأمريكيين أنفسهم كذلك.

من جهة أخرى رأى ٦٠٪ من الصحافيين أن شبكة الإنترنت كان لها تأثير إيجابي في الصحافة بحد ذاتها، وإن كان ٤٢٪ يعتقدون أنها زادت من ضغط العمل خصوصًا فيما يتعلق بالسرعة.

وأكد ٤٥٪ من الصحافيين أن الأخطاء في الأخبار أصبحت أكثر عددًا في تغطية الأحداث، مقابل ٣٥٪ في عام ١٩٩٥م.

مآذن هراة الأفغانية في خطر

استطاعت خمس مآذن في هراة «غرب أفغانستان» بنيت في القرن الخامس عشر الصمود أمام عمليات النهب والزلازل والغزو البريطاني وعمليات القصف السوفييتي، ولكن هذه الكنوز الأثرية النادرة مهددة الآن بالانهيار، بعد أن ظهرت جرافات وحفارات في الموقع على بعد نحو ٥٠ مترًا عن المآذن، بالقرب من بقايا ضريح مجاور يعود إلى مئات السنين تنوي الحكومة إعادة إعماره.

وتؤكد منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) التي تمول مشروع ترميم المآذن أن بناء الضريح بين الأبراج المشيدة بحجر الآجر يمكن أن يؤثر في إدراج الموقع على لائحة التراث العالمي، ويسبب مزيدًا من الأضرار للمآذن التي تشكل شهادة ثمينة عن الفن الإسلامي.

والمعروف أن هذه المآذن شيدتها الملكة جوهر شاه زوجة رخ شاه ابن الفاتح المغولي تيمورلنك، وكانت مغطاة بالفسيفساء أصلاً، وهي كل ما تبقى من مجمع رائع من المساجد والمدارس الدينية التي تشهد على الفن المعماري للمغول. ولم تنج سوى تسع من أصل ثلاثين مئذنة عند مرور القوات البريطانية عام ١٨٨٥م.

وكغيرها من المباني التاريخية في أفغانستان، تعاني مآذن هراة القدم بينما تنقص الوسائل اللازمة للمحافظة عليها. وأكدت منظمة اليونسكو أنها مولت مشروع دعم للأبراج بكابلات إذ كادت المآذن تنهار من دونها.



المؤتمر الثاني للجمعية الدولية للبرديات العربية

استضافت مدرسة الدراسات الأدبية في غرناطة المؤتمر الثاني للجمعية الدولية للبرديات ISAP في المدة من ٢٤ إلى ٢٧ من مارس/ آذار ٢٠٠٤م، وجاء هذا المؤتمر بعد نجاح المؤتمر الأول للجمعية الذي عقد في مقر المعهد الهولندي الفلمنكي بالقاهرة عام ٢٠٠٢م، وفي يوم ٢٤ مارس/آذار عام ٢٠٠٢م تأسست الجمعية الدولية للبرديات العربية في القاهرة.

وتهدف هذه الجمعية إلى تنمية المعرفة وتبادل المعلومات في مجال علم البردي العربي، ومحاولة عمل فهرس جامع للبرديات العربية المنشورة. وتصدر عن الجمعية نشرة بعنوان «البرديات»، صدر العدد الأول منها عام ٢٠٠٢/٢٠٠٣م. وسيصدر العدد الثاني عام ٢٠٠٥م. وتعنى هذه النشرة بكل ما يتصل بالبرديات العربية، نشرًا ودراسة وفهرسة، وتضم الجمعية الآن نحو ٤١ عضوًا من مختلف بلدان العالم، ومقرها جامعة برنستون بولاية نيوجيرسي في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكان عنوان المؤتمر الذي عقد في غرناطة: «الأدلة الوثائقية لتاريخ حوض البحر الأبيض المتوسط في الحقبة الإسلامية المبكرة»، وقدم فيه نحو ٢٤ بحثًا في البرديات العربية واليونانية والقبطية، إلى جانب الوثائق المكتوبة في الورق والنقوش. وقدمت البحوث باللغات: العربية والإنجليزية والفرنسية والإسبانية.

ومما يؤسف عليه أن عدد المشاركين من البلدان العربية لم يزد على ثلاثة وهم: الدكتورة علية حنفي من جامعة عين شمس،

والدكتور سعيد مغاوري من دار الكتب المصرية، ود. جاسر أبو صفية من الجامعة الأردنية. وشارك من فلسطين المحتلة د. حسن خليلية من جامعة حيفا.

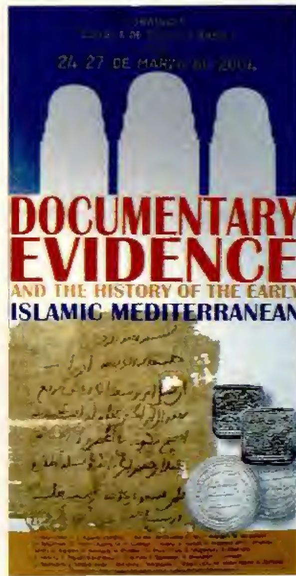
وقد نظم المعهد المضيف رحلة إلى قرطبة يوم ٢٣ مارس/آذار ٢٠٠٤م حيث زار المشاركون الآثار الإسلامية هناك وأهمها جامع قرطبة. ونظمت رحلة أخرى ظهر يوم السبت ٢٧ مارس/آذار ٢٠٠٤م إلى قصر الحمراء في غرناطة.

وفي أثناء انعقاد المؤتمر عقد أعضاء الجمعية المؤسسون اجتماعًا ناقشوا فيه عدة مسائل تتصل بالجمعية والأعضاء الجدد والاشتراك السنوي، وانتخب في هذا الاجتماع الدكتورة جلاديس مورفي من جامعة ريجيس في دنفر بأمريكا، والدكتور جفري خان من جامعة كيمبردج عضوين إداريين. كما انتخب الدكتورة علية حنفي عضوة مشرفة في مصر، والدكتور جاسر أبو صفية عضوًا مشرفًا في الأردن. كما تقرر عقد المؤتمر الثالث في تونس عام ٢٠٠٦م.

ومن أبرز الموضوعات وأهمها التي قدمت في المؤتمر: مشروع مدرسة البرديات العربية لثلاثة أساتذة من جامعة زيوريخ في سويسرا، وهو مشروع مهم له موقع على شبكة الإنترنت www.ori.unizh.ch/aps. يسهل على الباحث في البرديات قراءة البردية أو المخطوطة على شاشة الحاسوب باستخدام الـ (Scaner).

والمشروع الثاني لهؤلاء الأساتذة الإعداد لعمل فهرس جامع للبرديات العربية التي نشرت ليسهل على الباحثين الرجوع إليها. وهذا المشروع يشبه إلى حد بعيد ما بدأه د. جاسر أبو صفية في بحثه الموسوم بـ «جهود المستشرقين في دراسة البرديات العربية ونشرها»؛ إذ جمع في هذا البحث كل ما وصل إليه من البرديات العربية التي نشرها المستعربون باللغات الأوروبية المختلفة: الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية واليونانية. وكان يمكن لهذا البحث أن يكون فهرسًا موسعًا لما نشر من البرديات العربية لو كان د. جاسر يملك كل الكتب والبحوث التي نشرت فيها البرديات العربية.

ومن بين البحوث المهمة التي قدمت في المؤتمر بحث بعنوان: «الألفاظ العربية في النصوص القبطية»، وبحث آخر بعنوان «كتاب أكرية السفن» لمحمد بن عمر الكناني الأندلسي، وكتاب Nomos Rhodion Nautikos حول قوانين الملاحة البحرية؛ إذ يتضح من كتاب «أكرية السفن» سبق المسلمين في وضع قوانين الملاحة البحرية.



شعار المؤتمر

وأما البحث الذي شارك به د. جاسر أبو صفية فكان بعنوان: «شكاوى الرعية في البرديات العربية». وقد تضمن البحث تسع شكاوى من القرن الأول الهجري، اثنتان منها مقدمتان من زوجتين على زوجيهما وأنهما استوليا على حقيهما. وخمس شكاوى من أقباط مقدمة إلى قرة بن شريك في المطالبة بديون لأصحابها، وشكوى مقدمة إلى قرة بن شريك قبطي في اغتصاب ماله، وشكوى أخرى في اعتداء شيخ القرية على فلاح باقتحام بيته.

كما تضمن البحث أربع شكاوى من القرنين الثاني والثالث الهجريين. كان أهمها: شكوى من رجل على إمام مسجد جاهل اتهمه بإدخال زايدة في الأذان، وإراقة قنينة نبيذ في المسجد. وأن الناس يكرهون الصلاة خلفه وأنها غير مقبولة. وعليه طالب الأمير بتنحية هذا الإمام وتعيين مؤذن للمسجد.

والشكوى الأخرى من رهبان على أعوان السلطان الذين ضربوا الرهبان وفرضوا عليهم غرامة ثقيلة، ويسأل الرهبان الأمير: لم يعاملون هذه المعاملة؟ ألأنهم فقراء؟ أم لأنهم غير مسلمين؟ ومما يؤسف عليه أننا لا نملك الرد من الأمير لنعرف موقفه من هذه المسألة، ومن الإمام الذي أراق قنينة خمر في المسجد. ولكن يفهم من هذه الشكاوى أن الرعية كانت حرة حرية مطلقة في تقديم شكاوى على العمال والموظفين ومن يوقع عليهم ظلمًا.

رحيل الشاعر حسن القرشي

توفي في مدينة جدة السعودية في الأول من يونيو/ حزيران الحالي الشاعر والدبلوماسي السعودي حسن عبدالله القرشي عن عمر يناهز الثمانين عامًا بعد صراع طويل مع مرض عضال، وقد صلي عليه بالمسجد الحرام ودفن بمقابر العلاة بمكة المكرمة.

ويعد القرشي واحدًا من رواد الشعر السعودي، ومن رموز التجربة الشعرية في أفقها الحديث، ويأتي في طليعة الشعراء المجددين في الجزيرة العربية، ومن أوائل من كتبوا القصيدة التفعيلة في السعودية، وهو أول شاعر سعودي يطبع ديوانه خارج الحدود.

ولد الشاعر الراحل في مكة المكرمة سنة ١٣٤٤هـ، وتلقى علومه الأولية في الكتاتيب فحفظ القرآن الكريم، والتحق بمدرسة الفلاح، ثم المعهد العلمي السعودي في



حسن القرشي

الأدبية تحتفل بدريدا

اقتصر العدد الأخير من «المجلة الأدبية» الفرنسية على الحديث عن أعمال فيلسوف التفكيكية جاك دريدا، وتناولت المجلة علاقة التفكيكية بالأدب والفن والدين والسياسة والميتافيزيقيا.

وذكرت المجلة أن دريدا في كتبه الأخيرة عمل على تعرية السياسات الإمبريالية وتشدقها الكاذب بالديموقراطية وحقوق الإنسان، من أجل فرض نموذج حياة وتفكير أحادي البعد إكراهي المعنى على الآخرين، كما جاء على موقع إيلاف. وآخر مؤلفات دريدا في هذا المجال كتابه «مارقون» Voyous الذي عد بمنزلة إعادة نظر في مفهوم الديموقراطية الغربية، إذ يرى دريد أن الديموقراطية لا يمكن أن تتحقق إلا خارج مفهوم السيادة الذي ارتبط بالدولة، أو بمعنى آخر، خارج هذا النموذج السياسي ذاته.

الموناليزا مريضة

بدأت علامات الوهن تظهر على لوحة الموناليزا الشهيرة مما أقلق المسؤولين بمتحف اللوفر في باريس، ودفعهم إلى الأمر بفحص حالة اللوحة التي تبلغ من العمر ٥٠٠ عام، والتي أبدعتها أنامل الرسام الإيطالي ليوناردو دافنشي.

وقال المتحف في بيان أصدره بهذا الصدد: «أصبح لوح خشب الحور الرقيق المرسومة عليه هذه اللوحة

مكة المكرمة، وحصل على شهادة ليسانس الآداب من قسم التاريخ بدرجة جيد جدًا مع مرتبة الشرف من كلية الآداب بجامعة الرياض.

وبدأ حياته الوظيفية محررًا بديوان الأوراق في وزارة المالية، ثم كاتبًا في المكتب الخاص في الوزارة، ورئيسًا للمذيعين عند تأسيس الإذاعة السعودية سنة ١٣٦٨هـ، كما انتدب لمدة عام للدراسة الفنية الإذاعية في مصر، وعاد بعد ذلك للعمل في وزارة الخارجية بمرتبة سفير، وشغل هذا المنصب في كل من موريتانيا والسودان.

وقد ساهمت أسفاره الكثيرة وصداقاته المتعددة في التواصل مع الحركة الأدبية والشعرية العربية، وقد نشر له عدد من القصائد والأعمال الأدبية في معظم الصحف والدوريات الثقافية العربية، وكانت له مشاركات متعددة في المهرجانات والمؤتمرات الشعرية والأدبية داخل المملكة وخارجها، ومثل المملكة في مهرجان الشباب في تونس سنة ١٣٨٥هـ، واختير عضوًا في مجمع اللغة العربية في القاهرة ومنحته جامعة أريزونا العالمية درجة الدكتوراه الفخرية سنة ١٤٠٣هـ.

ترك الشاعر الراحل عددًا كبيرًا من الآثار الأدبية في عدد من المجالات الأدبية، ففي مجال الشعر له: «أصداء من الماضي» ١٩٩٤م، و«أطياف من رماد الغربة»١٩٩٠م، و«ألحان منتحرة» ١٩٦٤م، و«إلى النيل الخالد» ١٩٥١م، و«أنا والناس» ١٩٦٥م، و«أنات الساقية» ١٩٥٦م، و«بحيرة العطش» ١٩٦٧م، و«البسمات الملونة» ١٩٤٧م، و«ترانه هاي حجاز» ١٩٩١م، و«تجربتي الشعرية» ١٩٧٢م، و«حب في الظلام» ١٩٧٣م، و«ديوان حسن عبدالله القرشي» ١٩٧٢م، و«رحيل القوافي الضالة» ١٩٨٣م، و«زحام الأشواق» ١٩٧٩م، و«زخارف فوق أطلال عصر المجون» ١٩٧٩م، وغيرها من الدواوين.

كذلك للشاعر الراحل عدد كبير من المقالات والقصائد الشعرية، كما كتب عنه عدد كبير من الباحثين والدارسين.



الأسطورية أكثر انبعاجًا من ذي قبل»، وأضاف البيان أن المتحف طلب إجراء دراسة علمية دقيقة على اللوحة الشهيرة لتحديد المواد الخام المستخدمة فيها وحالتها التي تتأثر بشكل خاص بتغيرات درجات الحرارة. وخلال ذلك ستظل اللوحة، وهي لامرأة ذات ابتسامة غامضة، معروضة للجمهور، ومن المقرر بدء عملية فحص اللوحة عام ٢٠٠٥م، وهو الموعد المقرر لنقلها إلى قاعة عرض خاصة بها بعد عملية تجديد تبلغ تكاليفها أربعة ملايين ونصف المليون دولار.

واكتست اللوحة لونًا يميل إلى البني من جراء تراكم الغبار والأوساخ، ولتغيرات كيماوية في الطلاء المغطي للسطح، ولكن المتحف لا يزال يقاوم ضغوطًا لترميمها حتى تستعيد ألوانها الأصلية.

الأمريكيون واللغة العربية

ازداد إقبال الناس في الولايات المتحدة الأمريكية في الآونة الأخيرة على تعلم اللغة العربية، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر والحرب على العراق، وقد تضاعف عدد الطلاب الجامعيين الذين تسجلوا في مناهج العربية بين أعوام ١٩٩٨م و ٢٠٠٢م، ليصل العدد إلى ١٠٥٨٤ طالبًا، على حسب «جمعية اللغات العصرية» الأمريكية، وكان أغلب متعلمي اللغة العربية في الولايات المتحدة في الماضي من أبناء الجالية العربية الذين يريدون تعلم ثقافة أجدادهم وحضارتهم.

وكان الاهتمام في الماضي منصبًا على تعلم اللغات الأخرى، فاللغتان الألمانية والإيطالية أصبحتا من ضمن مقررات الطلاب بعد تكاثر الهجرة الأوربية في مطلع القرن العشرين. وزاد الإقبال على اللغة الروسية حينما دار أول قمر اصطناعي حول الأرض عام ١٩٥٧م، ووجدت اليابانية الاهتمام إبان فترة الانتعاش الاقتصادي التي عاشتها اليابان في فترة الثمانينيات من القرن الماضي.

وتعاني الولايات المتحدة حاليًا نقصًا حادًا في اختصاصيي اللغة العربية، للاستعانة بهم خصوصًا في حربها على الإرهاب وحربها على العراق.



لوحة تباع وأخرى تسرق

بيعت خلال الأيام الماضية في مزاد علني في نيويورك لوحة «الصبي يدخن الغليون» التي رسمها الرسام الإيطالي بابلو بيكاسو عام ١٩٥٠م بمبلغ ١٠٤ ملايين دولار لتكون بذلك التحفة الأغلى ثمنًا التي تباع في مزاد علني، وكانت لوحة الفنان لفنسانت «صورة الدكتور غاشية» هي صاحبة الرقم القياسي السابق، إذ بيعت بمبلغ ٨٢,٥ مليون دولار في مايو/أيار عام ١٩٩٠م.

من ناحية أخرى اختفت لوحة أخرى لبيكاسو من أحد المستودعات المملوكة لمركز بمبيدو في باريس، وقدر سعر اللوحة الضائعة التي جاءت بعنوان Nature Morteala Charlotte، بنحو ثلاثة ملايين دولار، ويعود تاريخ رسمها إلى عام ١٩٢٤م، وتعود ملكيتها إلى متحف الأعمال الفنية في مدينة نانسي الواقعة شرق فرنسا.

وكان آخر مكان شوهدت فيه اللوحة الضائعة هو إستوديو للترميم بالمستودع المذكور الذي يقع في منطقة بشمال باريس، وما زالت الشرطة الفرنسية توالي تحقيقاتها لحل لغز اللوحة الضائعة.

مخلوف يفوز بجائزة

أعلن رئيس المنتدى الثقافي اللبناني في باريس نبيل أبوشقرا عن فوز الشاعر والكاتب اللبناني عيسى مخلوف بجائزة المنتدى للإبداع عن ديوانه «عين السراب» الذي صدر

الفلسطينيون.. صورة أرض وشعب

صدر مؤخرًا في باريس عن دار «هازان» كتاب بعنوان «الفلسطينيون، صور أرض وشعب من العام ١٨٣٩م إلى يومنا هذا» للمؤرخ والكاتب الفلسطيني إلياس صنبر، ويعدّ هذا الكتاب وثيقة تاريخية نادرة عن حياة الشعب الفلسطيني في نضاله ضد الظلم والقهر الصهيونيين.

ويتضمن الكتاب، الذي يقع في ٦٥٠ صفحة من القطع الكبير، نحو ٦٠٠ صورة انتقى الكاتب أغلبها من مجموعته الخاصة التي عني بجمعها خلال السنين الماضية، ويعود بعضها إلى مجموعة بدر الحاج الشهيرة، وبعض المجموعات الأخرى. ولعل أهم صور الكتاب تلك التي سبقت عام النكسة «١٩٤٨م»؛ إذ كان المصورون الغربيون يتعمدون التركيز في صورهم في الأمكنة الخالية من السكان، في حين كانت هنالك نظرة أخرى للمصورين المحليين من أبناء البلد: إذ تختلف النظرة تمامًا عندهم عما عند المستشرقين.

فالمصور خليل رعد الذي كان يملك استوديو تصوير في مدينة القدس كان يظهر عند تصويره الفلسطينيون في أفراحهم وأتراحهم، وهم يعملون في حقول الزيتون والليمون، ويصورهم كذلك وهم يشيدون البيوت من الأحجار الصخرية، بل حتى وهم يشاهدون «صندوق الفرجة» في إحدى الساحات.

وفي جانب آخر من جوانب صور الكتاب يظهر المؤلف مرحلة أخرى من مراحل التصوير، وهي التصوير الملون الذي دخل إلى الصورة عبر تقنيات معقدة عام ١٨٨٧م. وقد وصف المؤلف هذه الصورة بأنها «مريرة وتراجيدية بقدر جمالها، وهي تظهر البلد الملون في الذاكرة بعد أن غاب الأصل وابتعد».

وقد حفل الكتاب ببعض الصور النادرة ذات المعاني والدلائل، منها صورة لمظاهرة في القدس عام ١٩٢٠م رفعت فيها شعارات مثل: «فلسطين جزء من سورية»، وأخرى بتاريخ ١٩٣٣م لمؤتمر الطب العربي في القدس، بالإضافة إلى فريق كرة القدم الوطني الفلسطيني عام ١٩٠٩م، وأخرى لفرقة أوركسترا الإذاعة الفلسطينية.

وخصص الكاتب القسمين الأخيرين من الكتاب، للمقاومة الفلسطينية من لبنان منذ السبعينيات، والانتفاضتين الأولى والثانية وحياة الفلسطينيين اليوم.

في بيروت قبل عامين، وصدر بالفرنسية مؤخرًا عن دار جوزيه كورتي الأدبية، وقد نظم معهد العالم العربي في باريس بهذه المناسبة ليلة شعرية لمخلوف قدمت فيها الممثلة الفرنسية دوينيك ديفال بعض القراءات الشعرية باللغة الفرنسية لقصائد مختارة من ديوان مخلوف «عين السراب».

متحف للفن الإسلامي في اليونان

أعلن متحف بيناكي اليوناني في أثينا أن شهر يوليو/حزيران القادم سيشهد افتتاح متحف جديد مخصص للفن الإسلامي، وستعرض في هذا المتحف التحف والآثار التي جمعها مؤسس المتحف أنتونيس بيناكي، والتي تؤرخ لحقب تاريخية مختلفة تمتد من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر، وتغطي مساحة جغرافية تمتد من الهند إلى إسبانيا.

وتبلغ مساحة المتحف الجديد ألف متر مربع، موزعة على أربع صالات للعرض، وستوزع فيها نحو ١٥٠٠ من مجموع التحف الفنية الإسلامية البالغة نحو عشرة آلاف تحفة جمعت بواسطة بيناكي، مؤسس المتحف، «وهو تاجر يوناني ثري مولود في القاهرة»، وستوزع هذه التحف على حسب الحقب التاريخية التي تؤرخ لها.

وقالت روزانا باليان المسؤولة في المتحف، إن المتحف يطمع إلى «إعطاء صورة تعكس الفن الإسلامي من القرن السابع إلى القرن التاسع عشر. وانتقال مراكز الإبداع فيه، وتأثيره في الثقافات الأخرى».



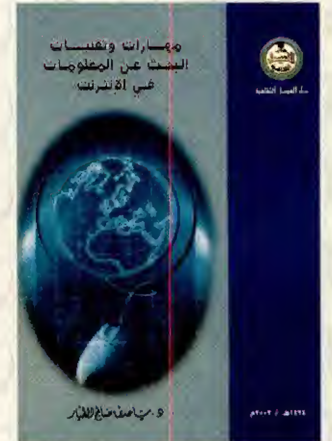


السويلم، إبراهيم بن عبدالعزيز/موسوعة أوائل الإصدارات الإعلامية والثقافية العربية ـ الرياض: المؤلف، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، مج١، ١٠٣٢ص.

تحتوي هذه الموسوعة على إيضاح وتحديد شامل للعدد الأول للإصدارات الإعلامية والثقافية على اختلاف مسمياتها من صحف ومجلات ونشرات سواء أكانت هذه الإصدارات حكومية أو فردية أم تعود لمؤسسات صحفية أو تجارية أو أسرية، وغير ذلك من يومية أو أسبوعية أو شهرية أو فصلية أو سنوية، محتجبة عن الصدور أو ما زالت تصدر لمناسبات مختلفة المهام والأهداف.

اقتصر هذا الجزء من الموسوعة على إصدارات المملكة العربية السعودية للفترة من بداية تاريخ إصدار أول جريدة رسمية للدولة السعودية، وهي جريدة أم القرى في يوم الجمعة بتاريخ ١٥جمادى الأولى ١٣٤٣هـ الموافق١٢ديسمبر/كانون الأول ١٩٢٤م في عهد الملك الموحد عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود طيب الله ثراه، حتى الوقت الراهن، ويضم بين دفتيه توثيق (٨٥٥) عددًا أول من هذه الإصدارات.

ولا تقدم هذه الموسوعة دراسة لما احتوته من أعداد، بل هي مجرد محاولة أولية «بيبليوجرافية» لحصر مجموعة من تلك الإصدارات الأوائل فقط قديمها وحديثها وتوثيقها وإيضاح معلومات عن بدء تواريخ إصدارها وأسماء العاملين في التحرير وجهات إصدارها ومقتطفات مما جاء في كلمة التحرير عن دواعي الإصدار.



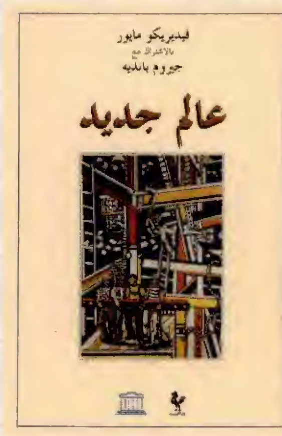
الطيّار، مساعد بن صالح/ مهارات وتقنيات البحث عن المعلومات في الإنترنت ـ الرياض: دار الفيصل الثقافية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،١٢٢ص.

هدف المؤلف من هذا الكتاب إلى ربط مستخدم الإنترنت بالبحث في اللغة العربية، وتقريب مهارات وتقنيات المعلومات للقراء العرب بجميع مستوياتهم العلمية والمهنية، والتعريف بالمسائل اللغوية ـ خصوصًا العربية ـ ذات العلاقة باسترجاع المعلومات، بالإضافة إلى التعريف ببعض محركات البحث العربية ومقومات البحث فيها.

وقد عالج هذا الكتاب تقنيات ومهارات البحث عن المعلومات في الإنترنت، وأهم النقاط التي تمت مناقشتها كانت ما يأتي:

- المشكلات والعوامل المؤثرة في عملية البحث عن المعلومات في الإنترنت.
- كيف يتم التغلب على هذه المشكلات والعوامل المؤثرة.
- مهارات البحث التي نحتاج إليها عندما نستخدم محركات البحث.
- الأدوات المساعدة في عملية البحث التي تحسن من أدائه.
- الطرائق المستخدمة في البحث عن المعلومات في الإنترنت.
- محركات البحث وأنظمتها وكيفية البحث فيها.
- الأدلة الموضوعية وكيفية البحث فيها.
- التعريف بأشهر محركات البحث العربية والمعربة والعالمية.

مايور، فيديريكو، وجيروم بانديه/ عالم جديد ـ بيروت: دار النهار



للنشر، ٢٠٠٢م، ٥٥٦ص.

أعد هذا الكتاب بمساعدة فريق مكتب التحليل والتوقع في اليونسكو، ويهدف على وجه الدقة، إلى الإعداد بصورة أفضل للعقود المقبلة، وللاستجابة في الوقت المناسب لتحديات المستقبل، وكان قد سبق لهذا الكتاب أن صدر باللغة الفرنسية في سبتمبر/أيلول عام ١٩٩٩م عن دار النهار بالتعاون مع منظمة اليونيسكو.

ويحاول الكتاب الإجابة عن عدد كبير من الأسئلة: هل تنجو البشرية وتبقى بعد القرن الجديد؟ هل تهددها «قنبلة ديموغرافية» بالأخطار؟ وهل سيكون الطعام كافيًا للجميع؟ وهل سيكون بالإمكان استئصال الفقر؟ وهل نتجه إلى تفرقة عنصرية شاملة؟ وهل تحفر التكنولوجيات الجديدة هوة بين الأغنياء والفقراء؟ وهل ستتيح هذه التكنولوجيات التعليم للجميع عن بعد، مدى الحياة؟ وهل ستجد النساء مكانهن اللائق بهن؟ وكيف نناضل ضد ارتفاع درجة حرارة الكوكب وضد التصحر؟ وهل تندلع الحرب من أجل الماء؟ وهل سيكون في الإمكان السيطرة على الطاقة الشمسية؟ وهل تحصل معجزة إفريقية؟

وفي عالم تتعولم فيه المشكلات، ما الحلول الشاملة التي يمكن اقتراحها؟ وكيف يمكن الانتقال من ثقافة عنف إلى ثقافة سلام؟ ومن طغيان إلحاح الطوارئ والفورية إلى أخلاق المستقبل؟

هذا الكتاب يلقي ضوءًا ساطعًا على الرهانات الكبرى للمستقبل ويقترح «بداية جديدة»، تقوم على أربعة عقود: عقد اجتماعي، وعقد طبيعي، وعقد ثقافي، وعقد أخلاقي.

والمعروف أن مؤلفي الكتاب هما: فيديريكو مايور هو المدير السابق لليونيسكو، وقد عمل وزيرًا للتعليم والعلوم في إسبانيا، ورئيسًا لجامعة غرناطة، ونائبًا في البرلمان الأوربي.

والآخر جيروم بانديه: هو نائب مساعد المدير العام لليونيسكو للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ومدير شعبة التوقع والدراسات المستقبلية والفلسفية.



هوبير، شارل، رحلة في الجزيرة العربية الوسطى (١٨٧٨ ـ ١٨٨٢م): الحماد، الشمر، القصيم، الحجاز، ترجمة: إليسار سعادة ـ بيروت: مطبعة ألف، ٢٠٠٣م، ١٦٦ص.

هذا الكتاب هو أول ترجمة عربية لرحلة شارل هوبير (١٨٣٧ ـ ١٨٨٤م) الاستكشافية إلى مناطق شمال شبه الجزيرة العربية؛ وذلك خلال السنوات ١٨٧٨ إلى ١٨٨٢م، إذ عثر على أبرز اكتشاف أثري في المنطقة وهو حجر تيماء، وقد نشرت تفاصيل هذه الرحلة التي بدأها هوبير من البصرة في ١٤ مايو/أيار ١٨٧٨م في نشرة الجمعية الجغرافية الفرنسية عام ١٨٨٤م، على أثر مصرعه بالقرب من بلدة العلا في ٢٩ يوليو/تموز من العام نفسه.

وكان هوبير قد قام برحلة ثانية إلى المنطقة في يونيو/ حزيران عام ١٨٨٣م بهدف تأمين نقل حجر تيماء إلى فرنسا، ولمواصلة أبحاثه الأثرية ووضع خرائط للمنطقة



بتكليف من الجمعية الجغرافية الفرنسية، والجمعية الآسيوية، ووزارة الإرشاد العام الفرنسية.

وقد حدثت منافسة كبيرة بين الألمان والفرنسيين من أجل الحصول على حجر تيماء انتهت أخيرًا لمصلحة الفرنسيين. فبعد عام على مصرع هوبير تمكن الفرنسيون من الحصول على الحجر، وأرسل إلى باريس حيث يعرض حاليًا في متحف اللوفر.

ويعدّ هذا الحجر، الذي يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد، والذي اكتشف بواسطة هوبير، من أبرز الاكتشافات الأثرية في شبه الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر. ويظهر هذا الحجر الذي حفر باللغة الآرامية أحد الكهنة الذي استقدم إلهًا جديدًا إلى تيماء، فأنشأ لهيكل الإله المعبود وقفًا، وقد مثل الإله في زي آشوري، وظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد النصب.

كما أن المعلومات والانطباعات التي سجلها هوبير خلال رحلته الأولى في شمال شبه الجزيرة العربية التي وردت في هذا الكتاب، هي على درجة كبيرة من الأهمية إذ إنها تعد، بالإضافة إلى سلسلة الأبحاث التي قام بها الرحّالون الأوربيون في المنطقة خلال القرن التاسع عشر، من أبرز النصوص التي تصف منطقة شمال شبه الجزيرة العربية خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر.

النقشبندي، أسامة ناصر/ فهرس مخطوطات مكتبة عبدالوهاب نيازي (بغداد).- القاهرة: معهد المخطوطات العربية، ٢٠٠٢م، ٢٠٧ص.





هذا الفهرس لمخطوطات مكتبة عبدالوهاب نيازي، وهو أحد علماء بغداد، واسمه عبدالوهاب نيازي بن عبدالرزاق بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد الحموي الحنفي الشقاقي العلوي، وقد عاش في الفترة بين عامي ١٨٢٠ و ١٩٠٩م في أسرة معروفة بالعلم، وتحدر من صلبه ذرية صالحة من العلماء والأدباء والمؤرخين الذين كان لهم دور مهم في الحركة الفكرية والثقافية في العراق.

وتحتوي مكتبة عبدالوهاب النيازي على ٣٩٦ مخطوطة، ترقى إلى فترات تاريخية مختلفة أقدمها «متخيَّر الألفاظ» لابن فارس، ويعود تاريخه إلى القرن الخامس الهجري، وأقدم مخطوطة مؤرخة نسخة من «نهج البلاغة» كتبها محمد بن الحسن سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م، وهي ثالث أقدم نسخة في العالم من «نهج البلاغة»، ونسخة من «حل العُقَد والعُقل» على مختصر المنتهى للأستراباذي الموصلي، كتبت في حياته سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، ونسخة من «تخليص الشواهد» لابن هشام الأنصاري، كتبت بخط تاج الدين عبدالوهاب السبكي، المتوفى سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م.

وقسمت المخطوطات في الفهرس على حسب الموضوعات، ورتبت العناوين في كل موضوع على ترتيب حروف المعجم، وذكر فيه: عنوان المخطوطة، واسم المؤلف، ووفاته، وأورد شيئًا من أولها، وأعطى وصفًا مختصرًا لكل مخطوطة ومحتوياتها وتاريخ نسخها، واسم الناسخ، ومكان النسخ وسنته، وما عليها من قراءات وسماعات وتملكات، ومقابلات ومطالعات، وشروح وحواشٍ، ثم ذكر مقياسها، ورقمها، والمصادر



والمراجع التي توثق العنوان والمؤلف.

وقد ذيل الفهرس بكشافات للمخطوطات جميعًا، بغض النظر عن تصنيفها على الموضوعات، وأسماء المؤلفين والنُّسّاخ، والأمكنة، والمخطوطات التي عليها سماعات وإجازات وتملكات... إلخ، كذلك كشاف لأصحاب هذه السماعات والإجازات والتملكات...إلخ.

حمودة، حمدي حنفي وحسني محمد ذياب/الإمارات العربية المتحدة : دراسة ببليوجرافية: (الدوريات) ـ أبوظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م،٤٩٠ ص.

يتضمن هذا الكتاب مستخلصات لقرابة ٦٠٠ دراسة وبحث ومقال تعالج عددًا كبيرًا من القضايا في جميع حقول المعرفة مثل: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والأدب والتاريخ والتراث والآثار وغيرها من الموضوعات التي تهم الدارسين والمهتمين بدولة الإمارات العربية في كل المجالات، وقد اعتمد الكتاب في توفير مادته على مواد منشورة في عدد من الدوريات العربية العلمية المحكمة والمتوافرة في دار الكتب الوطنية بالمجمع الثقافي.

والمستخلصات هي موجز وافٍ وخالٍ من جميع الشوائب والتكرار مع الاحتفاظ بالمضمون الأصلي للوثيقة ولغتها ما أمكن لهدف تمكين الباحث من مسايرة التقدم العلمي في ميدان بحثه دون الحاجة إلى بذل وقت طويل في البحث عنها.

وتشتمل الدراسة على بيانات المواد المستخلصة وعنوان المادة المستخلصة الفعلية، وبيانات العنوان الأخرى، ثم اسم معد الدراسة أو كاتب البحث، وبيانات المسؤولية الكاملة، وعنوان المجلة التي اشتملت على المادة المستخلصة، وبيانات الترقيم من رقم المجلد أو السنة، فرقم العدد، فبيانات الصدور الزمنية: الشهر والسنة وعدد الصفحات، ثم بيان المستخلص الذي يتضمن الموضوع الرئيس الذي يدور حوله محتوى المادة المستخلصة، وقد تم ترتيب المستخلصات ترتيبًا موضوعيًا تحت رؤوس الموضوعات الرئيسة، كما رتبت المستخلصات التي تتعلق بالموضوع نفسه ترتيبًا هجائيًا وفق عناوين المواد المستخلصة.



المعمري، محمد بن سعد/رسائل إلى مرضى الربو: دليل مصور لمرضى الربو ـ الرياض: المؤلف، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ١٦٤ص.

الربو مرض صدري مزمن، وهو حساسية غير طبيعية مفرطة، والتهاب غير معدٍ في القصبات الهوائية، وتتكون الركائز الأساسية للعلاج من: زيادة معرفة المريض عن مرضه للتعامل معه بشكل فعّال، وتحديد مسببات الربو ومثيراته وتصحيحها إن أمكن، والانتظام على أدوية الربو خاصة البخاخ الواقي، واللجوء إلى خطة العلاج الذاتية في بداية أزمة الربو.

ويعد توافر المعلومة الموثّقة والموجزة طلبًا أساسيًا لأي مريض لزيادة ثقافته عن





مرضه، لذا قام المؤلف في هذا الكتاب بحصر الموضوعات التي تهم من يعاني هذا المرض، ومن ثم تقديمها على شكل رسائل موجزة تغني عن البحث والسؤال عن الأمور المتعلقة بالربو، وقد تم جمع عناوين هذه الرسائل من تساؤلات واتصالات من عدد من المرضى تم طرحها على شكل رسائل مستقلة بأسلوب مبسط لا يؤثر في المحتوى العلمي.

تخلل الكتاب عدد من الرسوم والأشكال والصور الفوتوغرافية لتوضيح المعلومة الطبية وتقريبها إلى فهم القارىء.

الشافعي، أبو الخير محمد بن محمد الخيضري الدمشقي/جزء في عدم صحة ما نقل عن بلال بن رباح رضي الله عنه من إبداله الشين في الأذان سينًا، وبذيله وصية القاضي ابن الميلق. قرأها وعلق عليها: جمال عزون ـ بيروت: دار البشائر الإسلامية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٤٨ ص (لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام ٤٤ ـ ٤٥).

يحوي هذا الكتاب فتوى في عدم صحة ما نقل عن الصحابي الجليل، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بلال بن رباح رضي الله عنه من إبداله الشين في الأذان سينًا، كتبها أبو الخير محمد بن محمد بن الخيضري الدمشقي الشافعي (٨٢١ ـ ٨٩٤هـ)؛ إثر سؤال تقدم به إليه الحافظ إبراهيم بن محمد بن محمود الناجي (٨١٠ ـ ٩٠٠هـ)، يسأله: هل صح أن بلالاً كان يبدل حرف الشين سينًا من كلمة: «أشهد» حال الأذان والإقامة فينطقها «أسهد» بالسين المهملة بدل الشين المعجمة.

فأجابه الخيضري بعدم صحة ذلك، وبنى فتواه على أمرين مهمين:

الأول: أن الحديث الوارد في: «سين بلال عند الله شين»، لا أصل له في شيء من كتب السنة: الصحاح، والمسانيد، والسنن، والتواريخ، والأجزاء.

الثاني: أن الأذان رتبة سنية انتخب رسول الله صلى الله عليه وسلم لها بلالاً لنداوة صوته، ولم ينقل إلينا عن أحد من الصحابة ممن سمعه يؤذن تلك المدة المتطاولة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولا بعده أنه حكى عنه هذه اللثغة في حرف الشين، ولو كانت فيه لتوافرت الدواعي على نقلها، فإن مثلها لا يسكت عليه.

كذلك يوجد في ذيل الكتاب «وصية الشيخ القاضي أبي عبدالله ناصرالدين محمد بن الميلق الشافعي (٧٣١ ـ ٧٩٧هـ) للقضاة وأصحاب المناصب والوظائف.



القاسمي، علي/مفاهيم العقل العربي ـ الدار البيضاء: دار الثقافة، ٢٠٠٤م، ٣٠٨ص.

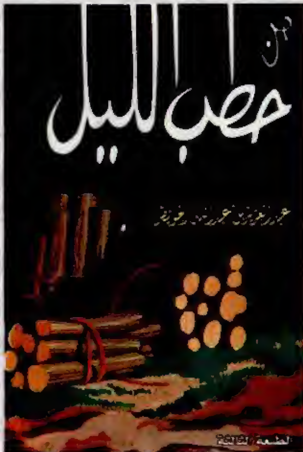
يقول المؤلف: إن المفاهيم تتباين من مكان إلى آخر ومن زمان إلى آخر، لأن تقطيع الوجود إلى مكونات يختلف من ثقافة إلى أخرى، ولأن اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن المفاهيم ونقل المعرفة، وإنما تسهم كذلك في تشكيل المفاهيم وتطويرها، خاصة تلك المفاهيم الدالة على الموضوعات المعنوية والقضايا المجردة.

وأكد أن هذه المفاهيم تتكون من تراكم المواقف المتعددة المستمدة من المعتقدات

والتقاليد والعادات، ولا يمكننا تحديد مفاهيم هذه الموضوعات المعنوية إلا باستخلاصها من السياقات التي تستخدم فيها، وعلى الخصوص الأمثال السائرة، والحكم المتبعة، والأقوال المأثورة، وما يستشهد به أبناء الثقافة من النثر والشعر، وتحفظه ذاكرتهم وتتداوله أجيالهم.

وقد جمع المؤلف قدرًا كبيرًا من الأقوال المأثورة التي يحفل بها المخزون اللفظي للغة العربية، ونشرها في كتاب بعنوان «معجم الاستشهادات»، ثم قام بتصنيف تلك الاستشهادات وتحليلها واستخلاص بعض مفاهيم الثقافة العربية منها، ونشر نتيجة دراساته في هذا الكتاب الذي يضم خمسة عشر فصلاً عناوينها كالآتي: «مفهوم المفهوم»، و«مفهوم الحياة»، و«مفهوم العلم»، و«مفهوم الوطن»، و«مفهوم الجوار»، و«مفهوم الصداقة»، و«مفهوم المرأة»، و«مفهوم الجمال»، و«مفهوم الحبّ»، و«مفهوم المال»، و«مفهوم الكرم»، و«مفهوم الجوار»، و«مفهوم الغربة»، و«مفهوم البكاء»، و«مفهوم الشيخوخة»، و«مفهوم الموت» .

الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله/من حطب الليل، ط. ٣. ـ الرياض: المؤلف، ١٤٢٥هـ، ٢٣٠ص.



هذه هي الطبعة الثالثة من هذا الكتاب، إذ كانت طبعته الأولى في سنة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، وهو مجموعة مقالات سبق أن قام الكاتب بنشرها في وسائل الإعلام المقروءة أو المسموعة أو المرئية، وزيادة في أمل النفع أخرجها المؤلف في كتاب رأى حينئذ ألاّ ينزله إلى السوق، وإنما قصر توزيعه على الأقارب والأصدقاء والمعارف، ومن يسمع عنه أو يطلبه، ولكثرة ذاكري الكتاب، والمقتبسين مما فيه في أحاديث المجالس، رأى المؤلف أن يعيد طبعه، وأن يجعله هذه المرة متاحًا للاقتناء عن طريق إنزاله لدور النشر والمكتبات.

ويقع الكتاب في ثلاثة أقسام، احتوى القسم الأول على المقالات التي كتبها المؤلف في صحيفة «الجزيرة» في سنة ١٣٨٨هـ تحت عنوان «من حطب الليل» وبتوقيع «حاطب ليل»، وقد بين في أول مقال في هذا القسم الأسباب التي دعت إلى كتابة هذه المقالات.

واحتوى القسم الثاني على المقالات التي كتبها المؤلف في صحيفة «الرياض» في سنة ١٣٩٠هـ تحت عنوان «دلو ماء» وبتوقيع «ماتع»، وقد سار في كتابتها على النهج نفسه الذي كتب به مقالات القسم الأول.

وجاء في القسم الثالث مقالات تشترك مع القسمين السابقين في أن الالتزام فيها ظاهر، لأنه يحتوي على كلمات كتبها للإذاعة في سنة ١٣٨٦هـ في برنامج «فكرة اليوم»، وألحق بها مقالات إما أنها أذيعت في هذا البرنامج ، وإما أنها أعدت لتذاع ولم تذع، واما أذيعت في التلفاز بمناسبة العيد، وقد قصد المؤلف من الكتابة تحت اسم «حاطب ليل» و«ماتع» المساعدة على قبول هذه المقالات أو رفضها، دون أن يكون لاسم صاحبها دخل في ذلك.



حولية كلية المعلمين في أبها (ع٥، ١٤٢٤هـ - ١٤٢٥هـ)

مجلة علمية محكّمة

لم يعد هذا العدد من الحولية قاصرًا في مجال الأبحاث المحكّمة على المجال التربوي فحسب، بل شمل سائر التخصصات الأخرى، واشتمل على ثلاثة أبحاث محكّمة جاءت على النحو الآتي: البحث الأول، وهو بحث فقهي، بعنوان «التطبيقات الدعوية للقواعد الخمس الكبرى الفقهية»، للدكتور عبدالرحمن بن أحمد الجرعي، والبحث الثاني، وهو بحث عقدي، فكان بعنوان «معرفة النبي صلى الله عليه وسلم وأثرها على النصارى المنصفين»، للدكتور محمود بن عبده عبدالرازق الرضواني، في حين جاء البحث الثالث في العلوم بعنوان «دراسة كيميائية على زيت النعام المستخلص من دهن النعام» للدكتور صلاح النعيم محمد التوم والدكتور عبدالله بن غدران مطر السهيمي.

بالإضافة إلى خمسة أبحاث أخرى ضمن الأبحاث غير المحكّمة وهي: «التسمم الغذائي الميكروبي» للدكتور عبدالمنعم محمد سعدابي، و«تلوث المياه: المشكلة والحل»، للأستاذ أحمد السنوسي، و«علم المناسبات في القرآن الكريم» للدكتور صدقي عبدالحميد محمد، و«في ظلال الأحرف السبعة والقراءات القرآنية» للأستاذ قسيم طالب كفارنة.

وأربعة مقالات ضمن الموضوعات والمقالات هي: «إصلاح الإعلام خطوة مباركة في طريق إصلاح شباب الإسلام» للدكتور عبدالقادر بن محمد عطا صوفي، و«الإعجاز العلمي في حديث الذباب» للأستاذ محمد بن علي الشهري، و«جولة علمية في رحاب الكون» للأستاذ هاني الضليع، و«صدق الكاتب المسلم في السيرة الذاتية وما شاكلها» للأستاذ أحمد بن علي آل مربع.

وختمت الدورية بملخصات لعشر رسائل تقدم بها أصحابها لنيل بعض الدرجات العلمية في تخصصات مختلفة.

العنوان:

ص . ب: ٢٤٩ - كلية المعلمين - أبها.

هاتف: ٢٢٧٠٤١٩

ناسوخ: ٢٢٧١١٠٣ - ٢٢٨٥٥٦٥

www.tcabha.info



عالم الفكر (مج ٣٢، ع٤، إبريل - يونيو ٢٠٠٤م)

مجلة دورية محكّمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت.

تسلط الدورية في هذا العدد الضوء على قضيتين مهمتين هما الحدود بين الدول والحروب الأهلية، بجانب الموضوعات الأخرى.

بدأ العدد بالحديث عن الحدود والحروب الأهلية وكان أول بحوثه بعنوان «الحدود بين العرب: لتجاوزها ... لابد من تحديدها!» للدكتور محمد جابر الأنصاري، وأوضح د. سلمان أبوستة أن

«حدود فلسطين مدخل للاستعمار»، وكتب د. محمد علي الفرا عن «العولمة والحدود»، وشرح د. مصطفى أحمد تركي «الجوانب النفسية للحدود» وتناول د. وجيه كوثراني «الحرب الأهلية وإشكالية الداخل والخارج»، وختم د. نصرالدين سعيدوني بحوث هذا المجال ببحث عنوانه «المسألة البربرية في الجزائر: دراسة للحدود الإثنية للمسألة المغاربية».

وفي باب آفاق نقدية كتب د. عطية العقاد عن «تيار الوعي السياسي في المسرح الألماني»، وتناول الأستاذ محمد الداهي «طبيعة مفهوم الكلام ووظيفته». وجاء آخر بحوث العدد بعنوان «حضور المتلقي في تأليف ابن قتيبة مقدمة (عيون الأخبار) نموذجًا».

العنوان:

ص.ب: ٢٣٩٩٦ ـ الصفاة ـ الرمز البريدي ١٣١٠٠ دولة الكويت.

البريد الإلكتروني: Elfikr@nccal.org.kw

مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية (س١٥، ع١٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)

مجلة علمية سنوية محكّمة تصدر عن مركز الوثائق والدراسات الإنسانية في جامعة قطر.

تنوعت أبحاث هذا العدد لتغطي كثيرًا من المجالات باللغتين العربية والإنجليزية، بدأت ببحث د. بكري محمد الحاج بعنوان «تراث العربية والفكر الألسني الحديث: بحث في المنهج والتطبيق»، وأرّخ د. محمد حسن عبدالكريم العمادي لإنشاء المدارس في نيسابور بموضوع عنوانه «نظامية نيسابور»، وتناولت الدكتورة عائشة الدرهم «العاطفة الأسرية في شعر ابن دراج القسطلي»، وقدّم د. أحمد محمد الصغير علي دراسة في الفكر النحوي بعنوان «تنوين التنكير وأثره في إعراب الاسم وبنائه»، وتعرض د. حامد الشافعي دياب لـ «مكتبة المسجد الأقصى المبارك: ماضيها وحاضرها»، وتناولت الدكتورة سهام الفريح «النابغة الذبياني في معجمه اللغوي» وقدّم د. مشتاق عباس معن موضوعًا بعنوان «التوظيف البلاغي لعلم الأصوات: قراءة في وظيفة التداخل بين حقول المعرفة»، ود. دليم مسعود القحطاني عن «أثر توزيع مدة تدريس اللغة الإنجليزية على تحصيل طلاب الجامعة»، وختمت الدكتورة فائزة بنت عمر بن علي المؤيد بحوث اللغة العربية ببحث عنوانه «دراسة كتاب (الأصول في النحو) لابن سراج».



وجاء في ختام المجلة بحث باللغة الإنجليزية عن «أخطاء التأثير السلبي للغة الأولى لدى الطلاب العرب في استعمال المتلازمات الإنجليزية»، للدكتور عبدالمنعم محمود محمد.

العنوان:

ص.ب: ٢٧١٣ ـ الدوحة ـ قطر.

هاتف: ٤٨٦٧٦٣٠

ناسوخ: ٤٨٧١٣٣٣



علي جــواد الطـاهر والنقـد القـصـصي

باقر محمد جعفر الكرباسي
النجف ـ العراق

يُعَدُّ الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر (١٩١٩ ـ ١٩٩٦م) ـ رحمه الله ـ علمًا من أعلام الأدب والنقد في العراق والوطن العربي، كانت اهتماماته متشعبة ومتعددة، وبالإمكان عدّه من الكتّاب الموسوعين في وقت ضاقت الدنيا بالمثقفين فاتجهوا صوب التخصص في لون ثقافي يكتبون فيه ويُعَرفون به، لكن اهتمام الطاهر كان منصبّاً في أغلبه على مجال النقد الأدبي، وبوجه أخصّ نقد القصة، ولدى عودته إلى الوطن وجد لديه اهتمامًا جادًا بالقصة حيث يعرّفها بقوله:: «القصة عمومًا حكاية، والحكاية خصوصًا أن يروي إنسان لآخرين ما رأى أو سمع أو تصور، وهي قدر مشترك بين بني البشر في كل مكان، وطبيعي أن تكون نثرًا أول ما تكون، ونثرًا اعتياديًا من لغة الحياة اليومية، وإنما تستمد قوتها من تصرف الراوي بما تمليه عليه مخيلته، وبما تمده به قدرته على الوصف والتشبيه...».

والقصة من فنون الأدب التي احتلت مكانًا مرموقًا في النفوس للمتعة التي يحس بها القارئ ويتذوقها السامع على اختلاف العصور، وتنوّع الأعمال، وتباين البيئات..

وفي الملتقى القصصي لجيل ما بعد الستينيات الذي عقد في بغداد عام ١٩٩٢م ارتجل الطاهر ـ رحمه الله ـ كلمة قصيرة في جلسة الافتتاح كانت بعنوان (وإذ يولد جيل) حقًا كانت منهجًا، وليست كلمة، كانت طريقًا صحيحًا للذين يرغبون في الإبداع.

قال الطاهر في نهاية الكلمة: «نعود لننتهي بأن القصة فن صعب وعلى صاحبه أن يتحمل من أجل أن يأتي بالأحسن». وعن أهم ما يراه في القصة سُئِلَ الطاهر مرة فأجاب: «الأداء الفني، والعناية بالتركيب والأسلوب، وعرض الحدث مع انفعالاته لا مجرد حكاية أو تقرير عن حادثة، أما قضية القواعد القديمة التي ترتبط بالعقدة فقد خفت كثيرًا الأسباب والتأثير النفسي لا المناورات على أعصاب القارئ».

أما رأيه في نظرية القصة فكان بعد مرحلته الباريسية، فقد حضر بعض دروس النقد الأدبي في الجامعة الفرنسية، هذا الحضور دلّه على أن النقد مظهر حضاري جليل يتطلب الموهبة والعلم العميق الواسع، وأتاحت له اللغة الفرنسية أن يقف على أصول القصة وروائعها، فتكونت لديه قواعد وقوانين. وفي كتابه «في القصص العراقي المعاصر» الصادر عام ١٩٦٧م مشاركة جادة لبلورة مصطلح فني مستقر وناضج للأقصوصة.

وللقصة شروط عند الطاهر هي: «الوعي بالفن، وحدة الحدث، الإلماح إلى البيئة، الوضوح في الشخوص، الفكرة الخيرة، الموقف النفسي، المناجاة، الحوار، الإدارة بين البدء والانتهاء بتناسب الأجزاء، فلا طول معيب ولا قصر مخل، لغة سمحة، إفادة للقارئ وإمتاع من غير لعب بأعصابه أو تعالٍ عليه أو عبث يسلمه إلى متاهة».

إذا تحققت هذه الشروط أصبحت قصة. أما منهج المرحوم الطاهر النقدي فليس ثمة نص أو نصوص تشير إلى نظرية نقدية اختصّ بها، لكنه عبر

كل نص أو مقالة أدبية له تجد شيئًا من نظريته النقدية في الأدب، يتصل عقله النقدي بعقله عمومًا، أما المنهج الذي اعتمده - رحمه الله - في كتاباته النقدية: فيقوم على دعامتين : الأولى: تسجيل الارتياح لقراءة أثر أدبي في مقالة من دون إبداء التعليلات، وتلك أقرب إلى أن تكون تحية لذلك الأثر منها إلى النقد، أما الثانية: فعملية النقد بالمعنى المطلوب: قراءة النص، فإذا انفتحت له أبوابه قرأه ثانية مسجلاً ما توحيه القراءة، مستعملاً (صح، خطأ، جيد، أصيل....إلخ). وملاحظًا اللغة (سلامتها، فصاحتها، انسجامها مع الأشخاص) فضلاً عن ذلك ملاحظة (التكرار) الذي يشير إلى صلته بشخصية الكاتب، ثم قراءة ثالثة، فالكتابة النقدية، ويعترف الطاهر (بأن كتابته عن الأثر الجيد بإعجاب ربما كانت من العوامل التي دفعت بعضهم إلى وصف مقالته النقدية بـ (الانطباعية)، غير أن هذا الإعجاب يجيء من معايشةٍ واستيعاب وتحليل للوقوف على عناصر الجمال والأصالة).. وسُئِلَ الطاهر مرة عن المنهج الذي يتبعه: «ثمة من يصفك بأنك انطباعي في النقد، ووجود صبغة ذاتية تطغى على فهمك للمنهج وللنقد الأدبي عمومًا» فأجاب الطاهر: «الوصف إذا أخذ بحسن نية، فهو صحيح، وأنا «انطباعي ونصف». ما المقصود بحسن النيّة؟.. الانطباعية لا تعني الهوى الشخصي، ولا الرأي المفروض، ولا الحكم المستعجل، إنما هي ثمرة قراءة متأنية، وربما قراءات، للأثر الأدبي وما حوله، وأحيانًا للنقاش ومسألة صاحب الأثر نفسه من حيث المبنى والمعنى. أنا انطباعي من خلال الموضوعية «أقدم المادة الفنية الجافة بطراوة فتحس كأنها انطباعية».

. كل هذه الخطوات يتبعها الطاهر ويكتب نقدًا مبدعًا، ويقول البعض بأنه انطباعي، إنه ناقد مبدع أعطى كل ما لديه من إبداع ورحل.

